

الظاهرة السدودية
في أم البكار

الأسطورة
في الرواية العبرية

رعاة البقر
في عصرهم الذهبي

جهود العلماء العرب
في خراسان

من أعلام الإسلام
في نيجيريا

الزهايمر:
أعراضه وأسبابه



الناشر: دار الفيصل الثقافية

المحتويات



سحر الورق

عندما خرجت الكلمات من الشفاه، وأخذت مكانها على الورق، تغيرت طريقة تفكير الإنسان. وكان للورق والطباعة الأثر الكبير في أن تخرج أوربا من ظلام العصور الوسطى، إذ أخرجت المطبعة بعد خمسين عامًا من اختراعها نحو ستة ملايين كتاب في القانون والعلوم والسياسة والدين والمكتشفات والشعر. فما قصة تطور صناعة هذا الساحر المعروف «بالورق» على امتداد العصور؟!

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد

مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ٤٦٥٢٢٥٥
ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات،
أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات:

هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢
ردمد ١١٤٠ ـ ٠٢٥٨

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدراً من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
  - يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
  - يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
  - التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
  - تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصاً القديم منه.
  - ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

السعر الإفرادي:

السعودية ٨ ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧ دراهم ـ قطر ٧ ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عمان ٧٥٠ بيسة ـ الأردن ٥٠٠ فلس ـ اليمن ٦٠ ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ١٥٠ جنيه ـ المغرب ٨ دراهم ـ تونس دينار واحد ـ الجزائر ٨٠ ديناراً ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ سورية ٣٠ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنك ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية ـ الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع ـ هاتف ٤٧٨٣٠٠٠، فاكس ٤٧٨٤٣٣٣. مصر ـ مؤسسة توزيع الأهرام ـ شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ ـ فاكس ٣٣٩١٠٩٦ ـ ٢٠٢٠٠ ـ سورية ـ المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٢٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨، فاكس ٢١٢٢٥٣٢ ـ ١١ ـ ٩٦٣٠٠ ـ تونس ـ الشركة التونسية للصحافة ـ ٣نهج المغرب ـ فاكس ٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ ـ ١ ـ ٢١٦٠٠ ـ قطر ـ دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ـ ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٦٦٢٢٨٢ ـ فاكس ٦٦١٨٦٥ ـ ٩٧٤٠٠ ـ الأردن ـ شركة وكالة التوزيع الأردنية ـ ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ ـ فاكس ٤٦٣٥١٥٢ ـ ٦ ـ ٩٦٢٠٠ ـ البحرين ـ مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ ـ فاكس ٥٣٦٢٨١ ـ ٩٧٣٠٠ ـ الإمارات العربية المتحدة ـ مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٦٦٥٣٩٤ ـ فاكس ٦٦٩٨٢٧ ـ ٤ ـ ٩٧١٠٠ ـ الجزائر ـ مؤسسة E.B.D. PRESSE لتوزيع الصحافة ـ ت ٤٨٦١٥٥٥ فاكس ٤٨٦٢٤٢٥ ـ ٢١٣٠٠ ـ الكويت ـ شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ ـ فاكس ٢٤١٧٨٠٩ ـ ٩٦٥٠٠ ـ السودان ـ دار التوزيع العام ـ ص.ب ٣٥٨ هاتف ٧٧٥٥٨٥ ـ فاكس ٧٧٥٧٧٠ ـ ١١ ـ ٢٤٩٠٠ ـ المغرب ـ CAS - SOCHPRESS - CAS - CASABLANCA ٢٤٥٧٤٥ MOROCO TEL: ٥٦٨٣٤٩٤ ـ باكستان ٠٠٢١٢-٤٠٤٠٣١/٣٢ فاكس PARADIS BOOK STALL - KARACHI 5. PAKISTAN TEL: فاكس ٥٦٨٢٧٠٤-٢١-٩٢٠٠ ـ الجمهورية اليمنية ـ محلات قائد التجارية ص.ب ٣٠٨٤ الحديدة هاتف ٢١٧٤٤٤ ـ فاكس ٢١١٥٣٥ ـ ٣ ـ ٩٦٧٠٠ ـ سلطنة عمان ـ المتحدة لخدمة وسائل الإعلام ـ ص.ب ٣٣٠٥ روي ١١٢ ت:٧٠٠٨٩٥ / ٧٠٧٩٣٢ ـ فاكس ٧٠٦٥١٢ ـ ٩٦٨٠٠



رسائلكم

عزم وإصرار

وبعد، يشرفني أن أرفع قلمي بين أناملي لأخط لكم هذا الخطاب الأخوي؛ راجيا منكم أن تتقبلوا نقدي بكل ديمقراطية وروح رياضية. أولاً. أشكركم على ردكم السلس اللبق ما فحواه:

«يؤسفنا الاعتذار عن عدم نشره لكونها غير مناسبة للنشر في المجلة، ولا يعني ذلك بالطبع عدم صلاحيتها للنشر في أي مطبوعة أخرى». ولقد ترددت كثيرا في أن أكتب لكم خطابي هذا خوفًا من أن أثير حفيظتكم وأغضبكم. حاشا لله. فإن كانت المواد المرسلة لكم من طرفي ممتلئة بالأخطاء فطاقم تحريركم مؤهل لتنقيحها وإن كانت ركيكة أو مبهمة فالمرجو من إخوتكم لفت انتباهي إلى ذلك، وإن كان هناك سبب آخر فمن حقي أن أكون على علم بذلك!.

فمن خلال تصفحي لأعداد كبيرة ولسنوات طويلة وخصوصًا في عهد الدكتور زيد بن عبدالمحسن الحسين أجد أن أغلب المواد تكون مذيلة بأسماء إخوة من المملكة العربية السعودية أو الأردن أو سورية أو مصر. فنادراً جداً ما نجد أسماء لكتاب من المغرب العربي، ولا أعلم السبب في ذلك! أهي ندرة مشاركة هؤلاء؟ أم أشياء أخرى لا أعلمها؟

وحتى وإن نشر موضوع لمغربي فإنه غالبًا ما يكون لشخصية مرموقة لها وزنها في الميدان الثقافي بالوطن وخارجه. فلم لا تعطى فرصة إذن لمن جار الزمان عليهم وتجرعوا الإحباط داخل أنفاق مظلمة؟

فكتاباتي لا تمت للسياسة بصلة، بل هي كتابات تربوية أو أدبية محض لا غبار عليها. كما أنها من صميم الواقع، هذا من جهة أما من جهة أخرى فإني شاركت معكم في مسابقات ثقافية عدة ولم أحظ بالفوز ولو مرة واحدة على الرغم من أن إجاباتي تكون صحيحة ١٠٠ في المئة. ترى ما هي المقاييس التي تعتمدونها في اختيار الفائزين؟

المهم أنني على هذا التحامل عليكم. عبرت عن مكنونات نفسي بكل صدق وصراحة، وسأظل وفيا للمجلة وللأسلوب الجاد والجيد وللمواد الواقعية الصادقة.

وإن ردكم قد حفزني وأحبطني في الوقت ذاته غير أن نار قلمي لن تخمد، ولن تصبح رماداً قبل أن يخصص لي يوما حيز في مجلتنا الفيحاء لأنشر فيه إبداعي الشخصي، وما ذلك علي بمستحيل ما دمت عازمًا وجاداً وملتزما وطموحا.

وليكن في علمكم أن بعض إبداعاتي نشرت لي بصحف وطنية لها وزنها بالمغرب (كالعلم) و(الاتحاد الاشتراكي)، ومجلات وطنية أخرى.

إخواني الأعزاء سأدشن هذه السنة مراسلتي لكم للمشاركة بمجلتنا المحترمة بعمل أدبي بعنوان «أنا.. والليل»، أتمنى من الله أن يحظى بقبولكم ونشره في القريب العاجل بمجلتكم الغراء، وفي انتظار ذلك.

تقبلوا مني فائق التقدير والاحترام.

صحابي المصطفى

الرباط - المغرب

التحرير:

هناك معايير موضوعية يتم الاحتكام إليها عند إجازة أي موضوع، ولا يعني الاعتذار عن نشر أي موضوع تقليلاً من مكانة كاتبه، فنحن حريصون على تنوع جنسيات كتاب المجلة، إلى جانب تنوع الموضوعات، وسوف يتبين لك ذلك بمراجعة أي عدد من الأعداد السابقة، كما أن المسابقة يتم السحب عليها بالقرعة، وكان بودنا لو نستطيع مكافأة كل أصحاب الإجابات الصحيحة. فحظًا أوفر للإخوة القراء. كما نأمل أن تجد موضوعاتك طريقها إلى النشر في «الفيصل» قريبا.

الإسلام في إفريقية

أشيد بمجلتكم المتازة واهتمامها بالشؤون الإسلامية. وعليه أرجو أن تركزوا على الملاحظات التالية:

- الاهتمام بالتاريخ الإسلامي في إفريقية.
- التركيز على المالك الإسلامية في إفريقية.
- إعطاء نبذة تاريخية عن المالك الإسلامية في السودان على وجه الخصوص منذ الفتح الإسلامي للسودان بقيادة الصحابي الجليل عبدالله بن أبي السرح إلى قيام الثورة المهدية مروراً بمملكة الفونج والمسبعات وتقلي والفور.
- تبني الدعوة إلى مساعدة الدول الإفريقية التي لها غالبية إسلامية مثل دول غرب إفريقية تشاد، والنيجر، ومالي، وبوركينا فاسو، والسنغال، وغامبيا، ونيجيريا.
- تركيز الجهود الدعوية إلى الدول الإفريقية التي لها أقلية إسلامية كما هو الحال في دول شرق إفريقية ووسط إفريقية وجنوب شمال غرب إفريقية أي دول الساحل الأطلسي.

أحمد بن المعطي

الرياض - مصنع ومعارض العثيم للمجوهرات

التحرير:

نشكر لك هذه الملاحظات التي ستكون محل اهتمامنا، علمًا بأن المجلة تعمل على أن تكون جسرًا للقارئ إلى كل أصقاع العالم، وإفريقية تجد اهتمامًا كبيرًا من المجلة، ونرحب بالمقالات التي تأتينا من الإخوة الكتاب من بلدانها المختلفة.

نور البصيرة لا نور البصر

لقد لفت انتباهي بشدة موضوع الإعلان المنشور على الصفحة ١١٣ من مجلتكم الغراء «الفيصل» العدد ٢٧٤ ربيع الآخر ١٤٢٠هـ الموافق يوليو/أغسطس ١٩٩٩م: من معاهد النور، وهي صورة فتى ضرير كُتب إلى جانبها «نور البصيرة - لا نور البصر».

زادكم الله نوراً وعلماً.. ودمتم منارة رشد وهداية على دروب المعرفة والرحمة الإنسانية.

فإلى مجلتكم الغراء أولاً ومن خلالها إلى جميع العاملين على رعاية معاهد النور لديكم وإلى المكفوفين كافة في العالم أهدي قصيدتي المرفقة هذه بعنوان «العين الثالثة».

أيها المكفوف مهلاً | لا تَقُلْ إنّي ضرير
مَن له قلبٌ ولبٌ | فهو إنسانٌ بصير

°°°

بين البصيرة والبصرْ | نورٌ من القلب انتشر
فالعقل يُبدِعُ فكرةً | والمدُّ يصنعهُ القمر

علمـــا أحــــاط بخلقـــه
ـــا ليس يدركـــه بشـــر

محمد جادو سجاع

سوريا - جبل العرب - السويداء - رابطة المحاربين القدماء - فرع السويداء

التحرير:

نشكر لك هذه المشاركة الكريمة وننشر جزءاً من قصيدتك الطويلة، تقديراً لروحك الإنسانية العالية.

أكثر فائدة!!

إنني أحد قراء مجلة الفيصل الغراء ومحبيها في عهد الإدارة السابقة، وعندما علمت أن إدارتها آلت إليكم، عدلت عن شرائها ودون أن أتصفح شيئاً منها، ومن غير أن أعرف ما طرأ عليها من تغييرات.

لقد كُتب لي أن أزور أحد أصدقائي في مكتبه في أثناء العمل، فوقع نظري على عدد جديد من أعداد المجلة وهو العدد ٢٧٤ ربيع الآخر سنة ١٤٢٠هـ يوليو/تموز عام ١٩٩٩م فتصفحته واستأذنت صاحبي أن أستعيره مدة يومين فقرأته فوجدت ما طرأ عليها من تغيير أكثر فائدة عما كانت عليه من قبل، فأدركت أن العاطفة تؤدي دوراً سلبياً في بعض الأحيان في حب الأشياء وكرهها، ومن ذلك التاريخ كنت قد بدأت أترقب مجيء عدد جديد من جديد.

فأرجو من سعادتكم أن ترسلوا لي ولو بعضاً من الأعداد التي فاتتني (قبل العدد السالف الذكر). ودمتم في رعاية الله وحفظه.

عبدالله عامر محمد الجعيدي

الجمهورية اليمنية - حضرموت - المكلا - ص.ب ٥٠٧٤٥ - المكلا

التحرير:

نشكر لك صدقك وصراحتك، ونتمنى أن تكون المجلة دوماً عند حسن ظن القراء وسوف تصل إليك الأعداد التي طلبتها في القريب إن شاء الله.

التغيير سنة الحياة

أتقدم بالشكر الكامل إلى جميع العاملين في مجلة «الفيصل الفيحاء» فأنا من المتابعين لهذه المجلة منذ مدة. وقد أثار انتباهي - في الأول - التغير المبارك - إن شاء الله - الطارئ على ترتيب المجلة وإخراجها، حتى على محتوى أبواب المجلة؛ إذ في التغيير مسايرة لسنة الحياة التي لا تدوم على حال.

وأنتهز هذه المناسبة لأتقدم لجنابكم باقتراحي وهو جعل صفحة المسابقة ذات قفا أبيض يعني فارغاً من كل كتابة حتى لا يضيع من المجلة شيء حين نقطع القسيمة لإرسالها إليكم. وسبحان من له الكمال المطلق.

دمتم في رعاية الله وعونه مع شكري وتقديري لكم، والسلام.

ليلى بنت صالح بن عبدالجليل

نهج دمشق نمرة ١٠ - الرمز البريدي ٤٠٧٠ - مساكن الشرقية - الجمهورية التونسية

التحرير:

ملاحظتك جديرة بالاهتمام، وسوف نحاول ألا يكون لنزع قسيمة المسابقة أثر في محتويات المجلة.

ردود سريعة

الأخ أبو شطيط المكي - ولاية باتنة - الجزائر:

نأسف لعدم تمكننا من تلبية طلبك الخاص بإرسال بعض الكتب إليك، وسوف تصل إليك بعض أعداد المجلة، ومن بينها الملحق الذي صدر عن سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، شاكرين لك ثقتك وحرصك على اقتناء المجلة.

الأخ رمزي مبارك - إقليم تارودانت - المغرب:

يصعب على المجلة تحقيق طلبك الخاص جداً والمذكور في رسالتك، ويمكنك مراسلة جهات الاختصاص مباشرة، وسوف تجد من يحقق رغبتك إن شاء الله.

الأخ محمد عيدروس علي أحمد - حضرموت - اليمن:

لا تتوافر لدينا المعلومات التي طلبتها، ولكن بإمكانك الاتصال بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية للحصول على ما تحتاج إليه من مراجع عن الموضوع المذكور. وعنوان المركز هو: ص.ب ٥١٠٤٩ - الرياض ١١٥٤٣ - المملكة العربية السعودية.

الأخت أماني عبدالستار رضوان - الأردن:

نشكر لك اقتراحك الخاص بأن يكون خلف المسابقة خالياً من أي مادة تحريرية، حتى لا تتشوه المجلة، وحفاظاً على المادة التي تحتويها الصفحة، فقد عملنا على تفادي ذلك، إلى جانب التفكير في اقتراحك الخاص بأن تكون هناك قسيمة منفصلة للمسابقة.

الأخ محمد نجيب إسماعيل باكير - حلب - سورية:

نشكر لك حرصك على اقتناء جميع أعداد المجلة، وحفظك لها في مجلدات، أما الأعداد الناقصة في مجموعتك فسوف نحاول أن نرسل إليك المتوافر منها لدينا.

الأخ خالد محمد عبدالله المقبلي - صنعاء - اليمن:

مرحباً بك وأنت تنضم إلى قافلة «الفيصل» كما تقول، والعدد الذي طلبته في الطريق إليك إن شاء الله، ونرحب بملاحظاتك وآرائك.

الأخت أم كلثوم محمود عليان حسالي - الأقصر - مصر:

نشكر لك مشاعرك الفياضة تجاه المجلة، ونأمل أن تكون عند حسن ظن الإخوة القراء، وكنا نأمل لو نستطيع تحقيق مطلبك الوارد في رسالتك، ولكنه خارج اختصاص المجلة وقدراتها، وليتك تراسلين جهات الاختصاص وسوف تجدين منها الاستجابة إن شاء الله.

الظاهرة السدودية في أم البكار ودلالاتها

حمّاد بن حامد السالمي

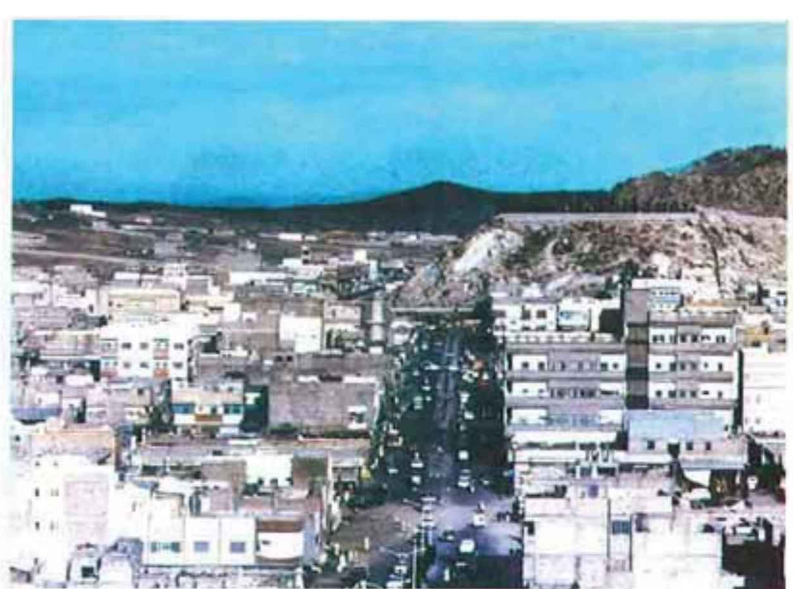
الطائف - السعودية

يعود تاريخ الطائف إلى ما قبل ظهور الإسلام بفترة زمنية طويلة، ففي العصر الجاهلي الذي سبق العصر الإسلامي، برزت الطائف حاضرة من حواضر الحجاز والجزيرة العربية مثل مكة ويثرب، وذاع صيتها بعد أن أحاطها الثقفيون بطائف يحيط بها فيحميها من غزو القبائل الطامعة، ويسند الخطط الدفاعية التي برع فيها رجال ثقيف في صد العدوان وحماية ممتلكاتهم في وادي وَجّ، وفي مقدمتها أعنابهم وكرومهم، وهي التي كانت هدفاً للجيش الإسلامي في غزوة الطائف في السنة الثامنة من الهجرة النبوية المباركة بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم.

إن هذه المنعة؛ وهذا الحذق الذي بلغته قبيلة ثقيف في الدفاع عن أرضها كان مضرب المثل عند غيرهم من القبائل، فها هو ذا عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم يفتخر بقدرة قومه على الدفاع عن أرضهم تماماً كما فعلت ثقيف في الطائف:

منعنا أرضنا من كل حي
كما امتنعت بطائفها ثقيف
أتاهم معشرٌ كي يسلبوهم
فحالت دون ذلكمُ السيوف(١)

والشهرة التي اكتسبتها الطائف عبر مئات السنين؛ تعود في المقام الأول إلى خصب أرضها، ووفرة مياهها، وطيب هوائها، ولهذا كان وادي وجّ، التي قامت الطائف على الطرف الجنوبي الشرقي من أعلاه أول الأمر، مدار الأحداث العسكرية والسياسية، وقطب النزاع والصراع بين ثقيف من جهة، وعدوان وبني عامر من جهة أخرى، حتى قرت السيادة لثقيف



منظر عام لمدينة الطائف

اخر الأمر، فبنت الحائط [الطائف](٢).

ولما جاء الإسلام؛ كانت الطائف في أوج عزها، وقمة مجدها، وكانت ثقيف الأكثر منعة وقوة، وفي مركز الند لقريش في مكة، وسبب هذا المجد وهذه المنعة خيرات وادي وج من أعناب وكروم وبر، وبراعة الثقفيين في كثير من الصناعات، ومنها الأدوات الحربية ودباغة الجلود وغيرها، وقيام سوق عكاظ على أطرافها الشرقية، مما جعلها مقصدا وسوقا للقادمين من أطراف جزيرة العرب، ومن خارجها.

الموقع المتميز

ومن أسباب شهرة الطائف وحضارتها التي تعود في جذورها إلى مئات السنين، موقعها المتميز؛ فلا هي في منطقة جبلية صلدة، ولا في منطقة صحراوية محلة، وإنما جاء موقعها وسطا بين قمم السروات الوسطى، وأعالي السهوب النجدية، فوادي وج الذي نبطنته الطائف، تصب فيه عشرات الأودية والشعاب من سفوح جبلية خضر، من الغرب والجنوب، ومن الشرق والشمال، سهوب تغلب عليها طبيعة الواحات التي لا تعدم الماء ولا الغطاء النباتي؛ لهذا انتشرت فيها المزارع، وخرجت من إمحال الصحراء إلى خصب الأودية الخضراء.

فهذا الموقع الجغرافي المتميز في تنوعه وتباينه، وعناية الثقفيين بالزراعة منذ زمن بعيد؛ هو التفسير الوحيد لانتشار السدود بالعشرات في بطون الأودية ومصاب الشعاب، ووجود أطلال لقرى دارسة لحياة استيطانية على أطراف الأودية، يضاف إلى ذلك قرب الطائف من مكة، وحاجة الأخيرة إلى ثمار الطائف ونتاجها الزراعي والحيواني، حتى وصف الأقدمون الطائف بأنها بستان مكة، فقالت العرب: [الطائف من مكة، ومكة من الطائف](٣).. وشكلت الزراعة في وج ونواحي الطائف؛ مع الطبيعة الخلابة، وجودة المناخ، وثراء الآثار في الحصون والقلاع وغيرها؛ ميزة إضافية بدأت قبل ظهور الإسلام هي الانتجاع والاصطياف، حتى عدت الطائف المصيف والمتربع الأول في جزيرة العرب منذ مئات السنين، فقد تسابق المكيون إلى وادي وج

خريطة تبين مواقع السدود في «وادي أم البكار»

والطائف ليس للانتجاع والاصطياف فقط؛ وإنما للتملك والاستثمار أيضاً، فقد كان لأبي سفيان ضيعة بالطائف يقال لها ذات الهرم، وكذا لعائشة بنت طلحة، والعباس بن عبدالمطلب بن هاشم عم الرسول صلى الله عليه وسلم. ولعل أول من اتخذ الطائف مصيفاً هو وج بن عبدالحي من



سد الأحيمر في وادي «أم البكار» جنوب الطائف

العمالقة الذي سمي وج باسمه، وذكر هذا الميورقي في كتابه: «بهجة المهج في بعض فضائل الطائف ووج»(٤).

السدود في الطائف

يعود إنشاء السدود الزراعية في أودية الطائف إلى منتصف القرن الهجري الأول، وبالتحديد إلى زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، الذي ينسب إليه سد وادي سيسد الذي أنشئ سنة ٥٨هـ في سيسد المحاذي للطائف من طرفه الشرقي تماماً، والواقع بين العرج من شماليه ونخب من جنوبيه، ولعل هذا السد هو أول سد يبنى في تاريخ الدولة الإسلامية، وفي الجزيرة العربية على وجه التحديد. ثم تلا ذلك إنشاء عشرات السدود على عشرات الأودية المحيطة بالطائف من جهاته الأربع، على أن أقدم سد يقام في الجزيرة العربية هو سد مأرب الذي شيد في اليمن قبل ظهور الإسلام بفترات طويلة، ثم انكسر أمام سيل العرم الشهير.

إن بناء السدود والاهتمام بها ضرورة لجأ إليها العرب في بلادهم للتغلب على ظاهرة التصحر، ومقاومة الجفاف في بلاد ليس فيها أنهار، وأمطارها قليلة إن لم تكن نادرة؛ على أن بقعة خلاف الطائف في الجزيرة العربية لم تعرف هذا العدد من السدود الصخرية المقامة على بطون الأودية.

وتذكر روايات أنه كان في الطائف حتى وقت غير محدد أكثر من سبعين سداً، يعود إنشاء أكثرها إلى العهد الأموي الأول(٥). ويستدل على ذلك من النقوش الحجرية غير المنقطة التي ترمز إلى السنوات التي سبقت عصر الحجاج بن يوسف الثقفي.

وحتى وقت قريب؛ لم يكن معروفاً عند الباحثين سوى عدد محدود من هذه السدود التي تتميز بصبغة آثارية وقيمة تاريخية

كبيرة. ومن أشهرها: سد سيسد، وسد السملقي، وسد العقرب، وسد ثلباء، وسد داما، وسدود أخرى وصلت إليها بعثة دورية «أطلال» السعودية، فوثقت منها ١٣ سدا(٦).

اكتشاف المزيد من السدود

من خلال جولات قمت بها حول الطائف على مدى عدة سنوات خلت: اكتشفت خمسة سدود أثرية تاريخية من منظومة سدود الطائف السبعين المقامة في العهد الأموي الأول أو بعضها بعده بقليل. فقد وصلت ذات يوم - وبمحض المصادفة - إلى سد على وادي قريقير المحاذي لوادي عرضة من شرقيه، وسميته «سد قريقير»، ووصلت إلى سد في رحاب، وسميته «سد رحاب»، ويطلق عليه السكان سد وديمة. وكتبت عنهما في بحثين لي منشورين(٧).

بعد ذلك بحثت في وادي «أم البكار» جنوب شرق الطائف فوصلت إلى ثلاثة سدود لم تكن معروفة، الأول على شعب الأحيمر وسميته «سد الأحيمر»، والثاني على شعب سويس الأعلى، وسميته «سد سويس الأعلى». أما الثالث فهو على شعب سويس الأسفل، وسميته «سد سويس الأسفل»(٨).

ظاهرة التكرار والتعدد

انشاء سد على واد يصب في حوض زراعي وحوله مستوطنات سكنية أمر مألوف في معظم أودية الطائف التي عرفت بسدودها التاريخية، مثل وادي ثمالة حيث «سد السملقي» المشهور، ووادي بني سالم حيث «سد اللصب» المنهدم(٩). إلا أن ظاهرة تعدد السدود وتكرارها برزت في وادي عرضة الذي اشتمل على خمسة سدود متقاربة بشكل لافت، وهي سد عرضة، وسد اللصب(١٠)، وسد السلمان، وسد الدرويش، ثم سد قريقير، والأخير سبق الكلام عليه(١١).

وفي وادي أم البكار جنوب شرق الطائف: تتكرر الظاهرة، فتجد خمسة سدود متقاربة على خمسة شعب تصب جميعها في وادي أم البكار، وسيأتي تفصيل ذلك لاحقا.

إن هذه الظاهرة من تكرار السدود وتعددها على الوادي



سد سويس الأسفل في وادي «أم البكار» جنوب الطائف



سد سويس الأعلى في وادي «أم البكار» جنوب الطائف

الواحد، تدل على وجود سياسة استيطانية وزراعية متطورة في وقتها، فإلى جانب حجز أكبر كمية ممكنة من مياه السيول خلف السدود لتتسرب تحت طبقات الأرض إلى مجامّ الآبار في هدوء وفي أطول وقت ممكن؛ فهي تحمي المزارع والحقول من الجرف المائي، وتساعد على نمو زراعي واستيطاني طويل المدى في الأحواض المنبسطة الخصبة، التي عادة تقع بين مجموعة من المرتفعات الشديدة الانحدار، وهذا ما يبدو واضحاً في وادي أم البكار، ووادي عُرضة.

الرحلة إلى وادي أم البكار

وجهتنا اليوم وادي أم البكار، الذي يقع جنوب شرق الطائف بقرابة أربعين كم في أعلى عباسة، وهي الطرف الشمالي من بلاد بني سعد، وفي الطريق إلى هذا الموضع؛ نخرج من الطائف عبر طريق الجنوب الذي اشتهر في سنواته الأخيرة بأنه طريق الموت، لكثرة حوادث السيارات عليه التي يذهب ضحيتها الكثير من الناس، فهو طريق واحد في اتجاهين، ومع ذلك فهو مكتظ بالحركة ليلاً ونهاراً. عند مغادرة العمران يأتي عن يسارنا وادي النمل الذي جاء له ذكر كثير عند المؤرخين، وهو نَخب المشهور(١٢)، عند هذا الوادي يقوم مسجد الصادرة أو السدرة، وهو مسجد تاريخي، ومن أعلى هذا الوادي دخل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطائف في غزوة الطائف، أما السدرة فلم يعد لها وجود. وفي نَخب يقول السكوني:

حتى سمعت بكم ودُعتُم نَخبا

ما كان هذا بحين النَّفر من نَخب(١٣)

ولأبي ذؤيب الهذلي يصف ظبية وولدها في نَخب:

لعمرك ما عيناء تنسأ شادناً

يعن لها بالجزع من نَخب النَّجل(١٤)

بعد ذلك بقليل نصعد تبة، ثم ننحرف منها شرقًا، وهذه هي (اليسرى) أو اليسرا، التي كانت تسمى (الضيقة) وعند عبور الرسول صلى الله عليه وسلم منها إلى الطائف سماها اليسرى. ومنها ندلف إلى منخفض من الأرض، ثم نعطف جنوباً إلى مرتفع غير عظيم، فعن يسارنا من هنا (بحرة الرغا)، وهي من جهة لِيّة، بل هي من لِيّة، موضع توقُّف الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة الطائف، حيث ابتنى بها مسجداً

وصلى فيه، وأقاد يومها ببحرة الرغا حيث نزلها بدم، وهو أول دم أُقيد به في الإسلام(١٥)، وأما المسجد فلا وجود له.

بعد ذلك نفضي إلى وادي ليّة الفحل، الشهير بعنبه ورمانه وحقوله ومزارعه الواسعة، وقراه الكثيرة على جوانبه، ومن لطيف ما

وبعد عبور الوادي على الطريق العام، يعترضنا مفرق مسفلت يذهب إلى الصخيرة، ووادي بني سالم، ووادي ثمالة، وفي الصخيرة قرية تنسب إلى الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي حكم العراق وما كان يتاخمه من أمصار في نهاية النصف الثاني من القرن الهجري

بالعسكرية في الحجاز(١٧).

ثم نستمر في سيرنا فيواجهنا الملعب، وفيه آثار ينسبونها في الرواية الشعبية إلى أبي زيد الهلالي - لا أدري مدى صحتها - وبعد ذلك نصل إلى «السر» وقد تحول إلى منطقة سكنية عامرة، ومن نهاية السر يأتي مفرق بني



سد القصيباء في وادي «أم البكار» جنوب الطائف

ورد شعراً في وادي ليّة - وقد ذُكر كثيراً في الشعر العربي - تورية بين اسم الوادي ولية الخروف، مقروناً باسم وادي قرن، وقرن الخروف في هذا الشعر اللطيف تورية وتشبيهاً لشاعر لم يُذكر اسمه:

قلت للطائف فضل
وادي فيه مزيه
أول الطائف قرن
مثل كبش فيه ليّة(١٦)

الأول، والقرية تسمى الكوثر، وتبعد من هذا المنعطف قرابة أربعة كم، وقد جاء ذكرها في بيت شعر لشاعر يعرِّض بالحجاج، ويُذكره بأيامه الخوالي:

أينسى كليب زمان الهزا
ل وتعليمه صبية الكوثر؟!

وكليب لقب للحجاج في زمنه الأول، وكان يعلم الصبيان القراءة والكتابة في الطائف قبل التحاقه

سعد، وهو طريق سياحي يفضي إلى بني سعد وبلحارث وثقيف، ثم يخالط طريق بني مالك والجنوب من صيادة.

ندخل من هذا المفرق فيقابلنا وادي غرابة الزراعي من اليسار، ثم المعدن، ثم وادي سلامة الشهير بزراعة القمح والخضراوات والفاكهة، ومنه نجد منعرجاً مسفلتاً يأخذنا إلى قرية عبّاسة، فندخل منه



سد سلامة اليسرى في وادي «أم البكار» جنوب الطائف

في اتجـــاه وادي «أم البـكـار» موضوعنا في هذا المبحث.

أم البكار

نحن إذن في موضع يقع جنوب شـرق الطـائف بنحـو أربـعين كم، ومن هنا نترك الطريق المؤدي إلى عبـاسة، ونـنحدر منه جنوباً إلى طريق تـرابي يشق وادياً عـريضـاً ليس به من مـعالم الحـيـاة شيء ذو بال. كل ما هنا أطلال. قـرية تتناثر بقـاياها على مرتفع قريب من بطن الوادي، بقـايا مـزارع تتكون من جـدران مـتـهدمـة وطينة زراعـيـة حمـراء متراكمـة، بكل تأكيد، هنا كانت تقوم مستوطنة بشرية كبيرة، وحولها بساتين وحقول ومزارع.

الجـبال والجـبـيـلات والهـضـاب المطلة على هذا المنفسح من الأرض خـضـراء حـاشـدة بأنواع شـتى من النباتات والأشجار البرية المختلفة.. سدر وطلـح وشث وطباق وأشـجار شـوكـيـة مـتـشـابكة. هذا الوادي وشعابه وجبيلاته كان منطقة رعوية أيضاً، واسمه ربما كان مشتقاً من الإبل التي تتربى هنا، فـالبَكْرة في اللغـة هي الفـتيّ من الإبل، وجمعها بكار، فالمنطقة التي تتربى فيـهـا البكار إذن هي (أم البكار)، ومن يشاهد هذا البـسـاط الأخـضـر الذي يكسـو السـهـل والجبل، وبقايا القرى يميل من دون شك إلى هذا الرأي.

سدود أم البكار

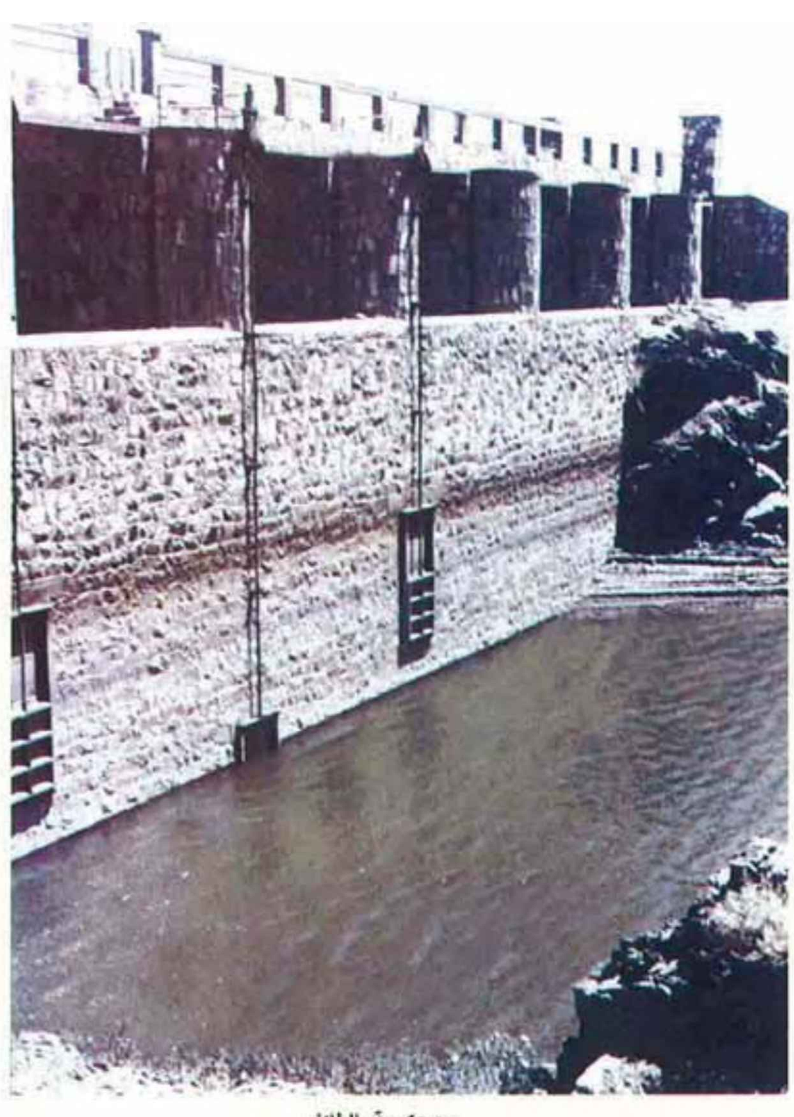
سـدود هذا الوادي تلتف حـول حوضه الخـصب الذي لابد أنه كان مـزدهراً زاخـراً بالحيـاة والزراعـة والنشـاط البـشـري والاستـيطان، فالسدود الخـمـسـة على الشـعاب تصب في هذا الحـوض من ثلاث جهات تقريباً:

- من جهة الغرب: سد الأحيمر.
- من جـهة الشرق: سد سويس الأسفل، وسد سويس الأعلى.
- من جـهــة الجنوب: سـد القصيباء، وسد سلامة.

- أولاً: سد الأحيمر:

يقـع هذا الـسـد على شـعـب الأحيمر، أحد الشعاب التي تصب في حوض وادي أم البكار من جهته الغربية، وموقع السد غير بعيد عن موقع سد القصيباء، فهو على بعد كـيل ونصف الكيل تقـريـبـاً من شماله.

إن سد الأحيمر هو من السدود الأموية التي تكلمنا عليها، والتي ظلت قائمة في أنحاء الطائف دون أن يسـقط منه حـجـر واحـد، وهو مبني من الحجـارة الصلدة الكبيـرة بلا مونة، وأحجاره متراصة بشكل


سد عكرمة بالطائف

هندسي، وجسمه من وجهين شرقي وغربي، وهو يمتد من الشمال إلى الجنوب، ويغطي الطمي الوجه الخلفي إلى القمة، ويوجد مغيض من شماله مشقوق في الجبل، وقد قمت بقياس أبعاد السد فإذا هي:

الطول: ٥ر٢٢م.

العرض: ٤ر٣م

الارتفاع من العمق: ٧م.

وهذا السد من السدود السبعين التي ظلت مجهولة، فلم يقف عليه أحد من الباحثين قبل هذا التاريخ، ولم تصل إليه بعثة الآثار في جولتها المعروفة التي نشرت أبحاثها في دورية «أطلال» في عددها السادس، وهو من السدود الخمسة التي وُفِّقتُ في كشفها(١٨).

ـ ثانيًا: سد سويس الأسفل:

يقع السد على شعب سويس الأسفل المفضي إلى وادي أم البكار من جهته الشرقية، وهو شعب يحاذي شعب سويس الأعلى، حيث يقع سد آخر هو سد سويس الأعلى بعد قرابة كيل واحد. والسد قائم بكامله لم يتأثر بما يهدد جسمه سوى سقوط صخرة كبيرة من أسفله، وهو من سدود الوادي التي يعود بناؤها إلى القرن الهجري الأول أو الثاني، وهندسته مشابهة لهندسة السدود الأخرى في أم البكار، وهو مكون من حجارة متوسطة في بناء محكم، وينجه من الشرق إلى الغرب بطول ٣٧م، ثم ينكسر بزاوية قائمة إلى الجنوب بطول ١٢م، وعرضه ١٠ر٢م، وارتفاعه من عمقه ٢٠ر٤م، كما أن ارتفاع الانكسار ٢ر١م، ويوجد مغيض كبير في الجبل من شمال السد، والطمي يغطي واجهته الجنوبية، ولم تستخدم المونة في إنشائه. وهو ثاني سد اكتشفه في هذا الوادي فلم يعرف من قبل(١٩).

ـ ثالثًا: سد سويس الأعلى:

يقع السد على أحد الشعاب التي تصب في وادي أم البكار بالقرب من قرية أم البكار الدارسة، وهو صغير نسبيًا، وقد تهدم من وسطه، ويبلغ ارتفاع جداره الشمالي ٢ ٤م، وعرضا ٤ م. أما الجزء الجنوبي منه فيبلغ طوله ٢٥م، وارتفاعه ٥ر١١م. وهذا السد يقع غربي سد سويس الأسفل بنحو كيل واحد، وهو أيضًا من السدود التي لم تعرف حتى اليوم. وما حدث له من انكسار من منتصفه ينذر بنهايته قريبًا،

والأهالي هنا يطلقون عليه «عاقد سوان صفارة»(٢٠).

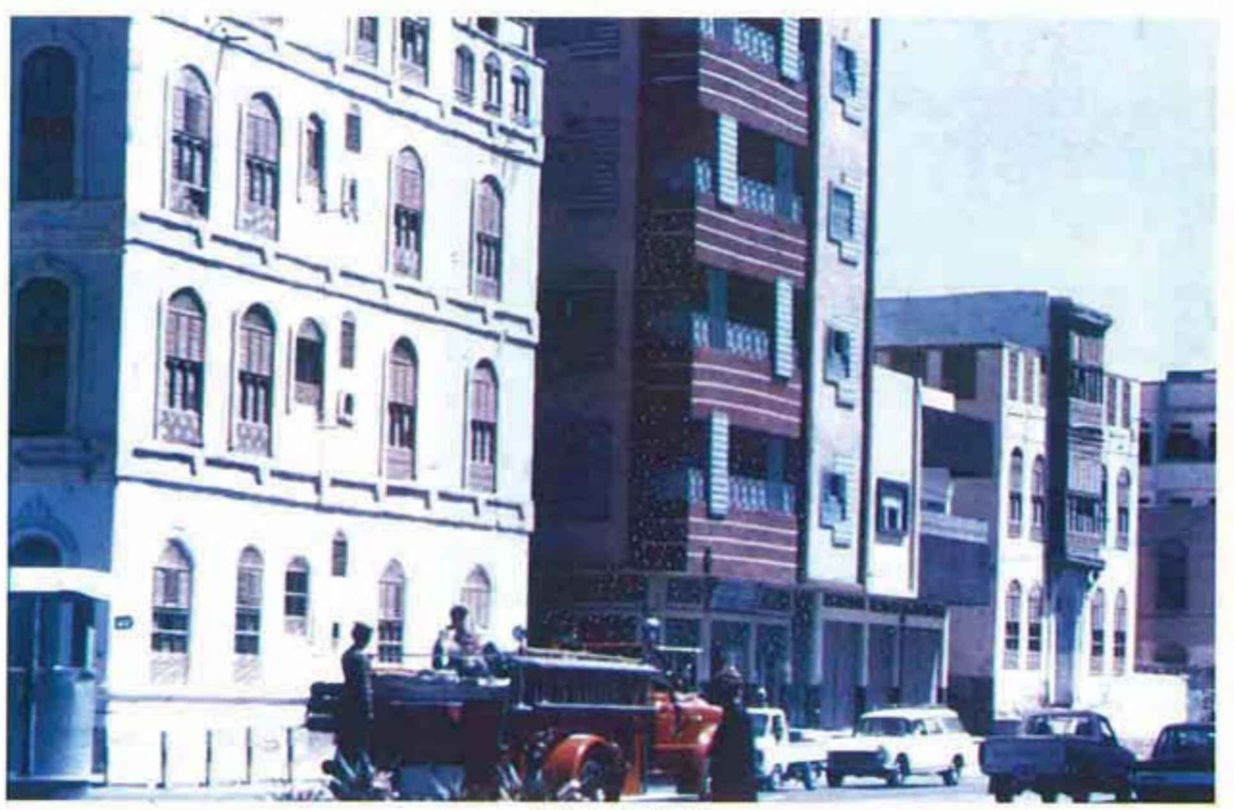
- رابعاً: سد القصيباء:

يقع السد على فرع آخر من فروع وادي أم البكار هو (سلامة اليمنى)، وهو واد كبير، والسد مقام على منتصفه، إلا أنه متهدم، ولم يبق منه إلا جزءان، شمالي غربي، وجنوبي شرقي. الأول إلى وادي أم البكار، وهو بين سدي سويس والقصيباء، ولا يبعد عن كل منهما أكثر من كيل واحد، وهو على ذات النمط حيث يقوم في منتصف الوادي ليحجز خلفه مياه السيول، وقد تهدم وانكسر من منتصفه، فلم يبق منه إلا جزءان. ويبلغ طوله ٣ر٤٧م، وارتفاع الواجهة الخلفية ٢ر٥م(٢٢).

المرتفعات حوله.

- نتيجة للشعاب الكثيرة التي تصب فيه، فإن سيله عظيم وكان يهدد المزارع والحقول والمستوطنات في حوضه.

- الحاجة كانت ماسة إلى رفع مستوى مياه الآبار بواسطة السدود التي تحجز المياه وتخزنها خلفها.



أحد الشوارع في الطائف

طوله ٤٢م، وعرضه ٤م، والثاني طوله ٢٥م، وارتفاعه ٥ر١١م، ووادي سلامة مسيل عظيم، تصب فيه شعاب كثيرة، ولاشك أنه من أسباب ازدهار الوادي فيما مضى من الأيام(٢١).

- خامساً: سد سلامة اليسرى:

يقع السد على شعب كبير يفضي

من دلالات الظاهرة السدودية في أم البكار

الظاهرة السدودية في هذا الوادي (أم البكار)؛ توحي بدلالات مهمة، منها على سبيل المثال:

- خصب الوادي، وجودة محاصيله الزراعية من الحبوب والفواكه، وجودة المراعي في

- الاستيطان كان قديماً، والحياة في حوض الوادي كانت مزدهرة.

- استطراق الوادي فيما مضى وقت ازدهاره، فقد كان محطة لعبور المسافرين والقوافل بين الطائف والباحة وتهامة، فوادي (سلامة) ذكره البلادي في معجمه(٢٣)، وجاء ذكر عقبة

سلامة التي تربط بين هذه الديار وتهامة، ومنها طريق يمر إلى مكة، فدل ذلك على أن وادي سلامة وأم البكار كانا معبرين بين السراة وتهامة.

- من المؤكد أن هذا الوادي وما حوله من قرى وشعاب، كان منتجعا سياحيا يقصده الأثرياء والموسرون، يدل على هذا كلام للعباس الموسوي المكي الذي مر في رحلته من هنا سنة ١١٤١هـ، وذكر قرية تسمى «أم شرم». وجاء ذلك في «كتابه نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس» الذي نشرته مكتبة المعارف بالطائف(٢٤).

والأهالي هنا يذكرون قرية يقال لها «أم الشرم». فغير بعيد أن تكون هي أم شرم التي ذكرها الموسوي، ففي هذه القرية التقى الموسوي قاضي الطائف أبا بكر كمال، والأخير كتب إلى صديقه الحسين بن النور الطائفي نزيل المدينة المنورة قصيدة يدعوه فيها إلى الشعبنة معه في (أم الشرم)(٢٥)، فيقول منها:

فهل نحظى بتشريف ووصل
يشرفنا غدا قبل الزوال
إلى بستاننا في «أم شرم»
نقضي شطر شعبان الموالي(٢٦)

وجاء في رد الطائفي من قصيدة طويلة قوله:

دعاني منه دعوة مستحث
قبيل الصوم يطلع بالهلال
لنقضي نزهة في «أم شرم»
على مرأى المزارع والتلال(٢٧)

وفي مجلة العرب؛ قال إن قرية «أم شرم» هي بين عباسة وبقران(٢٨). وبذلك فإن هذه القرية المنتجع هي في سلامة، وفي أم البكار، الوادي الذي كان مزارع خضراء، وحدائق وبساتين غناء، وقرى ومنتجعات جميلة، ومحطة برية للقوافل بين الطائف والباحة وتهامة. وهذا ما يفسر سر الظاهرة السدودية على واديه.. خمسة سدود على واد واحد.

المراجع والهوامش

١. حمّاد بن حامد السالمي، «الشوق الطائف حول قطر الطائف» المجلد الثاني، ص٩٠٠. الطبعة الأولى - بيروت.
٢. يعيد كثير من المؤرخين سبب تسمية الطائف إلى هذا الحائط أو السور أو الطائف، والطائف في اللغة مما يعنيه: ما يحاط به الشيء.. فالحائط الذي طيفت به الطائف: كان مبعث اسمها، وكانت قبلاً تعرف ببلاد ثقيف، ووج، والقرية، وإحدى المكتين، ووادي ثقيف، والهضبة.
٣. د. عبدالجبار منسي العبيدي، «الطائف ودور قبيلة ثقيف» ص٤٤، الطبعة الأولى ١٩٨٢م. دار الرفاعي - الرياض.
٤. د. إبراهيم بن محمد الزيد، من مقال له منشور في: «السجل الذهبي لمحافظة الطائف». الطبعة الأولى ١٩٩٩م. لجنة المطبوعات. الطائف.
٥. خير الدين الزركلي، «ما رأيت وما سمعت». سدود الطائف.
٦. انظر دورية «أطلال». العدد السادس. وزارة المعارف.
٧. مجلة «الفيصل». العدد ١٧٦، وجريدة الجزيرة العدد ٥٥٩٤ في ١٤٠٨/٦/٣هـ
٨. حمّاد بن حامد السالمي، «ثراء الآثار في منطقة الطائف» لجنة المطبوعات. الطائف. الطبعة الثانية ١٩٩٦م - ص١٨.
٩. كان السد يقوم على مخنق بين جبلين عظيمين. ثم تهدم واندثر. وأنشأت وزارة الزراعة والمياه على أنقاضه سدا حديثا يخزن خلفه ملايين الأمتار المكعبة من المياه في بحيرة كبيرة تصلح أن تكون متنزها ومنتجعا مائيا. وهي على بعد بضعة كيلوات من الطائف.
١٠. لصب عرضة غير لصب بني سالم.
١١. انظر مجلة «الفيصل» العدد ١٧٦. الظاهرة السدودية في وادي عرضة للكاتب.
١٢. قيل: هو المقصود في الآية الكريمة: حتى إذا أتوا وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. النمل:١٨. وانظر «الشوق الطائف حول قطر الطائف» للكاتب. ص١١١.
١٣. حمّاد بن حامد السالمي «الشوق الطائف حول قطر الطائف» مادة «السكوني».
١٤. المصدر السابق: مادة «الهذلي».
١٥. ابن هشام: «السيرة النبوية». المجلد الثاني ص ٤٨٢. مؤسسة علوم القرآن.
١٦. حمّاد بن حامد السالمي «الشوق الطائف حول قطر الطائف» مادة «شاعر».
١٧. المصدر السابق. مادة «شاعر».
١٨. حمّاد بن حامد السالمي. «ثراء الآثار في منطقة الطائف» الطبعة الثانية. لجنة المطبوعات ١٩٩٦م. ص٣٣.
١٩. المصدر السابق. ص٣٤.
٢٠. المصدر السابق. ص٣٥.
٢١. المصدر السابق. ص ٣٦. ودورية أطلال ج٦.
٢٢. المصدر السابق. ص٣٧. ودورية أطلال ج٦.
٢٣. عاتق بن غيث البلادي «معجم معالم الحجاز». مادة «سلامة».
٢٤. نزهة الجليس. ج٢ ص٤٤٣.
٢٥. الشعبنة: هي التروي والاستزادة من أطايب الطعام في أواخر شهر شعبان التي تسبق دخول شهر رمضان استعدادا للصيام. وهي عادة معروفة في نواحي الطائف والحجاز حيث يخرج الناس إلى المنتجعات ويتناولون ما لذ وطاب من الأطعمة والأشربة. أما الشرم: فهو شجر بري شوكي تأكله الأنعام.
٢٦. حمّاد بن حامد السالمي. «الشوق الطائف حول قطر الطائف». المجلد الثالث ص ١٢٧٢.
٢٧. المصدر السابق: المجلد الثاني ص ٩٠٣.
٢٨. محمد سعيد كمال، من بحث منشور له في مجلة العرب س٩، ج١١ ، ١٢.



دراسات دول الخليج العربية في الجامعات الأمريكية:

تحديد وتأطير وتوصيف

فؤاد حمد رزق فرسوني
الرياض - السعودية

تقديم الجوانب الرئيسة المتصلة بدراسات دول الخليج العربية في الجامعات الأمريكية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها المستشرف ونسيجها المعقد، يهدف إلى توضيح الأسباب المهمة لهذه الدراسات ومنطقها وعلاقاتها ومراميها وتحولاتها، وقد حرصت على الرجوع إلى المصادر المنتقاة المتعلقة بالموضوع، وأحدث الدراسات المنشورة في المجلات المتخصصة الصادرة عن المنظمات المعنية، وأخص بالذكر جمعية الدراسات الشرق أوسطية الأمريكية.

أما من حيث تحديد دراسات دول الخليج العربية فإن المصادر التي تناولتها لم تستخدم هذه التسمية، وقد أشير فيها إلى منطقة الدراسة تحت عناوين متباينة مثل: شبه الجزيرة العربية، أو منطقة الخليج (EICKELMAN:16).

وأشار «دليل الباحث للدراسات الشرق أوسطية» إلى منطقة الدراسة تحت هذا التحديد: المملكة العربية السعودية ومنطقة الخليج «الكويت، والبحرين، وقطر، والإمارات العربية المتحدة، وعمان» (DORR:4).

وأشار إليها في مواقع أخرى متفرقة (ص ١٥-٢٢٧) تحت تحديدات متعددة مثل: شبه الجزيرة العربية (ص٣٥)، ومنطقة الخليج (ص ٥٥ - ٢٢٧)، ودول الخليج الفارسي (ص٢١٠)، ومنطقة الخليج الفارسي (ص٢١٤)، وفي مساع جارية لجامعة ميتشجان لتأسيس مركز متخصص لدراسات هذه المنطقة أشير إلى دراساتها كدراسات دول الخليج العربية، وهي التسمية نفسها التي يتبناها الآن مركز دراسات دول الخليج العربية في جامعة «إكزيتر» البريطانية.



جانب من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

وفي تأطير دراسات دول الخليج العربية فإنها تعد متفرعة عن الدراسات الشرق أوسطية (DORR: 4,249)، وبالطبع فإن دراسات دول الخليج العربية، والدراسات الشرق أوسطية تنضوي تحت الدراسات الإقليمية، التي تعد بدورها الشكل الحديث للدراسات الاستشراقية، والتعبير الجديد الذي تقمصته (فرسوني: ٤٠). وكانت الدراسات الإقليمية في الولايات المتحدة الأمريكية قد وجدت في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية كمنظومة من الدراسات البيحقلية التي التقت فيها اهتمامات سياسية وأكاديمية، وبنيت معالجتها على أساس إقليمي يفترض تميز كل منطقة في العالم من الأخرى (CUMINGS:12)، وذهب جندزير GENDZIER، إلى أن البحوث الإقليمية قد تأثر تنظيمها المؤسساتي ومبادئها النظرية من جراء

السياسات المتحولة للولايات المتحدة (HAJJAR:3) وتجدر الإشارة إلى أن الدراسات الإقليمية الشرق أوسطية قد ابتدأت في الولايات المتحدة في سنة ١٩٤٦م من خلال الشروع بالبرنامج التدريبي في الإدارة الدولية في جامعة كولومبيا، وبرنامج الجيش التدريبي المتخصص للغات في جامعات برنستون، وإنديانا، وميتشجان، وبنسلفانيا، وفي سنة ١٩٤٧م أسست جامعة برنستون برنامجها البحثي الأول المتخصص بدراسة الشرق الأوسط الحديث والمعاصر. وتطورت الدراسات الشرق أوسطية في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين عقب إقرار المادة السادسة من نظام التعليم الدفاعي الوطني الأمريكي. ومع حلول سنة ١٩٦١م كانت المساقات في نطاق الدراسات الشرق أوسطية تقدم في إحدى وثمانين ومئة من الجامعات والكليات الأمريكية، وبموجب التمويل الذي رسمه النظام الآنف الذكر، تلقت مراكز الدراسات الشرق أوسطية الدعم والتمويل لبرامجها، ومع أن الدعم الحكومي لهذه الدراسات قد تقلص؛ فإن اهتمام الولايات المتحدة بمنطقة الشرق الأوسط ومواردها النفطية واستقرارها السياسي بقي قويًا، وهي تتبنى مقولة صامويل هنتنجتن التي تؤكد أولوية دعم النظام على التغيير (HAJJAR:4).

> **إقامة مركز لدراسات دول الخليج العربية في إحدى جامعاتها الخيار البديل والمفضل على إنشاء مركز في كنف جامعة أمريكية**

الدراسات الأكاديمية والمصالح الأمريكية

وقد تجاذبت الدراسات الشرق أوسطية المرئيات المتعارضة: المرئيات الرسمية التي تريد تطويع هذه الدراسات ونتائجها لخدمة سياسة الهيمنة الأمريكية في الشرق الأوسط، والمرئيات البحثية الموضوعية، مثلا لخبراء مشروع الشرق الأوسط البحثي والمعلوماتي (MERIP)، وبرنامج الدراسات الشرق أوسطية البديلة (AMESS) الذين لم يرق لأصحابها أن توجه النظرة الاستشراقية التقليدية والتميز الرأسمالي الغربي هذه الدراسات، وقد أثارت هذه المفارقة بعض الكتاب اليمينيين الأمريكيين إلى الحد الذي دفعهم إلى أن يذهبوا إلى أن الدراسات الشرق أوسطية قد ضلت طريقها، ولا تكون ملائمة إلا إذا خدمت المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط على حد قول دي أتكاين، وبايبز DE (HAJJAR:6) ATKINE & PIPES. ولدى توافر التمويل في وقتنا المعاصر دور كبير في مسيرة الدراسات الشرق أوسطية ومستقبلها. وهناك اتجاهان في التعامل الراهن مع الدراسات الشرق أوسطية في الجامعات الأمريكية هما:

أولاً: تقديم هذه الدراسات الإقليمية في نطاق حقول العلوم الاجتماعية والإنسانيات.

ثانيًا: معالجتها في نطاق برامج بيحقلية منظمة على أساس إقليمي.

ولا ريب أن غالبية الدعم للدراسات الشرق أوسطية تأتي من الدولة، التي تتوقع في المقابل عائدًا مجديًا لقاء استثمارها في هذه الدراسات، وتريد ارتباطًا وثيقًا بين برامجها من جهة، والمصالح الوطنية الأمريكية التي تحددها الدولة، والقطاع الأكاديمي، والشركات من جهة أخرى. وفي سنة ١٩٩١م خول القانون الأمريكي وزارة الدفاع الإشراف على البرنامج التعليمي للأمن القومي (NSEP) الذي يدعم الدراسة في الخارج إضافة إلى مراكز الدراسات الإقليمية لإعداد الأطر (الكوادر) اللازمة للعمل في وزارة الدفاع وفي المخابرات الأمريكية. والناظر في واقع الدراسات الشرق أوسطية المعاصرة يلاحظ اتجاهين رئيسين: الاتجاه الأنجلوسكسوني في التركيز على منطقة دراسية ممتدة من المغرب إلى الباكستان، والاتجاه الأوربي نحو الدراسات المتوسطية (ROGAN:22).

دعم خليجي لدراسات خليجية

ويستشرف طروء تحولات على مجريات الدراسات الشرق أوسطية استجابة للحاجة إلى تدويل الدراسات الإقليمية لاستيعاب الأولويات الفكرية المتغيرة، ولاسيما الإقليمية والدولية منها، والموضوعية التي من شأنها الحؤول دون تسييسها. ويرى رشيد الخالدي أن مستقبل الدراسات الشرق أوسطية يكمن في وقوعها في نطاق أقسام الدراسات المقارنة للآداب والسياسة والتاريخ...إلخ. وليس في تقوقعها في إطارها الجغرافي، ومن شأن ذلك اجتذاب دعم المؤسسة الأكاديمية لها، وإكسابها شمولية أكثر. (HAJJAR: 6-8). وعلى الرغم من التحولات والإشكاليات فيما يتصل بالدراسات الشرق أوسطية ومادتها ومستقبلها، فإن وقتنا الحاضر يشهد

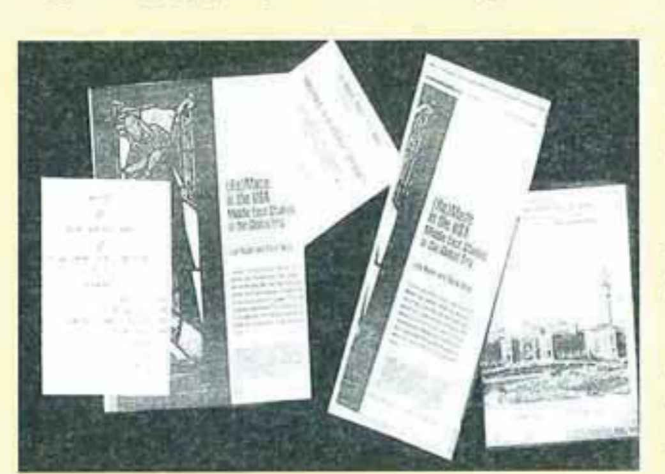
مساعي لتخصيص الدراسات الشرق أوسطية المتصلة بدول الخليج العربية وإقامة مراكز لها في كنف الجامعات الأمريكية بدعم من دول الخليج العربية ذاتها! وقد لا يتم تبني هذا المسعى وتحقيق مراميه لأسباب توجز فيما يأتي:

أولاً: تقديم برامج الدراسات الشرق أوسطية التي تدخل في نطاقها دراسات دول الخليج العربية في نحو ثمانين ومئة من الجامعات والكليات الأمريكية كما سبق الذكر. ولنأخذ مثلاً مركز الدراسات الشرق أوسطية MEC في جامعة جونز هوبكنز JOHNS HOPKINS، الذي يقدم دراسات إقليمية تتناول ـ إضافة إلى دول الخليج العربية ـ دول شمال إفريقية وغيرها؛ وكذلك مركز الدراسات العربية المعاصرة (CCAS) في جامعة جورج تاون GEORGE TOWN.

ثانياً: نمو الاتجاه نحو الدراسات البيحقلية التي تعبر الحدود الإقليمية.

ثالثاً: موجة العولمة التي ترجح كفة المعالجات الدولية للموضوعات الاقتصادية والسياسية والأمنية والاتصالية...إلخ.

رابعاً: تبادل التواصل الفكري والتلاقح الحضاري، فالذي يجري هو أن طلاب العلم العرب الكثيرين يتوجهون إلى الولايات المتحدة لمتابعة دراساتهم في شتى التخصصات بما فيها التخصصات المتصلة بدراسة المنطقة التي يتوجهون إليها، وإنه من المناسب أن يقدم طلبة العلم الأمريكيون إلى جامعات دول الخليج العربية للدراسة والبحث في شؤون المنطقة، وإن إقامة مركز لدراسات دول الخليج العربية في إحدى جامعات دول الخليج العربية أو في جامعة الخليج في البحرين، أو في جامعة الملك سعود في الرياض لمكانة المملكة المرموقة إسلامياً وعربياً ودولياً، ولتوافر الطاقات (الكوادر) الأكاديمية في شتى التخصصات الاجتماعية والإنسانية والمعلوماتية والعلمية فيها، ولغنى مقتنيات مكتبتها المركزية من الأوعية المطبوعة والمسموعة والمرئية والجغرافية والمصغرة والإلكترونية؛ ستكون الخيار البديل والمفضل على إنشاء مثل هذا المركز في كنف جامعة أمريكية، ومن شأن الأخذ بهذا البديل تحقيق هذه المزايا التالية:



بعض عناوين الدراسات الأمريكية

أولاً: توفير دراسات دول الخليج العربية في المنطقة مما يساعد على اجتذاب الدارسين من المنطقة والدارسين من خارجها، وإن تلاقيهم يتيح فرصة للحوار الثقافي والتوعية والإحاطة عن كثب بأوجه التقدم والرقي في المنطقة.

ثانياً: الاستفادة من الطاقات البشرية (الكوادر) ومصادر المعلومات الموجودة، وصياغة المساقات الدراسية بما يخدم المصلحة الإسلامية والعربية.

ثالثاً: تركيز الدعم المالي والأكاديمي لهذه الدراسات في المنطقة عوضاً عن ترحيل الأموال، وتحمل النفقات الجارية، وإرسال مصادر المعلومات، وتزويد الخبرات الأكاديمية اللازمة لمؤسسة أجنبية في حالة دعم إقامة مثل هذا المركز المفتوح خارج المنطقة.

رابعاً: البرهنة على أن العرب أنفسهم قادرون على تأسيس برامج الدراسة الخاصة بمنطقتهم وإدارتها بكفاية واقتدار، «وأهل مكة أدرى بشعابها».

المراجع

1- EICKELMAN, CHRISTINE.
DIRECTORY OF GRADUATE AND UNDER GRADUATE PROGRAMS... IN MIDDLE EAST STUDIES...
(S.L.): MESA, 1976.

2- DORR, STEVEN.
SCHOLAR'S GUIDE TO... MIDDLE EASTERN STUDIES WASHINGTON, D.C: WWIC, 1981.

٣- فرسوني، فؤاد حمد رزق، «بين الدراسات الإقليمية والدراسات الاستشراقية» عالم الكتب، مج ٥، ع١ (رجب ١٤٠٤، إبريل/ نيسان ١٩٨٤م).

4 - CUMINGS, BRUCE. "BOUNDARY DISPLACEMENT: AREA STUDIES AND INTERNATIONAL STUDIES DURING AND AFTER THE COLD WAR". BULL. FOR CONCERNED ASIAN SCHOLARS (JAN - MAR 1997).

5- HAJJAR, LISA & STEVE NIVA. "RE (MADE) IN THE USA: MIDDLE EAST STUDIES IN THE GLOBAL ERA" MIDDLE EAST REPORT (OCT - DEC 1997).

6 - ROGAN EUGENE. "NO DEBATE: MIDDLE EAST STUDIES IN EUROPE." MIDDLE EAST REPORT. (OCT - DEC. 1997).

الإبداع في نظر بياجيه

عبدالله حامد حمد
مكة المكرمة - السعودية

يعد جان بياجيه JEAN PIAGET أحد أهم علماء النفس في القرن العشرين، وقد امتد عطاؤه في مجال دراسة النمو المعرفي والتعلم لدى الطفل عشرات السنين قضاها في دراسة هذا المخلوق البسيط والمعقد في آن واحد. فإذا كان جون واطسون JOHN WATSON هو الذي أحدث التحول في علم النفس نحو السلوكية BEHAVIOURISM مع مطلع هذا القرن، فإن بياجيه، هذا العالم السويسري، هو الذي قاد التحول في هذا العلم نحو المعرفية COGNITIVISM، والذي برزت نتائجه وآثاره في سنين لاحقة كما قرر عدد من العلماء بهذا الخصوص، أمثال: كولبيرج KOHLBERG، وويرتش WERTSCH، وبرونر BRUNER، وغيرهم.

فخلص بياجيه من خلال ملاحظاته الجمة وأوقاته الطويلة التي قضاها في دراسة سلوك الطفل إلى نتائج كثيرة ومهمة ألقت الضوء الساطع على خفايا النمو العقلي للطفل ابتداء من الأيام الأولى لولادته. وكان هدف هذا العالم هو استكشاف الطريقة التي يتم بها النمو المعرفي لدى الطفل، وتحديد المراحل التي يجتازها هذا النمو على مدى السنوات الأربع عشرة أو الخمس عشرة الأولى من عمره، أي إلى سن البلوغ. ومما لاشك فيه أن بياجيه يعد الرائد الأول في هذا المجال، إذ إنه وضع اللبنات الأولى لما يعرف اليوم بعلم النفس المعرفي COGNITIVE PSYCHOLOGY.

مناظرة مع تشومسكي

قام بياجيه بطرح نظريته المعرفية المعروفة بالبنائية



جان بياجيه

CONSTRUCTIVIST التي تتميز من النظريتين المعروفتين في هذا المجال، وهما التجريبية EMPIRICIST، والفطرية INNATIST واستطاع أن يدافع عنها بشدة في كتاباته ومحاضراته الكثيرة، وكذلك المناظرات. وكان أهم هذه المناظرات هي المناظرة الساخنة التي جرت بينه وبين العالم اللغوي الأمريكي المعروف نوم تشومسكي NOAM CHOMSKY في عام ١٩٧٩م وصدرت في كتاب عام ١٩٨٠م.

ففي هذه المناظرة التي تناولت قضايا مهمة، مثل النمو المعرفي، واكتساب اللغة الأم، استطاع بياجيه أن يحاجّ تشومسكي بقوة في كثير من المواقف، ويحسم عدداً من الجولات لمصلحته.

لقد كان تأثير نظرية بياجيه كبيراً في مجال علم النفس بشكل عام وفي المجال التربوي بشكل خاص، إذ قام كثير من التربويين في أقطار العالم المختلفة بتعديل نظرتهم إلى طبيعة المناهج الدراسية التي تقدم إلى الطلبة في المراحل الدراسية المختلفة، ونوعيتها، ومن ثمّ انتقاء المنهج المناسب لكل مرحلة دراسية.

قام بياجيه بناء على الدراسات التي أجراها على الطفل بالتفريق بين التعلم والنمو المعرفي. فهذه الدراسات في رأيه تعد خطوة أساسية في الطريق نحو تحديد وصف دقيق لموضوع النمو المعرفي، فهو يرى أن نمو المعرفة هو عملية متواصلة ومرتبطة بشكل عام بعملية أخرى، هي النمو الحيوي (البيولوجي) للطفل، التي بدورها تتعلق بالجهاز العصبي والوظائف الذهنية، فهذه العملية تبدأ مبكرة عند الأطفال، وتنتهي عند سن البلوغ، فهي عملية شمولية ذات طبيعة بيولوجية ونفسية. أما التعلم فهو عملية تحدث بتأثير

ظروف معينة ومحددة، وتتناول قضية معينة. وعليه، فإن النمو كما يراه بياجيه هو الذي يفسر التعلم، وهذا بطبيعة الحال يناقض الفكرة الشائعة لدى العامة من الناس التي ترى أن النمو هو نتاج تجارب تعليمية منفصلة ومتراكمة.

تحديد المراحل المعرفية

وهناك إنجاز آخر قام بياجيه بتحقيقه في مجال دراسة النمو المعرفي لدى الطفل هو تحديد المراحل المعرفية، ووصفها بطريقة فذة حازت إعجاب الكثيرين من علماء النفس في هذا القرن. فحدد بياجيه هذه المراحل على النحو التالي:

- المرحلة الحسية - الحركية SENSORI - MOTOR التي تبدأ من الأيام الأولى لولادة الطفل، وتمتد إلى عمر سنة ونصف السنة.

- مرحلة ما قبل العمليات PRE - OPERATIONAL وتبدأ عند عمر سنتين، وتمتد إلى السنة السادسة.

- مرحلة العمليات المادية CONCRETE وتبدأ عند سن السادسة، وتنتهي مع سن الحادية عشرة.

- مرحلة العمليات الصورية FORMAL التي تبدأ عند سن الحادية عشرة من عمر الطفل، وتتبلور مع سن البلوغ.

الإبداع

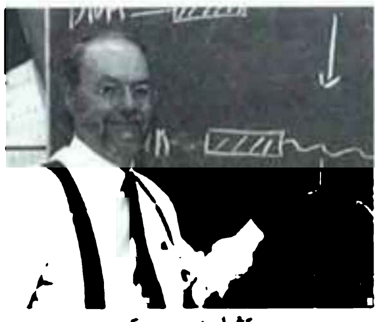
بالإضافة إلى ذلك قام بياجيه بوصف قضية محورية في نظريته، وشرحها، ألا وهي قضية الإبداع CREATIVITY فقد حاول بياجيه استكشاف هذه القضية، وتسليط الضوء عليها من زوايا عدة، مثل أصلها، وتشكلها، وآليتها. فهو يعترف بادئ ذي بدء بأن مصدر الإبداع سيبقى موضوعاً غامضاً، وهو يرفض مصدر الإبداع على أنه فطري، ويرى أن ذلك ليس تفسيراً على الإطلاق، ولكنه بمنزلة دفع الأمور إلى غير مصدرها. يقول بياجيه الإبداع ليس مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بالنمو المعرفي، إذ إن هذا حق تطوري بيولوجي ونفسي يمارسه جميع الأطفال ولا يؤدي بالضرورة إلى إحداث الإبداع. الإبداع في رأيه قد يتفجر في أي سنة من سنوات العمر، ولكنه ليس قضية المعرفة المبكرة ذاتها. يرى بياجيه أن من أفضل الأمثلة على الشخصيات المبدعة الموسيقار الكبير موتسارت MOZART الذي تفجر الإبداع عنده في عمر مبكر جداً، والفيلسوف الألماني كانت KANT الذي تفجر الإبداع عنده في السنوات الأخيرة من عمره، فقد أمضى سنوات طويلة من عمره تلميذاً عند وولف WOLF إلى حين أينعت قدراته الخلاقة والإبداعية.

ثلاثة شروط للإبداع

فخلص بياجيه من خلال تجربته الشخصية ودراساته لظواهر معرفية متنوعة إلى أن هناك ثلاثة شروط لابد من توافرها لدى الفرد حتى يبدع في مجاله: الشرط الأول هو أن يعمل الفرد وحده، ويتجاهل أي إنسان آخر من حوله، وألا يثق بأي تأثير خارجي. يقول بياجيه: إنه عندما كان طالباً في المرحلة الجامعية أسدى إليه أستاذ الفيزياء النصيحة التالية: «لا تقرأ أي شيء عندما تبدأ كل مرة العمل في قضية جديدة بدلاً من ذلك اذهب إلى أبعد مدى تستطيع الوصول إليه معتمداً على نفسك، اقرأ ما كتب حول هذه



تشومسكي



ريتشارد روبرتس

القضية، وخذ ذلك بالحسبان، وأجر التصحيحات اللازمة التي ترى أنها تستحق مثل هذا الإجراء». أما الشرط الثاني الذي يراه بياجيه ضرورياً لحصول الإبداع لدى الفرد فهو أن يقرأ الفرد كمية كبيرة في المجالات العلمية المختلفة خارج نطاق مجاله. فعلى سبيل المثال فإنه من المهم لعالم النفس (السيكولوجي) أن يقرأ ما كتبه البيولوجي والأبستولوجي والفلسفي؛ وذلك حتى ينمي رؤيته الفكرية، ويؤسسها على أسس عريضة ومستمدة من حقول علمية متبادلة ومتصلة. أما الشرط الثالث فهو البحث عن خصم فكري.

يقول بياجيه بصدد هذا: لقد كنت دائماً أتخذ من التجريبيين خصوماً لي طوال حياتي؛ وذلك أن هؤلاء يعتمدون دائماً على التقليل، وحتى تقزيم الدور التفاعلي للفرد خلال

العملية التفكيرية المعرفية.

إن اكتساب المعرفة في نظر بياجيه هو عملية تنظيم وبناء وتكيف للواقع المعرفي، وليس نسخاً مباشراً له، إنه عملية تقوم على ركنين أساسيين: هما: الاستيعاب ASSIMILATION، والتكيف ACCOMMODATION. فمعرفة شيء ما، هي ببساطة ليست عملية نظر إلى ذلك الشيء، وإدراك وجوده، أو عمل نسخة أو صورة ذهنية له، إن معرفة ذلك الشيء تتحقق من خلال التفاعل معه، واستيعابه، وتنظيمه في الإطار المعرفي الموجود في عقلية الفرد، وبعبارة أخرى فإن المعرفة هي عملية تمثيل معرفي داخلي يتم على إثرها إجراء تعديل وإعادة تنظيم لهذا النظام المعرفي.

إن النمو المعرفي مرتبط بعوامل أربعة: هي: النضج البيولوجي، والتجربة، والبعد الاجتماعي، والتنظيم التلقائي.

أما عن آلية الإبداع فيرى بياجيه أن تطور الذكاء هو عملية إبداع مستمرة، فكل مرحلة من مراحل النمو المعرفي تنتج شيئاً جديداً ومختلفاً تماماً عن سابقه، وأن كل نمو يتميز بظهور تراكيب معرفية جديدة. إن إدراك وجود الأشياء أمر، وفهمها أمر آخر. ففهم الأشياء ليس أمراً مستمداً من الأشياء ذاتها، بل هو عمل وتنظيم ذهني يقوم به الفرد نفسه. فاستظهار أسماء الأعداد، مثلاً، يأتي إلى الفرد من الخارج، وهو مختلف تماماً عن فكرة العدد نفسها، ففكرة العدد فكرة يقوم بها الطفل كفعل إبداعي، فيرفض بياجيه التفسير التجريبي للمعرفة، الذي يرى أن المعرفة تستمد من الشيء نفسه، ويرفض كذلك التفسير الفطري الذي يرى أن المعرفة مستمدة من الفرد نفسه، بل يرى أن اكتساب المعرفة هو نتاج أمر تفاعلي وبنائي.

الشخصية المبدعة هي تلك الشخصية التي لا تذعن للمألوف وتسلّم به طواعية بل تحاول إثارة السؤال حوله

ففي إطار نظريته البنائية يعزي بياجيه أصول الإبداع إلى عملية التجريد الانعكاسي REFLEXIVE ABSTRACTION موازنة برديفه، وهو التجريد التجريبي EMPIRICAL ABSTRACTION المرتبط بالمعنى الأرسطوطاليسي لهذا النوع من التجريد. فطبقاً لهذا النوع الأخير من التجريد فإن المعلومات عن الأشياء تستمد من خلال النظر إلى الأشياء وتحسسها أي من خلال الإدراك الحسي لهذه الأشياء كما هي فكرة اللون، وفكرة الوزن.

أما التجريد الانعكاسي فهو تجريد يقوم على تجريد ليس من الأشياء ذاتها، بل من أفعال الفرد نفسه. فعند الأطفال الصغار جداً يختلط هذا التجريد الانعكاسي مع التجريد التجريبي؛ بحيث يصبح من الصعب التفريق بينهما في هذه الحالة. فقد يبدو للكثيرين أن الطفل يعطي اهتماماً لصفات الأشياء، ولكن هذا، في واقع الأمر، وهم، يقول بياجيه: إن حقيقة ما يقوم به الطفل هو التجريد من أفعاله، وعليه يرى بياجيه أن جميع الأفعال ذات النشاطات العقلية هي في الواقع تجريد انعكاسي.

إن الشخصية المبدعة هي تلك الشخصية التي لا تذعن للمألوف، وتسلّم به طواعية، بل تحاول إثارة الأسئلة حوله، وتعتمد على نفسها بالدرجة الأولى للتعلم والاستكشاف. إنها تلك الشخصية التي تقرأ الكثير بروح حب الاستطلاع، وتمعن النظر النقدي في ذلك. إنها تلك الشخصية التي يكمن في جنباتها روح الطفل الذي يسعى دوماً لحب المعرفة والاستطلاع مقرونين بالصدق والإخلاص. إن ما يميز هذه الشخصية عن الشخصية التقليدية هو أنها قادرة على الانعتاق من الروتين التفكيري المكبل للطاقات الإبداعية الخلاقة، والتمرد عليه.

المراجع

1- GALLAGHER, J. AND REID, D. (ED) (1981) THE LEARNING THEORY OF PIAGET & INHELDER. MONTEREY, CA: BROOKS COLE PUBLISHING COMPANY.

2- KOHLBERG, L. AND WERTSCH, (1987) LEARNING AND THE DEVELOPMENT OF THOUGHT, IN KOHLBERG, L. (ED) CHILD PSYCHOLOGY AND CHILDHOOD EDUCATION. PP. 179-222 NEW YORK: LONGMAN.

3- PIAGET, J. (1966) THE PSYCHOLOGY OF INTELLIGENCE. NEW JERSEY: LITTLEFIELD ADAMS.

4- ____ (1980) SCHEMES OF ACTIONS AND LANGUAGE LEARNINGS, IN PIATELLI PALMARINI, M. (ED) LANGUAGE AND LEARNING: THE DEBATE BETWEEN J. PIAGET AND N. CHOMSKY. PP. 167-167 LONDON: ROUTLEDGE & KEGAN PAUL.

5- WATSON, J. (1930) BEHAVIOURISM. NEW YORK: NORTON.

أزمة المصطلح التراثي في الفكر العربي المعاصر

فريد الأنصاري
مكناس - المغرب

لقد عرف استعمال المصطلح التراثي منذ ما سمي بمرحلة النهضة العربية الحديثة، ضموراً شديداً، في كل مجالات المعرفة، يقول الدكتور علي القاسمي: «لم يعتمد (التراث) مصدراً من مصادر المصطلحات الجديدة إلا في وقت متأخر، وظهر النص عليه في ندوة «توحيد وضع المصطلحات العربية» التي عقدت في مكتب تنسيق التعريب بالرباط عام ١٩٨١م (...) والمصطلحات الحضارية والعلمية التي استقيت من التراث قليلة في عددها، محدودة النطاق، ولم تكن نتيجة بحث منهجي، بقدر ما كانت تمثل اجتهادات فردية، جاءت عفو الخاطر»(١)، فهذه الظاهرة صارت قضية، وشكلت هماً للباحثين المصطلحيين المشتغلين بتراث الأمة، وبدأت تعقد الندوات لمعالجة هذه الظاهرة بالذات(٢).

وقد اختلفت وجهات النظر لدى الدارسين عند البحث في كيفية إعمال المصطلح التراثي، وأسباب إهماله، فبينما أرجعه بعض الفضلاء إلى التضخم الحاصل في المصطلح، انطلاقاً من نموذج الدرس البلاغي، كما في قول الدكتور أحمد أبو زيد: «وبتكاثر الفنون والأبواب تكاثرت المصطلحات، ومما زاد من تضخم قاموس المصطلح البلاغي كثرة التفريعات، فالنوع الواحد من أنواع البديع ينقسم إلى أقسام، والأقسام تتفرع إلى فروع، يخترع لكل قسم وكل فرع مصطلح خاص. وزاد من تضخمه كذلك تعدد الأسماء والمصطلحات في تسمية القسم، أو الفرع الواحد»(٣). ولا يظهر أن هذا من العيوب الحقيقية، أو الأسباب التي أدت إلى إهمال المصطلح التراثي، فهذا الذي سماه الدكتور أبو زيد بالتضخم، فيه جانب إيجابي جداً، وهو المتعلق بالتفريع خاصة؛ لأنه إنما يدل على الثراء، ووفرة الإنتاج البلاغي ودقته أيضاً، وقد لا يعدّ عيباً إلا ما أشار إليه من تعدد الأسماء لمسمى واحد. قلت: بينما رأى البعض هذا الرأي، ذهب الدكتور علي القاسمي إلى أن أسباب إهمال المصطلح التراثي - على العموم - هي كالتالي:

- «حالة الاستعجال التي فاجأت رواد النهضة الفكرية العربية، وغمرتهم بسيل جارف من المفاهيم الحضارية والعلمية، لم تسمح لهم بالبحث في التراث العربي، مكتوبه ومنطوقه، عن المصطلحات التي تعبر عن تلك المفاهيم»(٤).
- عدم استعمال الجمهور للمصطلح التراثي؛ لأن الاستعمال هو الذي يضمن حياة المصطلح.
- ندرة وسائل الطباعة والنشر للتراث، وضعف حركة التحقيق، خصوصاً في بداية مرحلة النهضة.
- عدم خلو كل المصطلحات التراثية من العيوب «إذ إن طائفة من المصطلحات العربية التراثية هي الأخرى وضعت في عجالة، أو نقلت من البيزنطية أو الفارسية أو اليونانية أو السريانية»(٥).
- تفوق التقدم العلمي الغربي المعاصر، وكثرة المصطلحات العلمية الدخيلة؛ مما يريك الباحث عن المصطلح في التراث(٦).


رفاعة الطهطاوي

والدكتور علي القاسمي، على ذلك، متفائل، ومؤمن بقيمة المصطلح التراثي، على الرغم من هذه التحديات، ولذلك فهو من الداعين إلى مواصلة البحث فيه. يقول: «ومازال أمامنا واجب جرد المصطلحات التراثية، وتصنيفها، وتعريفها، وتحديد مفاهيمها؛ للإفادة منها فيما يقبل من عملنا المصطلحي»(٧). ويرى أن إهمال المصطلح التراثي «سيؤدي إلى إحدى نتيجتين لا مفر منهما، أو كلتيهما، إما انقطاع تواصل اللغة، وانفصام استمراريتها، وإما ازدواجية مصطلحية لا تخدم غرضنا في التعبير الدقيق والتفاهم السريع»(٨).

وقد أغرب الدكتور محمد عابد الجابري حينما ربط تجديد المصطلح التراثي وإعماله بإلغاء مرجعيته؛ ذلك أن كل مصطلح تراثي عنده تحكمه مرجعية، هي التي انطلق منها، ولذلك فإنه يقول: «لا يمكن تجديده إلا بالتحرر من هذه المرجعية»(٩)، وإلا فمصيره الإخفاق! ومثل لذلك بمثالين

من رواد النهضة الحديثة: الأول: هو رفاعة الطهطاوي الذي «ترجم المفاهيم الليبرالية(...) ترجمة تخرج بها عن حقلها الإيديولوجي الليبرالي، وتفرض عليها سلطة المرجعية التراثية الإسلامية، وهكذا نجده يفهم «الحرية» LIBERTE على أنها (رخصة) وهي مفهوم فقهي»(١٠)، والثاني: «ما نجده في خطاب خير الدين التونسي الذي استعمل عبارة «حرية المطبعة» في مقابل «حرية الرأي» بتعبيرنا المعاصر (...) وعبارة «مكاتب عمومية» بمعنى مدارس حكومية، و«مكاتب مطلقة» بمعنى مدارس حرة»(١١).

والمشكلة عندنا ليست في المثالين ـ وقد انتقيا انتقاء لا يخلو من تضليل ـ وإنما هي في المبدأ، فالتسليم باعتماد التراث مصدراً للمصطلحات ليس معناه أولاً أن كل مصطلح يستخرج منه هو صالح للاستعمال، وفي أي مجال؛ بل سيحكم المصطلحات قانون الحياة، الذي يبدأ بقدرة المصطلح على المواكبة، والتعبير عن المفاهيم الجديدة، وينتهي بقبوله من لدن جمهور المستعملين، يقول الدكتور علي القاسمي: «إن ما يقرر حياة المصطلح هو الاستعمال، وليس الوضع. فالوضع هو بمثابة الولادة. وليس كل مولود يكتب له العيش والحياة؛ لأن العيش يقرره تعامل المجتمع مع المولود الجديد، وتعهده بالرعاية والعناية.

التسليم باعتماد التراث مصدراً للمصطلحات ليس معناه أن كل مصطلح يستخرج منه هو صالح للاستعمال

والمصطلح الذي يلقى القبول والاستعمال من قبل الجمهور هو الذي يحظى بالبقاء والاستمرار، أما المصطلحات التي لا تستعمل فهي بمثابة موتى، لا وجود لهم إلا في سجلات النفوس»(١٢)، وأحسب أن المشكل الأساسي من المصطلحات التي ترجمها الطهطاوي، وخير الدين التونسي، هو الغرابة لا العبارة، أعني غرابة المصطلح الاستعمالية، عن المجال المنقول إليه، وإلا فلو كانت تلك المصطلحات هي التي راجت وانتشرت للدلالة على تلك المفاهيم، لاستغرب الجابري نفسه ما استساغه اليوم من عبارات (الحرية، وحرية الرأي، والمدارس الحكومية، والمدارس الحرة).. إلخ. فالإلف وعدمه قد يكون له دور بارز في الحكم على هذا المصطلح أو ذاك.

استعمال وإعمال

ويفرق الدكتور الجابري بين مصطلحي: (الاستعمال) و(الإعمال)، فالأول عنده يعني: بقاء المصطلح حياً، لكن فقط داخل منظومته العلمية التراثية. فحياته لا تمتد خارج أسوارها أبداً، ما دام محكوماً بمرجعيته. فلا يمكن بذلك أن يتكيف مع العصر ولا أن يتجدد. أما (الإعمال) فهو تخليص المصطلح من مرجعيته التراثية؛ ليكون صالحاً للتطور، قابلاً للتجديد، وهو ما يسميه أيضاً بـ «الرفع» إلى درجة اصطلاحية ثانية. يقول معللاً: «لأن الفكرة، أو الإشكالية التي تسكننا نحن اليوم، لا يتسع لها المصطلح التراثي؛ لأنها لم تكن من مجال المفكر فيه يوم ولد، وإذا أردنا أن يتسع لها وجب علينا إعادة تأصيله، وذلك بتبيئته مع همومنا ومشاغلنا، وبعبارة أخرى «إعماله»، وليس مجرد «استعماله»، وبذلك نكون قد رفعناه من معناه الاصطلاحي الأول إلى معنى آخر متصل به، ولكنه من الدرجة الثانية»(١٣). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يبقى التصور الذي ينطلق منه الدكتور الجابري لتجديد المصطلح التراثي هو الإشكال حقيقة، أعني التحرر من المرجعية التراثية التي تحكم المصطلح! ولذلك يرى ـ كما يقول بنصه ـ أن «البحث في المصطلح التراثي لن يكون له معنى في منظور الفكر المعاصر، إلا إذا استهدف، أولاً وقبل كل شيء، الكشف عن المرجعية، والنموذج اللذين يختبئان وراءه يؤطرانه ويحددان مجال فعاليته»(١٤) والمرجعية أو النموذج عنده هنا، هو المفهوم الأول الذي تأسس عليه، وتسبب في وجوده، وكذا المجال الثقافي العام الذي كان يحكمه؛ أي ما كان الواضع يستوحيه بتسمية المفاهيم العلمية التي لديه.

يقول الجابري: «إن مصطلحات «علم العروض» الذي وضعه الخليل كميزان للشعر العربي إنما تجد مرجعيتها ـ في الغالب ـ في الخيمة وعناصرها، والجمل وصفاته، وحركات سيره»(١٥). وهذا التفسير وإن كان له من الشواهد والنصوص التراثية ما يؤيده، فإنما هو مقدمة ليوغل بنا الجابري، بعد ذلك، في البحث عن المرجعيات إلى درجة من التعسف، والتأويل البعيد. يقول: «إن اللغويين والنحاة قد استوحوا في عملهم نموذج القبيلة، وهكذا فكما أن القبيلة تتألف من وحدات ثنائية (زوج، وزوجة) وثلاثية (أم أب وولد) ورباعية وخماسية وسداسية...إلخ، بالزيادة في عدد الأولاد أو بإضافة الجد والجدة فالكلمات العربية هي كذلك: الثنائي، والثلاثي، والرباعي.. إلى السباعي، وكما أن العنصر الأساسي في القبيلة بوصفها نظام (كذا) من العلاقات هو شيخها، فكذلك جعل النحاة من «المسند إليه» وهو الفاعل في الجملة الفعلية، والمبتدأ في الجملة الاسمية، العنصر الأساسي في لغة العرب، وباقي عناصر الكلام في هذه اللغة ترتبط جميعهابعلاقة الفعل والانفعال (...) كما هو الشأن في القبيلة، ومن هنا (نظرية العامل) التي يقوم عليها كيان النحو العربي، ومن هنا أيضاً اختيار حروف (فعل) للميزان الصرفي (...) وإذن؛ فالمصطلح النحوي يستوحي بدوره نموذجاً معيناً هو نموذج «القبيلة»(١٦) كذا!!.

مصطلحات القبيلة

هكذا من دون أدنى دليل قائم على الدراسة (المخبرية) الدقيقة لعلوم التراث ومصطلحه، وإنما المعتمد عليه في ذلك انطباعات هي إلى التوهم أقرب منها إلى الاستنتاج العلمي الحق!

ثم يقول: «وإذا انتقلنا الآن إلى مصطلح الحديث، فإننا سنجده يلتقي مع مصطلح النحو في استيحاء نفس النموذج، والأمر هنا أوضح (كذا!) ذلك أن منهج الحديث يقوم على «الإسناد»، والإسناد هنا هو بناء نسب الرواية، ومن هنا كانت سلاسل السند أشبه بشجرات النسب. ومن هنا أيضاً جاءت مصطلحات أهل الحديث تشترك في خاصية واحدة ألا وهي قابليتها بأن يوصف بها النسب: فالحديث يكون متواتراً، ومشهوراً، وخبر آحاد، والنسب كذلك، والحديث يكون صحيحاً أو دون الصحيح، وهذا الأخير لا يقال فيه «خاطئ» «وفاسد»؛ لأنه لا معنى لأن يوصف النسب بهما، وإنما يقال في الحديث الذي لا يرقى إلى مرتبة «الصحيح» إنه «ضعيف». والحديث يكون «مرسلاً» (...) ويكون «منقطعاً» (...) ويكون «معضلاً» (...) ويكون «مقلوباً» (...) ويكون «فرداً» أو «غريباً»..إلخ. وواضح أن جميع هذه المصطلحات اختيرت دون غيرها؛ لأنها أوصاف يقبل أن يوصف بها النسب «كذا!». وبالمقابل فما لا يقبله النسب من الأوصاف لم يوضع مصطلحاً للحديث» (١٧)، هكذا بهذا الحكم المطلق الغليظ! وبغض النظر

عن مصطلحات (الضبط، والعدالة، والثقة، والثبت، والصالح، والصويلح، والصحابي، والتابعي، وأمير المؤمنين في الحديث، والكذاب والوضاع، والفاسق، والمبتدع) وغيرها كثير مما يرجع في حقيقته إلى مصدري الكتاب والسنة نصا، ولا علاقة له بالقبيلة ولا بالأنساب، فإن مصطلحات أخرى كثيرة ـ وما أكثر مصطلحات الحديث ـ يمتنع فيها هذا التأويل، كمصطلحات التحمل والأداء، من سماع، وقراءة، وإجازة، ومناولة، ومكاتبة، وإعلام، ووصية، ووجادة. بل إن بعض مصطلحات السند نفسه التي أرجعها الجابري إلى شجرة النسب قد حدد كثير من العلماء مرجعيتها التي لا علاقة لها بما قال مثل: (المدلس) و(التدليس)، اللذين يرجعان إلى تمرير الدرهم المزور في الدلس، فهذا مرجعيته إنما هي نقدية مالية.

ثم بغض النظر عن كل ذلك، فإن إرجاع مصطلحات النحو، والحديث إلى القبيلة وأنسابها، إنما هو ضرب من التوهم، إذ يمكن بالمنطق نفسه إرجاعها إلى ما يشبه ذلك، كأن ترجع إلى الشجر بنفسه، فالجذع مثلاً هو المركز والمنطلق والمسند إليه، وعنه تتفرع الغصون والأفنان والأوراق والأزهار ثم الثمار! أو إنها ترجع إلى الجيش ونظامه عند القدماء، من قيادة وميمنة وميسرة ومدد مساعد، إلى غير ذلك من التصورات الجاهزة والممكنة في عالم التصورات الخيالية بمنطق الدكتور الجابري نفسه!

ضرب من الوهم

أضف إلى ذلك أن ما ينفيه الجابري أن يكون مصطلحاً حديثياً لا يمكن أن يقبل منهجيا إلا بعد الاستقراء والتأمل لعموم المصطلحات الحديثية. وهذا ما لم يحصل بعد، وإن دونه لخرط القتاد، فمصطلحات النقد الحديثي وحدها، المتعلقة بالإسناد بشتى صوره، تملأ كتب الجرح والتعديل، وكتب الرجال والطبقات، والضعفاء، والقائمة طويلة، وبنظرة سريعة إلى بعض كتب النقد التطبيقي نجد من الألفاظ الاصطلاحية المتعلقة بنقد السند الشيء الكثير، كقولهم مثلا: (باطل) و(لا أصل له)، و(واهٍ) و(منكر)(١٨)، ومن المصطلحات النقدية المتعلقة بالسند التي لا تصح أن يوصف بها النسب ـ بناء على مقياس الدكتور الجابري ـ قول الإمام الذهبي: «إسناد مظلم، وخبر منكر»(١٩)، ثم كيف يجرؤ العاقل على نفي وصف السند بـ(الفساد)، ولما يتم ذلك الإحصاء الشامل لمصطلحات النقد عند المحدثين، مع الإشارة إلى أن الخطيب البغدادي قد نقل قولاً عن عبد بن أحمد بن سوادة أبي طالب فيه شيء من ذلك في حق محمد بن سعيد الزنديق، جاء فيه: «قلب أهل الشام اسم محمد بن سعيد الزنديق على مئة اسم، وكذا وكذا اسما. قد جمعتهن في كتاب وهو الذي أفسد كثيرا من حديثهم»(٢٠). وإن بحثا قد قدم لنيل دبلوم الدراسات العليا في موضوع: «حركة النقد الحديثي بالبصرة خلال القرن الثاني الهجري»(٢١) قد كشف عن جهاز مصطلحي ضخم لنقد الحديث، سنده ومتنه، فكيف لو تم إحصاء مصطلحات العراقيين جميعا، ثم الأمصار الإسلامية من بعدهم، وعبر جميع القرون لا القرن الثاني؟.

وباختصار، إن إرجاع مصطلحات الإسناد إلى نموذج النسب القبلي هو ـ لعمري ـ مما يصعب التسليم به، بل إنما هو ضرب من الوهم، والعبث الحاصل اليوم فيما يسمى «بالفكر العربي المعاصر». ويكفي هنا أن أتساءل: لماذا لا يكون العكس هو الصحيح؟ أليس علم الإسناد الحديثي هو الذي أثر في نقل اللغات، والأشعار، والأنساب، فقيل فيها: حدثنا فلان، وأخبرنا، وصحيح وضعيف؟ خصوصاً أن علماء الحديث يجمعون كلهم تقريباً على أن (الإسناد) خصيصة الأمة الإسلامية، وأن نشأته إنما هي لحفظ السنة أولا، ثم انتقل بعد ذلك إلى سائر العلوم(٢٢).

إن خلاصة رأي الدكتور الجابري هي أن علوم «العروض، والنحو، والحديث، والكلام، هي علوم «منتهية» بمعنى أنها لم تعد تقبل التطور ولا النمو، لأن موضوعاتها «كاملة» لا تقبل التطور (...) وسيظل الكلام عن تجديد النحو العربي كلاما في فراغ، إذا لم ينطلق هذا التجديد من إلغاء نظرية العامل التي تشكل قوامه، ولكن إلغاء نظرية العامل، إلغاء للنحو كله بالصورة التي هو عليها (...) وهذا أمر لا يمكن أن يتحقق إلا بإدخال تغيير جذري في الكتابة العربية، إما بجعلها كتابة مشكولة دوما، وإما بابتكار علامات للإعراب تكتب بجانب كل حرف، في كل كلمة، كما في اللغات اللاتينية مثلاً. في هذه الحالة فقط سيكف المصطلح النحوي عن أن يكون مصطلحاً تراثيا حيا مستعملاً [أي غير معمل باصطلاح الجابري] وما دام هذا النوع من التجديد بعيد المنال ـ على الأقل في الوقت الحاضر ـ فإن المصطلح النحوي، سيبقى كما كان، لا يمكن الاستغناء عنه في مجاله، ولا الاستفادة منه في مجال آخر (...) وما دام علم الكلام من العلوم العربية



عبدالله العروي



محمد عابد الجابري

الإسلامية «المنتهية» التي توقفت عن النمو، وأمست لا تقبل الزيادة، فإنه هو ومصطلحاته جزء من التراث، تراث الماضي لا تراث الحاضر (...) إن هذه العلوم علوم لم تعد تقبل «الاجتهاد» وما هو كذلك فليس من الممكن بعث الحياة فيه من جديد. أما العلوم الأخرى التي لم نتحدث عنها فأمرها يختلف، وليس من السهل إصدار أحكام عامة بشأنها، إذ منها ما هو قابل للحياة والتجديد، كالبلاغة، والنقد الأدبي، والفقه وأصوله ، ومن ثم فمصطلحاته قابلة لـ «الرفع» إلى درجة ثانية، وربما ثالثة، قابلة للاستعمال والإعمال»(٢٣). وإنما أساس (الإعمال) عنده ـ كما رأيت ـ التخلص من الدلالة التاريخية، والمرجعية الحضارية، التي بني عليها المصطلح العلمي! فأي تجديد ذاك إذن الذي سيلحق مصطلحات العلوم الشرعية عنده؟ كالفقه، والأصول، والتفسير ونحوها؟ وإنما أمر غالبيها أنها ترجع إلى مفاهيم مؤصلة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم!

المرجعية القلب النابض

إن المشكلة ترجع أساساً إلى ما سبق أن قلناه: وهو أن الحكم الصارم على مصطلحات علم ما ينبغي ألا يكون إلا بعد دراسة مصطلحية، ومن لدن متخصص في الميدان العلمي الذي تنتمي إليه تلك المصطلحات، وإلا صار إلى نتائج هي أشبه بالفضائح منها بالعلم الحق!.

فكيف إذن؛ يمكن الاطمئنان - بعد ذلك - إلى ما وصل إليه الجابري من شروط لإعمال المصطلح التراثي؟

إن التجديد المصطلحي وإعمال مصطلحات التراث، لن يتم أبداً بتجاوز مرجعياتها، بل ذلك هو ما سيؤدي إلى موتها وهلاكها؛ لأن مرجعية المصطلح هي قلبه النابض الذي به يعيش، وإنما التجديد والإعمال رهين مواصلة البحث العلمي الجاد، الذي يضيف إلى التراث ولا ينقضه، وهذا لا يعني تحريم النقد، أو تقديس الجانب الاجتهادي من التراث، وإنما ضرورة جعله أساساً وأصلاً ينطلق منه للبناء والتجديد، ورحم الله من قال (أول التجديد قتل الماضي بحثاً».

شروط إعمال المصطلح التراثي

وأخيرا يمكن تلخيص شروط إعمال المصطلح التراثي فيما يلي:

أولاً: الإصلاح الاجتماعي: وقد يستغرب بعض الناس جعل هذا شرطاً، بل أول الشروط لإعمال مصطلحات التراث. والأمر في غاية البساطة؛ ذلك أن المصطلح، ولاسيما المتعلق منه بالمذهبية الإسلامية بشكل مباشر، ومنه كل مصطلحات العلوم الشرعية، إنما يزدهر بازدهار الحركة الاجتماعية التي تحمله في أدبياتها، وتجعله من أدوات تخاطبها. وإلى عهد قريب كانت المصطلحات العلمانية، والاشتراكية منها على الخصوص، هي اللغة المسيطرة على الاستعمال الثقافي العام في المغرب - وربما في الوطن العربي كله - حتى كان بعض المفكرين الإسلاميين المعاصرين يستعيرون من ذلك الجهاز المصطلحي ما يعبرون به عن مفاهيم إسلامية! فصدرت كتب مثلاً تحت عنوان «اشتراكية الإسلام»! وكانت عبارة الإيديولوجيا الإسلامية تستعمل للتعبير عن العقيدة الإسلامية أو المذهبية الإسلامية! ولكن بعد امتداد ما يعرف اليوم بالصحوة الإسلامية في كل مكان، وازدهار نشر الكتاب الإسلامي، وتحقيق كتب العلوم الشرعية التراثية من فقه وأصول وحديث وغيرها، أي بعد أن غدا التدين - ليس تياراً في الأمة فحسب - ولكن موجة عامة شاملة، لا تزداد مع الأيام إلا اتساعاً! صار المصطلح العلماني إلى ضمور شديد، بدخوله زاوية الإهمال شيئاً فشيئاً، وبدأ المصطلح الإسلامي يحتل مواقعه، الواحد تلو الآخر، حتى صارت الكتب العلمانية نفسها تستعمل في خطابها مصطلحات تراثية من المجال الفقهي والأصولي كالقياس، والاجتهاد، والمصلحة، والمفسدة، ونحوها. بل صارت هذه خطاباً يومياً نقرؤه في الصحف والمجلات ذات التوجه العلماني، بله الإسلامية، أو التراثية المتخصصة! ومن الأمثلة على ذلك ما قاله الدكتور عبدالمجيد الصغير في حق الدكتور عبدالله العروي الذي كان من أشد العلمانيين بغضاً للتراث جملة! قال: «رغم إعلانه القديم أن كل ما بيننا وبين التراث قد انقطع نهائياً، وأن كل ادعاء «معرفة» به إنما هو من قبيل الوهم والسراب(٢٤) وأن الغرب وماضي الغرب بصريح عبارته هو «المرجع الوحيد للمفاهيم» القابلة للمعرفة والتوظيف(٢٥) ومع ذلك فقد اضطر أن يدلي بدلوه؛ لمعرفة مفهوم الحرية في الإسلام في مقال له سنة ١٩٧٩م (...) والذي أعاد نشره مع قليل من التغيير في مستهل كتابه (مفهوم الحرية)(٢٦) الذي صدر في عام ١٩٨١م عن المركز الثقافي العربي بالدار البيضاء إذن؛ ما الذي دفع العروي إلى البحث في المصطلح التراثي بعد ذلك العداء الشديد؟ يجيب الدكتور الصغير: إنها «ظروف التغيير المجتمعي، قد اضطرته أن يضرب بسهم في امتلاك «رؤية فلسفية» تمكنه من تحديد موقفه؛ من إشكالية هذا الإعمال للمصطلح التراثي!»(٢٧).

إن هذا الأمر المسكوت عنه هو في نظرنا المتواضع أهم الشروط التي تسهل عملية الإقلاع لاستعمال المصطلح التراثي، بناء على قانون ابن خلدون في التدافع الاجتماعي، الملخص في قوله المشهور: «إن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب، في شعاره، وزيه، ونحلته»(٢٨).

- ثانياً: تشجيع البحث المصطلحي في كل علوم التراث: وذلك بشروطه المنهجية المذكورة في متن هذا البحث، سواء في المنهج الوصفي أو التاريخي؛ لأن البحث العلمي في التراث على العموم، والمصطلحي منه على الخصوص، يعد من أهم العوامل المساعدة على إعمال المصطلح، وبعث الحياة فيه، مهما كان أم مجهولاً! والبحث في المصطلح التراثي كيف ما كان، هو حركة لترويضه، وتجديد العمل به، ولفت الانتباه إليه، وكذا تطويره أيضاً؛ لأن التطور لا يكون إلا بالاستعمال أولاً في مجال البحث والدراسات العلمية. وما أحكم قول الدكتور علي القاسمي، إذ قال: «ما دام البحث العلمي مطرداً، والتقدم الفكري والحضاري متواصلاً، فإن اللغة تنمو وتزدهر ومخزونها المصطلحي يتسع، ويتعاظم. أما إذا أصيب الفكر بالركود، والبحث العلمي بالجمود، فإن ذلك ينعكس تلقائياً على اللغة التي تستعمل للتعبير عن هذا الفكر، وصياغة نتائج ذلك البحث. ويجري هذا الأمر طبقاً لقانون الاستعمال والإهمال، في علم الأحياء، الذي ينص على أن كل عضو يستعمل، ينمو ويكبر، وكل عضو يهمل، يصغر ويضمر»(٢٩) وهكذا يأتي التجديد والإعمال المصطلحيين بصورة طبيعية تدريجية متصلة، واصلة غير منقطعة ولا قاطعة، عبر تواتر البحث في المصطلح التراثي، بكل مقوماته المرجعية، الإسلامية والعربية.

إرجاع مصطلحات النحو والحديث إلى القبيلة وأنسابها ضرب من التوهم

ويعجبني تصور الدكتور القاسمي لمنهج الاستفادة من المصطلح التراثي، في قوله: «وتتم الاستفادة من المصطلحات المتوافرة في كتب التراث والشعر، عن طريق الجرد المنهجي، الذي يبدأ بجمعها، وتصنيفها، وتعريفها؛ لتحديد المفاهيم التي تعبر عنها»(٣٠) وهذا قول جامع في غاية الأهمية. تفصيله هو بالذات ما عرضناه في المنهج الوصفي.

إن تنشيط حركة عامة وشاملة في الجامعات العربية لدراسة المصطلحات التراثية في كل علوم التراث، لجدير أن يثير ثورة مصطلحية في الأمة تعيد لها الشعور بذاتها، الذي فقدته منذ زمان! ولقد اشتهرت كلمة الدكتور البوشيخي في علاقة المصطلح بفهم الذات حتى غدت نصاً تشد إليه الرحال! ولا تجد دارساً مصطلحياً في المغرب - بعد صدور كلمته تلك - إلا وهو مستشهد بها عبارة، أو إشارة في شكل (تناص)، كما يعبر أهل الأدب، يقول: «إن البحث في المصطلح بحث في عمق الذات، والتدقيق فيه تدقيق في العلم بالذات، ذلك بأنه يتعلق ماضياً بفهم الذات، وحاضراً بخطاب الذات، ومستقبلاً ببناء الذات»(٣١) ولذلك قلت إن تشجيع الدراسة المصطلحية من شأنه أن يعيد للأمة الشعور بذاتها، لأن تلك الدراسة هي معمل (إخراج) المصطلح، حيث يحلل، ويجرب في المختبر؛ ليقدم بعد ذلك في صورته السليمة، للمختصين وغيرهم، جاهزاً للاستعمال!



خير الدين باشا التونسي — علي القاسمي

ثالثاً: تكوين مجمع علمي خاص بالمصطلح، على صعيد كل الوطن العربي: يوجه جهود مراكز ومعاهد الدراسات المصطلحية ـ التي ينبغي أن تتكاثر في العالم العربي ـ على أساس أن تكون له سلطة القرار العلمي، فيما يتعلق بأي دراسة مصطلحية، وإعمال أي مصطلح أو إهماله، والسلطة هذه ليست سلطة سياسية، ولا عسكرية، وإنما هي سلطة علمية، وذلك بأن يضم رواد البحث العلمي المصطلحي في العالم العربي، ثم يكون مجهزاً بما يعطي لسلطته مفعولاً في الواقع، أعني القوة الإعلامية العلمية، من نشرات ودوريات، ومجلات متخصصة في الدراسات المصطلحية، تقوم ـ إلى جانب نشاطها العلمي ـ بنشر قراراته وأحكامه العلمية، وغير ذلك مما تكون له فائدة في نشر مصطلحات، ومحاربة أخرى.

وبعد، ألم يأن للنخبة العالمة في الأمة أن تعطي للبحث المصطلحي؛ ما ينبغي له من اهتمام؟ فتتفرغ له ـ منها ـ فرق ومجموعات، وتكون له معاهد ومراكز دراسات، حتى تنطلق مسيرة البحث لبناء تصورات عن مناهجه ونظريات، فتُنظم خطة موحدة لإنجاز المعجم التاريخي للمصطلحات، عسى أن تكسب الأمة عامة، ونخبتها العلمية خاصة، ثمار البحث المصطلحي، المتمثلة في منجزات شتى منها:

ـ إيجاد (علم أصول المصطلح) ليس كما هو في علم المصطلح الناشئ بالغرب، ولكن على عين التصور الإسلامي، وفي رحم علوم التراث وفنونه ـ دون رفض الاستفادة المقدرة من علوم الغرب ـ تكون وظيفته هي التنظير للبحث المصطلحي، من حيث طبيعته ومناهجه، وآفاقه وأولياته، وكذا نقد الأعمال العلمية التطبيقية المنجزة من لدن الباحثين بناء على مقاييس وقواعد تمثل (علمية) هذا العلم. وكذا التنظير للمصطلح ذاته، طبيعته، ومصادره، وطرائق وضعه، وتوظيفه، واستعماله...إلخ.

ـ صيرورة (المعجم التاريخي للمصطلحات العربية) دائرة معارف كبرى، جامعة، حاكمة، يرجع إليه الباحث، والدارس، والمتخصص، وغير المتخصص، والأستاذ، والطالب، فيكون جامعاً للتصورات، وموحداً للمفاهيم، وحاسماً للخلافات، وإنه لحلم لو يتحقق عظيم!

ـ نشر الحس المصطلحي على نطاق شعبي في الأمة ـ بمستوى من المستويات ـ حتى يصير ذوقاً عاماً، وحاسة نقدية لدى العموم، فيسهل بذلك توسيع دائرة استعمال ما ينبغي أن يستعمل، ومحاصرة المدلس والدخيل، المحمل بمفهوم قدحي، أو عدائي، من مثل ما تنفثه وسائل الإعلام اليوم، في دخان الفوضى الثقافية الضارية في كل مكان! وإني لأذكر ـ إذ ألقيت محاضرة في إحدى الثانويات بمدينة الدار البيضاء ـ أني ذكرت رأياً (للأصوليين) في مسألة تربوية ـ وكل كلامي كان في سياق أصول التربية من خلال العلوم الشرعية ـ فقام إلي أحد الأساتذة يشكك أن يكون (للأصوليين) رأي تربوي. وهو إنما أراد (الأصوليين) بالمعنى القدحي المحرف، الذي تبثه وسائل الإعلام اليوم! لوصف الصحوة الإسلامية المعاصرة، مما يرادف عندهم (التطرف)، و(الإرهاب)... وما شابه ذلك من سباب! فعجبت كيف لم يفهم العبارة في سياقها الواضح جداً كما أوردته. وكل كلامي إنما كان خوضاً في التراث الشرعي، الحديثي، والفقهي، والأصولي! فانظر أي اغتيال هذا الذي وقع للمصطلحات الإسلامية في بلاد المسلمين! فهذه وأمثالها مما يزيد ضرورة نشر حس مصطلحي في الأمة، يواجه هذا التضليل السافر، الذي يقوده أعداء المذهبية الإسلامية، في الداخل والخارج. وإنما مختبرات البحث المصطلحي المتخصص، هي الكفيلة بهذا ابتداء.

وعندئذ يمكن ـ بإذن الله ـ أن ينطلق البحث العلمي ـ وقد قادته رؤية إصلاحية مخلصة خالصة ـ إلى مجال أعلى في البناء، وأكثر تقدماً في العمل، وهو ميدان الاجتهاد والتجديد، ليس في حواشي العلم وجزئياته فحسب، ولكن في صلبه وكلياته، على خطى بصيرة راشدة.

المراجع

١ـ مجلة المناظرة: بحث «ماذا أهمل المصطلح التراثي» للدكتور علي القاسمي: ٣٧، مجلة المناظرة: فصلية تعنى بالمفاهيم والمناهج، السنة الرابعة، العدد: ٦ تصدر بالرباط، «عدد خاص بندوة المصطلح التراثي بين الإعمال والإهمال».

٢ـ انظر «ندوة المصطلح التراثي بين الإعمال والإهمال» التي نظمتها مجلة المناظرة بالرباط يومي ٢٩ و٣٠ مايو / أيار ١٩٩١م، العدد: ٦.

٣ـ المناظرة: بحث «التحكم والتضارب في المصطلح البلاغي» للدكتور أحمد أبو زيد: ٤٤.

٤ـ المناظرة: «ماذا أهمل المصطلح التراثي»: ٣٨.

٥ـ السابق: ٣٩.

٦ـ أورد هذه الأسباب مفصلة من: ٣٧ إلى ٣٩. السابق.

٧ـ المناظرة: «ماذا أهمل هذا المصطلح التراثي»: ٣٩.

٨ـ السابق: ٣٥.

٩ـ المناظرة: (حفريات في المصطلح: مقاربات أولية) للدكتور محمد عابد الجابري: ٢٠.

١٠ـ السابق: ٢٢.

١١ـ السابق: ٢٣.

١٢ـ المناظرة: (ماذا أهمل المصطلح التراثي): ٣٨.

١٣ـ المناظرة: «حفريات في المصطلح»: ١١.

١٤ـ السابق: ٢١.

١٥ـ السابق: ١٤.

١٦ـ السابق: ١٥ـ١٦.

١٧ـ السابق: ١٧.

١٨ـ ر. سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني مثلاً، وهي عبارات ينقلها عن غيره من النقاد القدامى.

١٩ـ سلسلة الأحاديث الضعيفة: ٢/٢٣.

٢٠ـ السابق: ٢/٢٤٣ـ٢٤٤.

٢١ـ تقدم بها الأستاذ عبدالرحمن العمراني بكلية الآداب بالرباط سنة: ١٩٨٩م.

٢٢ـ المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل للدكتور فاروق حمادة: ١٠٠ إلى ١٤٤ و٢٣٢ و٢٣٥. نشر مكتبة المعارف بالرباط. ط. أولى: ١٩٨٢م.

٢٣ـ المناظرة: «حفريات في المصطلح»: ١٩ـ٢٠.

٢٤ـ العرب والفكر التاريخي للدكتور عبدالله العروي: ١٨٦.

٢٥ـ الأدلوجة للدكتور عبدالله العروي: ٢٥.

٢٦ـ المناظرة «ملاحظات حول توظيف المصطلح التراثي في الفكر المغربي المعاصر» للدكتور عبدالمجيد الصغير: ٩٨.

٢٧ـ السابق: ٩٧.

٢٨ـ مقدمة ابن خلدون: ١٤٧ طبعة دار القلم بيروت لبنان ط. الرابعة: ١٩٨١م.

٢٩ـ المناظرة: «ماذا أهمل المصطلح التراثي»: ٣٤ـ٣٥.

٣٠ـ السابق: ٣٦.

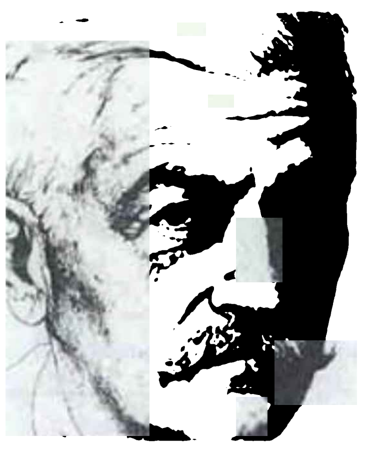
٣١ـ مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين للدكتور الشاهد البوشيخي: ٧. نشر دار القلم باريس. ط أولى: ١٩٩٣م.

حركة الزّمن في روايات وليم فوكنر

أليغ بَبُوف ترجمة: نوفل نيُوف
موسكو - روسيا

استمر وليم فوكنر مدة طويلة يخيف القراء الأمريكيين بصعوبة بناء أعماله الأدبية وحبكاتها المفرطة في القسوة. وعلى العكس من ذلك كان النقد الأمريكي يتهم فوكنر بالابتذال. على أن المضحك في الأمر، أن هذه المآخذ كانت تتردد أيضاً عقب صدور مؤلفات فوكنر التي يتعذر من دونها الآن تصور النثر الفني الذي يفخر به القرن الحالي. فبعد رواية «ضوء في آب»، مثلاً، التي عدّها نقاد سنة ١٩٣٢ ميلو درامية ورديئة البناء، استدعت رواية «أبشالوم» اثنتين أو ثلاثاً من المقالات الفاترة التي نظر كتّابها إلى الرواية بوصفها اعتصاراً أو تصنّعاً محضاً ودُمى بدلاً من الناس الأحياء.

وفي أمريكا استقبل الناس خبر منح فوكنر جائزة نوبل ١٩٤٩م بمشاعر اختلط فيها الاعتزاز بهذا النصر القومي مع الإحساس بالحيرة، كمن يسأل: أحقاً فاز هذا الريفي؟ بل هذا الجلف بمفاهيمه وأذواقه! إذ كان التصور السائد أن مؤلفات فوكنر شيء عتيق وغريب على العصر حين صدورها، يمثل شهادة بالدرجة الأولى على أن الأديب الكبير لا يكون أبداً مجرد مؤرخ لعصره، وأن العلاقات بينهما شديدة التعقيد وتتميز بالدرامية قبل كل شيء.



وليم فوكنر

وقد تحدثت الشاعرة الروسية مارينا تصفيتايفا (*) عن هذه المسألة بدقة بديعة قائلة: «إن الزواج بين الأديب وزمنه زواج قسري. بل هو زواج يخجل منه - كأي فعل قسري آخر - ويسعى إلى الفكاك منه». والمقصود هنا هو ماياكوفسكي «نصير ضميره الخاص.. سجين اليوم الراهن» الذي «عشق هذا اليوم الراهن، أي تغلب على الشاعر في نفسه». لقد كان فوكنر إنساناً آخر بهذا المعنى أيضاً، إذ كان أكثر اعتزازاً بالشاعر الذي فيه.

لذلك كان ينصت إلى المآخذ التي كانت أحياناً شديدة القسوة، حتى عندما تصدر عن أشخاص مثل جان بول سارتر، مثلاً، يقدّرون موهبته وأهميته الأدبية الحقة.

فالاستعارة السارترية القائلة إن الشخصية عند فوكنر، أو بالأحرى فوكنر نفسه، أشبه بمسافر في صندوق شاحنة، مسنداً ظهره إلى حجرة القيادة ولا يرى إلا الطريق الهارب إلى الوراء، ليست إلا استعارة ظريفة تبدو بالغة الدقة، ولكنّ كأنها تغفل كون الحركة عند فوكنر لا تنقطع لحظة واحدة، كما يرتبط الماضي والحاضر والمرتقب في أعماله بعدد كبير من الخيوط ليشكل وحدة في غاية المتانة. منذ صباه، ومنذ قصصه الأولى وروايته «صخب وعنف» ١٩٣٣م التي وجد فيها نفسه (ولم نقرأها، نحن الروس، المصونون من إغواءات الحداثة، إلى سنة ١٩٧٣م، أي بعد أربعين سنة من صدورها!) كان فوكنر يتميز بولعه بالزمن الراهن، الأمر الذي يجسّده قوله: «ليس هناك «كان» على الإطلاق، بل هناك «يوجد» فقط». ولعل تلك هي المعادلة الرئيسة التي اقترحها هو بالذات وتحكم إبداعه برمّته.

إن الشكوى من صعوبة فهم نثر فوكنر - وقد ظلت سائدة في التأويلات السوفييتية - كانت تعزى - فضلاً عن

متطلبات السوق - إلى عدم رغبته في النظر جدياً إلى القوانين والمهام الإبداعية التي أضنى نفسه في التزامها. على أن ميزة الأدب بالنسبة إلى فوكنر تتمثل في القدرة على الإقناع، وذلك اعتماداً على أدوات الفن نفسه، وليس على البراهين العقلية، أي الاقناع بأن جميع التصادمات الجارية اليوم تضرب بجذورها عميقاً في جسد التاريخ، وأن الانفراجات التي تحدث هنا ليست نهائية، ومن ثم فهي تضع موضع الشك «مُثُل القلب البشري القديم». لقد كان يؤمن بأن الإجابات الأخيرة ليست معروفة بعد، والمصائر لم تتقرر حتى الآن، ومازال سارية المفعول تلك المبادئ الأكثر جوهرية بما لا يقاس من العبث والخواء الروحي والقسوة والبغض، أي من كل ما يشهد عليه بإصرار، أدب ما بين الحربين.

إن أفضل المؤلفات التي كتبها فوكنر في تلك العقود تتحدث عن هذه القضايا نفسها، ولكنها كانت تنطوي على شيء فريد هو ما استدعى التأكيدات السطحية بأنه من نمط عتيق ميئوس منه. وذلك الشيء الفريد هو القدرة على تجسيد ما في الحياة من طاقة لا تنضب، تتجدد أبداً ولكنها لا تخضع للنسيان.

إن قدرته التي لا تضاهى على بعث الماضي حياً، وإظهار الراهن مشحوناً بالمستقبل، وعلى الإحساس بالواقع لا بوصفه ركاماً من المتفرقات العديمة المعنى والصلة، وإنما بوصفه عالماً متكاملاً فيه قيم راسخة.

وفي نهاية هذا القرن يجب أن يكون أكثر ما يثير ذلك الترابط العضوي الذي اختفى من الأدب، أي ذلك الترابط التقليدي، التولستوي(*)، وإن كان قد تم بلوغه بطرق فنية أصيلة. كل شيء في هذا العالم مفعم بالأصداء والتقاطعات والحوارات. ويبدو أن القصة قادرة على التجدد إلى ما لا نهاية، بل من جميع النقاط، ودون جهود منظورة يبذلها المؤلف، كما لو كان ذلك تلقائياً. ثمة شعور بأن فوكنر تمكن حقاً من بلوغ المستحيل تقريباً، أي من «إيقاف الحركة التي هي الحياة والإبقاء عليها منوقفة».

وحقاً، سواء أكنت تقرأ قصصه أو رواياته التي يحيط الحدث فيها بعصور كاملة، فإن «الحركة تبدأ من جديد لأنها الحياة» ويبدو أنه لم يتح لأحد غيره في الغرب أن يحظى بهذا التأثير الفني. لقد



جان بول سارتر

فاز فوكنر بتلك الجائزة لأنه حافظ على الشاعر الذي فيه دون أن يصبح حبيس الزمن المنساب سريعاً. وإذا كانوا لم يغفروا له هذا الاختيار فقد أكثروا من الكلام عن الفقر الذهني في مؤلفاته، وعن تكلف النزاعات وعدم واقعية الحالات التي يصورها، والشيء الرئيس عن لا مبالاته بهواجس عصره وآلامه.

إلا أن هذا القرن الذي يشارف على نهايته يمكن أن نسميه عصر فوكنر حقاً، وذلك بقدر ما يسمى عصر كافكا أو نبوكف أو بورخيس. إن الأثر الذي تركه فوكنر في أدب هذا القرن ليس أقل وضوحاً وعمقاً بأي حال من الأحوال، فضلاً عن أن حضوره في المسار الثقافي اليوم محسوس دائماً ودون عناء، أياً كان الكلام الذي يتردد بمصطلحات ما بعد الحداثة في هذا الخصوص. ولا يقتصر الأمر على مدى موهبته التي ما إن نفكر بها - إذ إن فوكنر معاصرنا تقريباً - حتى تبدأ جميع الأحاديث عن أهمية ما بعد الحداثة كظاهرة أدبية تبدو لنا في سوء فهم أو مدعاة للحيرة لا غير.



جورج لويس بورخيس

ويجدر بالتنويه أيضاً طابع تلك الموهبة التي تنتمي طبعاً إلى الواقع الروحي للقرن العشرين. فقد استطاع طابع موهبة فوكنر أن يجسد كوارث القرن الحالي في أدبه دون تحسينات أو رتوش، وأن يلامس أكثر جراح عصرنا إيلاماً، ولكنه فعل ذلك بيقين راسخ بأن الإنسان سيبقى في جميع الأحوال عصياً على الهزيمة مادام يعتمد على قيم «الحب والشرف، والرحمة والكبرياء، والشفقة والتضحية».

الهوامش

- م. تصفيتايفا من أهم الأصوات الشعرية في النصف الأول من هذا القرن. هاجرت أيام الثورة الشيوعية. ثم عادت إلى الاتحاد السوفييتي وانتحرت سنة ١٩٤١م (ن. ن).
- نسبة إلى الكاتب الروسي ليف تولستوي (١٨١٨- ١٩١٠م) المترجم.

تحديات الجودة في الوطن العربي

ناصر محمد العديلي
الرياض ـ السعودية

شهد العصر الذي نعيش فيه تطورات متلاحقة في مناحي الحياة كافة، ولعل الإدارة هي أحد المجالات التي تطورت فيها البحوث والدراسات بشكل لافت للنظر، ترتب عليه التوصل إلى مفاهيم و تقنيات إدارية جديدة كان من أهمها ـ في تقديري ـ تطور مفهوم الجودة QUALITY، وإعادة الهندسة RE-ENGINEERING، وهما تقنيتان إداريتان أصابتا نجاحاً كبيراً خلال فترتي الثمانينيات والتسعينيات الميلادية.

ولأهميتهما من وجهة نظر الكاتب للإدارة بشكل خاص وللحياة بشكل عام فسوف نلقي الضوء عليهما، ونتعرف أهم نتائجهما وآثارهما في الإدارة وتطوراتها، ونجاح منظمات العمل الغربية واليابانية في تطبيقهما، ثم نعرج على أهميتهما في عالمنا العربي، وتحديات تطبيقهما.

الجودة من منظور إسلامي

الجودة هي أحد المبادئ التي دعا إليها الإسلام، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه.

ولا شك أن هناك عدداً من الأحاديث النبوية، والأقوال المأثورة التي تحث على الجودة وإتقان العمل، وأداء المهام على الوجه المطلوب.

تعريف الجودة

تعني الجودة في تقديري إتقان المنتج، أو الخدمة في سبيل إرضاء العميل، والسعي إلى التحسين المستمر. وهذا التعريف الذي يتبناه الكاتب هو عصارة لرؤية الإسلام، والمفاهيم الغربية الحديثة للجودة والذي أشار إليه أكثر مفكري الجودة.

وعند تحليل هذا التعريف نجد أنه يتكون من العناصر التالية:

- اتقان المنتج أو الخدمة.
- إرضاء العميل الداخلي والخارجي.
- السعي إلى التحسين المستمر.

وعند مراجعة تعاريف الجودة ومفاهيمها عند عدد من مفكري الجودة نجد أن أهمها هو ما يراه ديمنج DEMING، وهو أول من تناول موضوع الجودة، ويعرّفها بأنها «التوجه إلى احتياجات العميل أو المستهلك الحالية والمستقبلية»، ويرى جوران JURAN، وهو أحد مؤسسي الجودة أنها «دقة الاستخدام حسب ما يراه المستفيد»، ويعدّها كرسبي CROSBY الضلع الثالث من أضلاع الجودة المهمة ويرى أنها «المطابقة مع المتطلبات»، ويعرفها معهد الجودة الفيدرالي الأمريكي بأنها «أداء العمل بشكل صحيح من المرة الأولى، مع الاعتماد على تقويم المستفيد لمعرفة مدى تحسن الأداء».

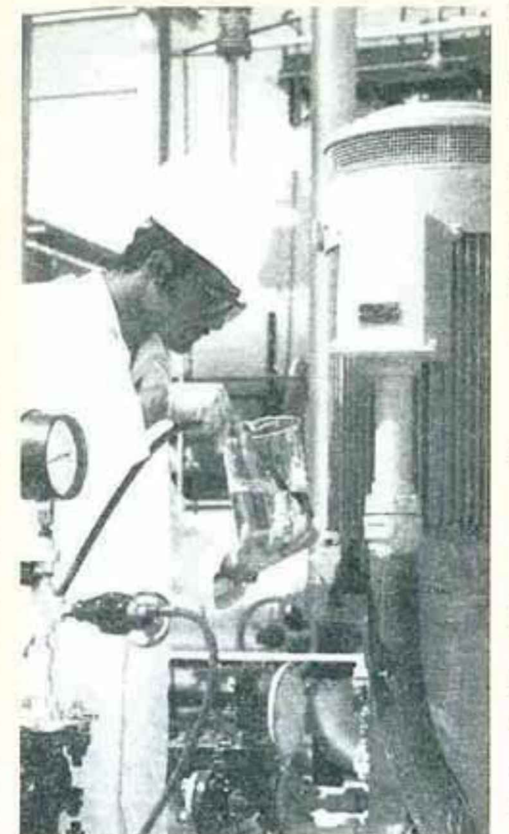
وتعرفها المواصفات البريطانية بأنها: «مجموعة الصفات والخصائص للسلعة أو الخدمة التي تؤدي إلى قدرتها على تحقيق رغبتها معلنة أو مفترضة». ويرى آخرون أن الجودة هي: الرضا التام للعميل، وانخفاض نسبة العيوب، وانخفاض شكوى العملاء، والتطوير والتحسين المستمران، والملاءمة للاستخدام.

ومهما يكن من أمر تعدد تعريفات الجودة، فإن هذا يدل على أهميتها وتعدد زوايا النظرة إليها.

سر الاهتمام بالجودة

ترى لماذا كل هذا الاهتمام بالجودة وإدارة الجودة في الدول المتقدمة؟

إن السبب الحقيقي لتبني برامج الجودة يعود إلى عملية المنافسة التي أخذ أوارها يشتعل بين الشركات الكبرى رغبة في إرضاء العملاء، والسيطرة على السوق، كما أن العصر الذي نعيش فيه هو عصر المنافسة والتميز، وكسب ود العملاء وإشباع حاجاتهم، كما لا ننسى أن رغبة الشركات والمؤسسات العالمية في الغرب والشرق في التأهل للحصول على الشهادة العالمية إيزو ٩٠٠٠ كان وراء هذا التنافس لتثبت للعملاء والمستهلكين بأنها الشركة المؤهلة والكفأة لخدمته والتميز في أداء هذه الخدمة.



متى نهتم ببرامج الجودة؟

أهم مبادئ الجودة الشاملة

تعتمد برامج الجودة الشاملة على مبادئ أساسية من أهمها:

- **العمل بشكل جماعي:** وهذا بدوره يسهل عملية جمع أكبر قدر من الأفكار والمعلومات الناضجة والخبرات المتعددة، كما يساهم في صنع القرارات الجماعية وحل المشكلات للخروج بتصور متفق عليه من الجميع لضمان دعم القرار وتطبيقه بشكل جماعي.
- **التزام التغيير:** وذلك من قبل الإدارة العليا لأهمية دور الإدارة العليا في تنفيذ برنامج الجودة لإقناع العاملين كافة في المنظمة وجعلهم يدركون أهميته لتسهيل عملية تطبيقه وتنفيذه.
- **التركيز على العميل والانطلاق منه FOCUSED:** الاهتمام بالعميل، وتلبية احتياجاته، ومشاركته في برنامج الجودة، وأخذ رأيه في عملية تحسين الجودة، تعد من أهم مبادئ الجودة لأن الجودة هي منه وإليه، وقد نجح كثير من الشركات العالمية الكبرى في هذا المجال. ويشير دمنج، عرّاب الجودة في هذا المجال، إلى أن اليابانيين يعطون العمل اهتماماً أكثر
- **عملية التحسين المستمر:** من خصائص الجودة التحسين المستمر في العمليات والإجراءات والتقنيات والمهام في جميع مناحي منظمة العمل، لأن التغير المستمر سمة من سمات المنظمات الحديثة، كما يشمل التحسين المستمر (أساليب القياس الخاصة بالأداء الوظيفي، ورضا العملاء وغير ذلك).
- **تعزيز العلاقة مع الموردين:** بصفة المورد الشريك فإن العمل معه من أجل التحسين المستمر ينعكس على علاقة الجودة وتحسينها وتعزيز هذه العلاقة على المدى الطويل وتقويتها.
- **تمكين العاملين THE EMPORMENT:** إن تعزيز مشاركة العاملين وتمكينهم من المشاركة في الرأي في مستوياتهم الإدارية كافة يساهم في زيادة شعورهم بأهميتهم، وهذا بدوره ينعكس على زيادة مساهمتهم، وطرح أفكارهم الجديدة، ويتم ذلك عن طريق منحهم إبداء الرأي والمعلومات المرتدة، وكذا الصلاحيات والمسؤوليات في المشاركة بصنع القرار كل حسب مجاله ومستواه الوظيفي في المنظمة.

تحديات تطبيق برامج الجودة في الوطن العربي

لعل السؤال أو الأسئلة الكبيرة التي يطرحها المختصون في الإدارة والتطوير التنظيمي في عالمنا العربي يتمثل بعضها في التالي:

- ما مدى حاجة الوطن العربي لتطبيق برامج الجودة الشاملة في مناحي الحياة الإدارية والتعليمية والاقتصادية والإعلامية؟
- ما مدى جاهزية العالم العربي لتطبيق برامج

الجـودة، وزيادة فاعليتـها من حـيث الأسـرة، والمنهج المدرسي، والمؤسسات الأخرى؟

- ما مـدى قناعـة القيـادات الإداريـة والتـعليمـيـة والاقتصادية بتطبيق مثل هذه البرامج؟

- ما مـدى قدرة المتـخصـصين على اقناع أصـحاب القرار الإداري والـتربوي والاقتصادي في تبنـي مثل هذه البرامج في الجودة وإعادة الهندسة.

في تقديري أن العالم العـربي هو في أمس الحاجـة إلى تطبـيق برامج الجـودة وإعـادة الهندسـة في هذه المرحلة مـن مـراحل نموه الاقـتـصـادي والتـعليـمي والاجـتـمـاعي والإداري والإعـلامـي والسـيـاسي، لضـمـان جـودة حـيـاة متـميـزة، وأداء فـعّـال، وإنتـاجـيـة عـاليـة لأفـراده ومـؤسـسـاتـه بأنواعـهـا وأشكالـهـا وأحـجامـهـا كافـة، كـما أن الجـودة هي مطلب إسـلامي وعــربي منذ زمن طويل، غيـر أن ترجمتـها إلى برنامج / برامج عمل وتقنيات عملية قابلة للتنفيذ ربما يواجـهـهـا بعض الصـعـوبات أو التـأخـر في نجـاحـهـا بـشكل فـعّـال في العـالم العـربي، على عكس مـا حـصل في الدول المتـقدمـة ولا سـيمـا اليـابان والولايات المتـحـدة الأمـريكيـة التي نجحت برامج الجودة فيها.

وتعـود الأسـبـاب في عـدم تطبـيق برامج الجـودة في العـالـم العـربي في رأينا إلى ما يلي:

- غـياب المنهـج العلمي في طريقـة التفكير العـربي لدى كثير من البلاد العربية.

- عـدم التـجـانس فـي المنهج الدراسـي بين الدول العــربيــة وهـذا بدوره ينعـكس علـى تفـاوت الرأي والرؤية.

- غـياب الـرؤية المشتـركـة الموحـدة لحل المشكلات الأساسية في الوطن العربي.

- تفاوت التنمية الاقتصادية والاجتماعية والتربوية في العـالم العـربـي بسـبب التـفـاوت الاقـتـصـادي في الدول العـربيـة سـواء مـن حـيث دخـول هذه الدول أو مستوى جودة حياة الأفراد ودخولها فيها.

- عدم الاعتبار لتطوير جودة الحياة والعمل كأولوية موازنة بالأولويات الأخرى وفقًا لرؤية كل بلد.

إن هذه المحـددات وغـيرها من المحـددات الأخـرى سـاهـمت وتساهم بشكل كـبيـر في إعاقـة تنفيذ برامج الجودة في العالم العربي - إذا نظـرنا إليها بشكل عام. غيـر أن المرء لا يعتـريه الشك في إمكان تنفيذ برامج الجـودة في بعض الدول العربـية التي تجـاوزت بعض المشكلات الاقتصادية والتعليمـية والسياسية، وأخذت تنفذ برامج تنمـية إدارية واقـتصـادية مـتوازنة خـلال السنوات العـشر الماضـية - وهي دول قليلة يا للأسف - موازنة بحجم الدول العربية وعددها.

إن هذه الـدول بإمكانـهـا تـبني بـرامج الجــودة في مناهـجـهـا ومـدارسـهـا ومـعـاهدها ومنظمـاتهـا ومـؤسسـاتهـا العـامـة والخـاصة، ولكن بشكل بطيء وجـزئي حتى تضمن النجاح والفعالية، وتحقيق الأهداف.

السـبب الحـقـيـقي لـتـبنـي برامـج الجـودة يعــود إلى عـمليـة المنافسـة التـي أخـذ أوارها يشـتـعـل بين الشـركات الكبـرى

استراتيجية تبني برامج الجودة في العالم العربي

تعدّ برامج الجـودة من النوع السـهل الممتنع في التخطيط والتنفيذ والنجاح أو الإخـفـاق، وهي تتطلب اسـتـراتيـجـيـة محكمة يمكن رسم معالمها على النحو التالي:

- إبداع رؤية مشتركة لتطبيق برامج الجـودة انـطلاقًـا من الـواقع الفــعلي، وتحديد الاحتياج بشكل دقيق وعملي.

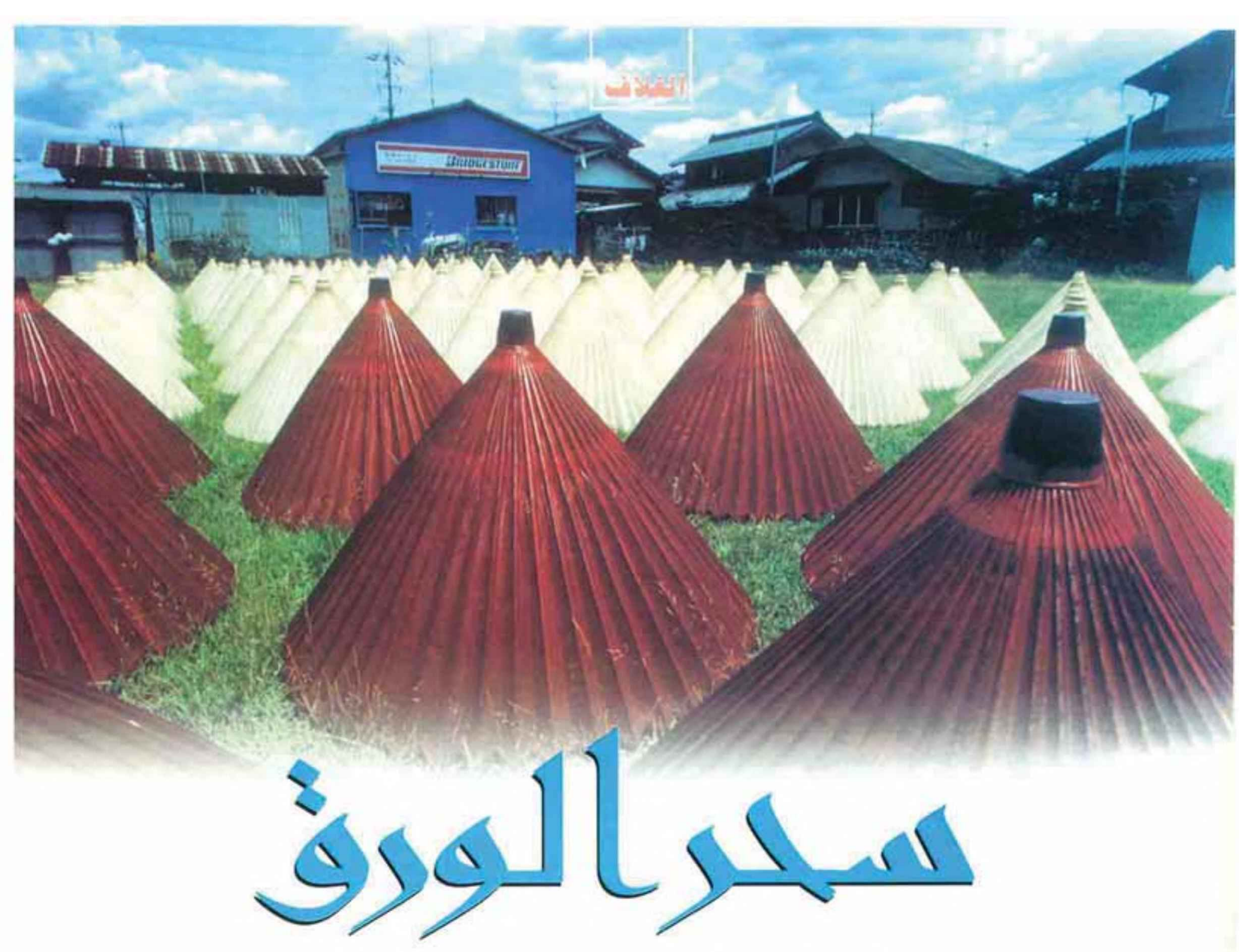
- وضع (اسـتـراتيـجـيـة) خطة طويلة المدى لتـنـفـيـذ برنامج محكم بناء على الرؤية المشتركة.

- تسخـير الإمكانات المادية والبشـرية والفنية كـافة لتطبيق هذا البرنامج بنجاح.

- إقناع الإدارة العليـا (السـياسيـة أو الإدارية) بمثل هذا البرنامج والتزام دعمه وتنفيذه.

- وضع خطة التـنفيـذ وتقـويمهـا بشكـل مسـتـمـر لضمان جودة التنفيذ.

ولعلنا مسـتقبلاً نلقي الضوء على موضـوع الجودة وتطورها في الإدارة، والحياة الـعامة في بعض الدول المتـقدمـة بشكل خـاص للاسـتـفـادة منهـا في التنمـيـة والتطوير والتـغـيـر الإداري والتـربوي والاجـتـمـاعي والاقتصادي في الوطن العربي.



سحر الورق

بقلم جون ر.لوما   تصوير: سيسي بريمبرغ

ترجمة: أدهم شاكر عضيمة

دمشق - سورية

يرتفع بيت سويكيرو ساكاموتو Sakamoto المتواضع فوق تل تظلله الجبال السندسية الخضراء في فوتوماتا، القرية الصغيرة التي لا تبعد كثيراً عن بحر اليابان. وفي (ورشته)، وهي في مكان يغمره نور ضئيل يسمع منها خرير المياه الجارية، يدير برأسه ملتفتاً إليّ وهو يقول: «قالت لي إحدى فتيات الجيشا Geisha إنني راقص ماهر». ويتمايل ساكاموتو برشاقة في الوقت الذي كان فيه الماء يجف من قاع صينية عريضة ضحلة العمق، وهي ليست أكثر من إطار خشبي يدور حوله غطاء متحرك من عيدان الخيزران المكسرة.

وعلى بساطته، يمكن لهذا التدبير أن يكون وسيلة ساحر من جرّاء السحر الذي يخرج من بين يدي ساكاموتو؛ فقد مزج في حوض صغير بضع كمشات من زغب رطب مؤلف من ألياف شجيرة صغيرة تدعى كوزو (Kozo). ويسكب ساكاموتو قالبه ضمن الحويض، ويتركه مطفطفاً بالسائل، ثم يهزه لكي ينفذ كامل الماء داخل القالب. وعندما يتبخر الماء يتشكل أعلى السطح مستطيلاً بلون الشوفان. يجف المستطيل لكي يأخذ شكل صفيحة الورق، وهي المادة التي أصبحت فيما بعد حجر الزاوية للحضارة على مدى ألفي سنة، فعلى الورق تألقت مواعظ التاريخ، وسطعت شعلة عبقرية الإنسان عبر المكان والزمان - فهذه مؤلفات موتسارت الموسيقية، وكلمات

ترجمة: أدهم شاكر عضيمة



المنظر الجانبي والأحرف الأولى لاسم/ لويجي ماسيلا LUIGI MACELLA، المرسومة بالتلوين المائي لا تترك أثراً للشك في أن هذه الصفحة من الورق المذهبة بأشعة الشمس والتي صنعت في مركز تصنيع الورق الشهير في فابريانو بإيطاليا قد صنعها لويجي بيديه



امتزجت ديانة اليابانيين وحياتهم بالورق، فالورق مادة صنع وشاح الكيمونو الاحتفالي والمظلات الواقية من وابل المطر

شكسبير الخالدة، ورسومات بيكاسو، وحكمة غاندي. وعندما خرجت الكلمات من الشفاه، وأخذت مكانها على الورق تغيرت طريقة تفكير الإنسان.

ولقد عمل الورق ومعه الطباعة على الأخذ بيد أوروبا للخروج من العصور المظلمة: ففي فترة لا تتجاوز الخمسين عاماً بعد اختراع يوهانس جوتنبرغ Johannes-Gutenberg أول مطبعة في التاريخ أواسط القرن الخامس عشر الميلادي، خرج إلى الوجود أكثر من ستة ملايين كتاب في القانون والعلوم والسياسة والدين والمكتشفات والشعر.

فالورق بكل أنواعه من الممتاز إلى العادي يعد محاكاة لسحر التجديد. فهو البسيط بشكل لفافات مناشف تصنعها المعامل للمطبخ، والفائق الجودة بشكل وشاح مترف للباس الكيمونو الذي يبيعه ساكاموتو بسعر يبدأ بخمسة آلاف دولار فما فوق. والورق هو المادة الأساسية للعملة الأمريكية المتينة التي لا تبلى، يخرج ملفوفاً من آلات ضمن معمل عليه حراسة مشددة.

صناعة عملاقة

يتبوأ الورق بوصفه سلعة صناعية من بين السلع الأخرى كالبترول والفولاذ مركز العملاق، وتنتج المعامل الحديثة على مستوى العالم ثلث بليون طن من الورق كل عام، وهذا يعادل ثلاثة أضعاف الوزن الإجمالي لإنتاج العالم من السيارات. ففي الولايات المتحدة الأمريكية وحدها تزود صناعة تكلفتها مئة وسبعون بليون دولار ما يكفي من الورق لإصدار بليوني كتاب، وأربعة وعشرين بليون صحيفة، ونحو ثلاثمئة وسبعين بليون قدم مكعب من الورق المقوى المجعد.

وما نجده اليوم في محيط العمل هو صرخة بعيدة المدى صدرت عن الحاذقين القدماء في صناعة الورق



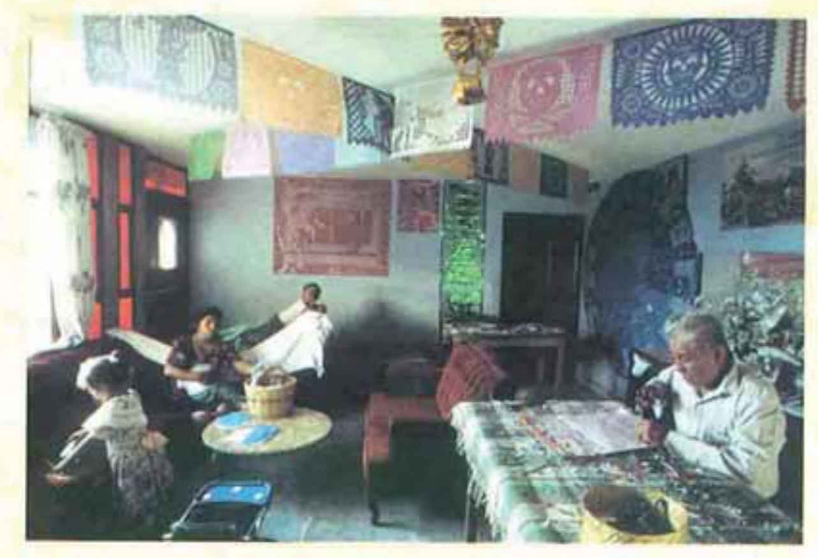
فتاة تلبس ثوباً أنيقاً من الورق وتحمل بإحدى يديها كيساً من الورق تضع فيه أشياءها، وتحمل باليد الثانية مظلة صنعت من الورق، وتعتمر قبعة من الورق تزيد من أناقتها

في استخداماته عبر العصور من جانب المهرة والموهوبين أمثال ساكاموتو. ومازال صناع الورق من المعاصرين يستخدمون الوصفة الأولية لأسلافهم وهي الماء مع ألياف السيلليلوز. وتتشكل مادة الورق عندما تتحد ذرات الألياف مع تلك التي في جزيئات الماء. وعند جفاف الماء من خلال شبه مصفاة، تنجذب جزيئات الماء إلى الألياف بقوة تجعلها تتعشق فيها، وتتشكل روابط جديدة ما بين الألياف ينجم عنها سطح جامد أملس.

وفي طول الولايات المتحدة وعرضها شاهدت آلات حديثة لصنع الورق يديرها رجال يقبعون في أكشاك صغيرة أشبه بالجسور الصغيرة التي توصل رجال الفضاء إلى مركبتهم انتربرايز Enterprise. وكل آلة كانت تزمجر وتنفث بخاراً، ومجموعة صاخبة من اسطوانات اللف والأقنية والأنابيب. ومن إحدى الجهات ينسكب

ماء يحوي مقداراً صغيراً من عجينة الورق نحو حزام ناقل أشبه بستارة شباك كبيرة، ومن الجهة المقابلة تخرج لفافة ضخمة من الورق، وهذه اللفافات التي تخرج غالباً ما تكون نهاياتها غير صالحة للاستعمال فتقطع وترمى وتتكوم بشكل نفايات تأخذ حيزاً أكثر من أية نفايات أخرى. أضف إلى ذلك أن المهتمين بأمور البيئة يشيرون بإصبع الاتهام إلى معامل الورق التي تعمل على تعرية الغابات وتلوث الهواء والتربة والمياه بإطلاقها السموم مثل مركبات الدايوكسين Dioxin التي تخرج كمنتج صناعي رديف. يقول جوثورنتون Thornton من مركز جامعة كولومبيا للبحوث البيئية والحفاظ على البيئة: «تشكل الصناعة في هذا الوقت بالذات أحد أسوأ الملوثات في العالم». إلاّ أن بعض المجددين دائبون في العمل على حل هذه المشكلات. ومن خلال إعادة معالجة الورق ومخلفاته الصناعية، أو حتى بإيجاد مادة جديدة للبناء تصنع من الورق المستعمل، يمكن لهذه السلعة البالغة الأهمية أن نجعل منها مادة بيئية سليمة.







الفنانون يكسون الورق أشكالاً جمالية متنوعة

الصينيون يدوّون المسيرة

تشكل هذه الموضوعات فصلاً من القصة الحقيقية للورق، تلك القصة التي سوف أرويها وأتحدث عن الآلات الكبيرة السريعة الحركة، والتحكم بعملية التلوث وإعادة المعالجة ورصد حالة الغابات والأمور المهمة للعالم الصناعي. ولكن، وأنا بصدد تحقيق كل هذا، اكتشفت فنانين وصناع ورق وعلماء كانوا مأخوذين بسحر هذه المادة.

منذ أن بدأ إنسان كرومانيون Cro-Magnan رسم الثور البري والماموث Mammoth الضخم على جدران الكهوف التي سكنها، بدأت البشرية بحثها عن السطح الأمثل لتسجيل ما يجول برأسها من أفكار. بدأ الصينيون هذه المسيرة بحفرهم كتابة تصويرية على العظم. وسجل الإغريق خربشات على رقّ كان يؤخذ من جلد الحيوانات. ورسم شعب المايا Maya كتابات مقدسة على لحاء جذع شجر



حبال طويلة من الورق المضفور تمثل عصافير ترمز في اليابان إلى السلام والأمل، وتحجب صورة للخراب الذي أصاب هيروشيما في أول تفجير نووي عام ١٩٤٥م



التخلص من الورق مشكلة بيئية

التوت. أما المصريون القدماء فقد نجحوا في صنع البابيروس Papyrus أو البردي، وهي المادة التي أعطت اسم الورق فيما بعد، وكانت تصنع بضغط طبقات مبللة من عشبة النيل. إلا أن الورق الحقيقي أثبت فيما بعد أنه أقل تكلفة من رق الحيوان، كما يمكن إنتاجه بوفرة. وثبت أيضاً أن الورق كان أفضل من البابيروس المصري أو لحاء الشجر في مجال الطباعة.

وطبقاً للأسطورة كان الصيني تساي لون Ts'ai Lun أول صانع للورق حينما صنعه من القنب Hemp ولحاء الشجر والأثمال البالية وذلك في عام ١٠٥ ميلادية. وربما قام بذلك تلبية لرغبة الخطاطين في الصين في الحصول على واسطة للكتابة أكثر جدوى من رقائق الحرير أو شرائح الخيزران. وقد أحب الصينيون الورق منذ ذلك الوقت، وتوصلوا إلى اختراع الأحرف المتحركة قبل جوتنبرج بعدة قرون. وكانوا السباقين في إيجاد العملة الورقية والكتب المطبوعة على الورق. ومن الطريف أنه كان محظوراً بل ومحرماً أن تطأ قدم إنسان قطعة من الورق عليها كتابة.

كتب فوهيسن FU HISEN، وهو فقيه من القرن الثالث الميلادي يقول: «إن هذه المادة رائعة وثمينة، هي الرفاهية بثمن بخس، مادة بطبيعتها نقية ولا تشوبها شائبة، تتجسم جمالاً، وهي الرونق بعينه، إنها تسر رجال الأدب بحق وحقيق». وعندما وصلت صناعة الورق أوربا في القرن الثاني عشر الميلادي كان الطريق ممهداً لأول ثورة معلوماتية انطلقت بعد ثلاثة قرون عندما توصل جوتنبرج إلى صنع آلته الطابعة. ويقول بيتر تشودين Tschudin رئيس الرابطة العالمية لمؤرخي الورق إن «الانتشار الكبير للطباعة كان المسؤول الأول عن انتشار الأفكار، وليس هناك أدنى شك في أن استقدام الورق كان بدوره استقداماً للكلمة المطبوعة».

الحفاظ على التراث الإنساني

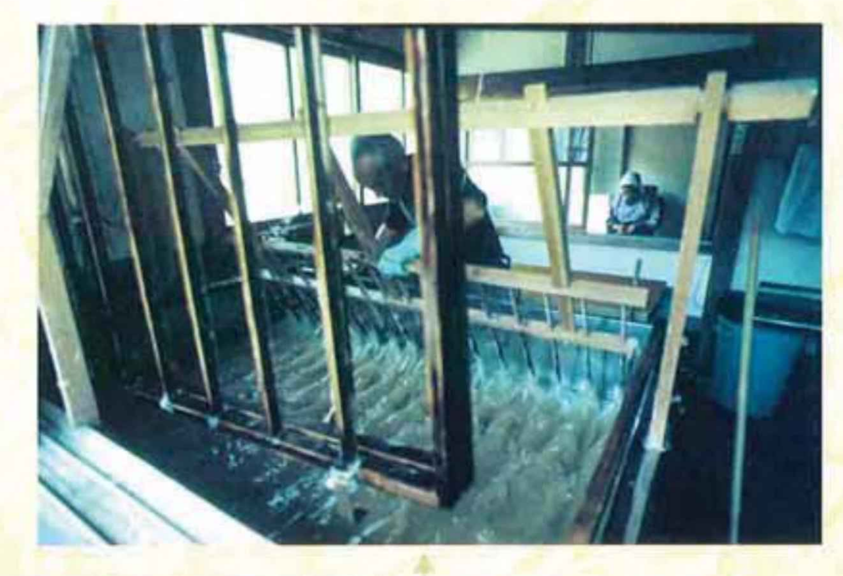
استخدم العاملون في الطباعة زمن جوتنبرج القنب وخروق الكتان في صناعة الورق. وكان لنقاوة هذا الورق وقوته الفضل في ضمانة بقاء الأعمال الأدبية الخالدة مئات السنين. وقد تفضلت جيسي منّ munn القيّمة على مكتبة الكونجرس الأمريكي في مدينة واشنطن وأثرتني بالاطلاع على عمل من هذه الأعمال هو مدينة الله City of God للقديس أوغوسطين، طبعة عام



١٧٤٣ ميلادية. وقد بدت الطبعة أنيقة اليوم أناقة خروجها من الطباعة قبل خمسمئة عام ونيف: فقد كانت الصفحات السميكة بلون الزبدة الصفراء، والحروف مذوّقة، ومزركشة مع أول حرف لأول كلمة من كل مقطع ملونًا باليد تلوينًا حاذقًا، وبقفزة غطت عدة مئات من السنين أمعنًا النظر في مغناة كتبها باليد مؤلفها الموسيقي الشهير يوهان سباستيان باخ Bach، والمغناة تحوي مقاطع لقصص عدة منها «عيد الزيارة»، «أرواحنا تمجد الله» مكتوبة بالشكل المائل ومتشققة في بعض أجزائها، وفي أجزاء أخرى لطخات من الحبر منتشرة هنا وهناك على الصفحة.

وبينما كان الإعجاب يملأ نفسي بحيوية الموسيقار العظيم كانت صديقتي تهز رأسها مستغربة رخص الورق الذي اشتراه باخ، وواضح أن السبب كان ضيق ذات اليد في أن يشتري أفضل منه. هزت صديقتي رأسها ثانية، ولكن هذه المرة بأسف قائلة: «حقًا لقد كان باخ يستعمل ورقًا رديئًا». وهناك على الأقل واحدة من إحدى مؤلفاته الموسيقية تظهر مكتوبة على صفحة ورق أخذها من عند بائع السمك. مع هذا، حتى لو كانت أوراق هذه المايسترو في حالة أفضل من الصفحات الآخذة بالاصفرار للكتب التي اشتريتها منذ عشرين عامًا فقط، فلماذا تتحول كتبي شيئًا فشيئًا إلى هباء منثور؟

تكمن هذه المشكلة في الطلب المتزايد على الورق طوال فترة القرن التاسع عشر عندما تحول صنّاع الورق إلى الألياف المأخوذة من الشجر من أجل المادة الخام لأنها كانت أرخص وأكثر وفرة من الخروق البالية. وخلافًا للقطن









تنتظر الألياف الحريرية المستخرجة من لحاء الكوزو أو شجرة التوت التي يصنع منها الورق المرحلة التالية من المراحل التقليدية بصنع الورق في اليابان بعد تنظيفها بفرز الشوائب عنها. ويبدو هنا فوكودا وزوجته منهمكين بالقيام بحرفتهما. فبينما هي تكشط اللحاء يقوم هو بتحريك مزيج ألياف الكوزو مع النيري NERI، وهي مادة دبقة تستخرج من جذور نبتة الخباز، وتعمل على منع الألياف من التكتل. وبعد تجفيف طبقة رقيقة من الألياف يضع فوكودا صفحة الورق الجديدة على مفرش. وقد أبقت القرابات العائلية على أسرار صناعة ورق «الواشي»

الذي يكاد يكونٍ كل تركيبه من السيلليلوز النقي، فإن الألياف تتماسك بشدة بفعل مادة طبيعية تسمى ليجنين Liginin، وهذه سرعان ما تتأكسد وتصبغ الورق باللون البني. ومازاد الطين بلة إضافة حمض يساعد الورق على الانكماش، ومع مرور الزمن يصبح الورق في هشاشيته أشبه بأوراق الشجر الميتة.

إنقاذ ما يمكن إنقاذه !!

واليوم تجري عملية طبع غالبية الكتب في الولايات المتحدة على ورق لا حمضي من أجل الحفاظ عليها مدة أطول، ولكن السؤال هو ماذا بشأن القسم الأعظم من الكتب التي نشرت منذ بداية القرن العشرين؟ والجواب حاليًا هو أن القائمين على حفظ الكتب وسلامتها يقومون بإنقاذ بعض الصفحات التالفة، وذلك بتغطيسها في محاليل تجعل الأحماض محايدة المفعول.

غير أن مكتبة الكونجرس التي تحوي ما يقرب من عشرين مليون مؤلف لا تضم إلا حفنة من القيمين عليها للحفاظ على كنوزها. إنها تسعى جادة إلى تخزين مجموعات الكتب ضمن المايكروفيلم Microfilm أو بشكل تخزين في الحاسوب، إلا أنه نتيجة لتلف الكتب بمعدلات مخيفة ومقلقة، فإنها لا تتوقع تخزين إلا النزر اليسير من هذه الكنوز.

والسؤال الآن، أليس هناك من شيء آخر يمكن القيام به؟ طرحت هذا السؤال على مارفن كرانتز Marvin Kranz، وهو قيم على الكتب التاريخية، فأشار إلى الأكداس المكدسة من الكتب قائلاً: «ماعليك إلا أن تذهب إلى أي مكان للعبادة وييدأ الدعاء كي يحفظ الله لنا هذه الكنوز».

تزايد استهلاك الورق

وأنت في اهتمامك بالأمر يمكنك الدعاء من أجل إنقاذ الورق من مآله إلى أكوام من النفايات، وخصوصا في الولايات المتحدة الأمريكية حيث يتفوق الناس في استخدامهم الورق وتخلصهم من المهمل منه على أية أمة أخرى. ففي عام ١٩٩٥م كان متوسط استهلاك الفرد للورق هو ٧٣٧ باونداً، أي أكثر من ٣٦٠ كيلو غراماً، وهذا يعادل أكثر من ضعف كمية الاستهلاك لما قبل السنوات العشر الفائتة. وخلافاً للتوقعات حول حلول الحاسوب محل الورق، فإن معدّل الاستهلاك يضرب في الأعالي. وفي الوقت ذاته يقوم الناس حالياً في الولايات المتحدة بإعادة معالجة الورق المهمل بأكثر مما كانوا يفعلون قبل خمس سنوات. ويبدو الآن كما لو أن كل مدينة قد وضعت لنفسها برنامجاً خاصاً بها لإعادة المعالجة. غير أنه لم يكن هناك طلب على الورق القديم، زد على ذلك قلة عدد مراكز إعادة المعالجة للقيام بهذه المهمة، ونتيجة لهذا نشأت مستودعات قمت بزيارة واحد منها في مؤسسة وولدورف Waldorf، وهي مركز لصنع الورق في مدينة «سانت بول» في ولاية «مينيسوتا»، والمركز المذكور كان يغصّ بأوراق الصحف المهملة، حتى إنه اضطر عام ١٩٨٩م إلى الاستغناء عن أعمال إعادة المعالجة.

قالي لي توم تروسكي Troskey الذي يوفر الورق لمؤسسة وولدورف: «كانت هناك تخمة في استهلاك الورق، فقد كانت بعض المصانع تدفع أجور ترحيل ورق الصحف المهمل. والطلب يرتفع اليوم، حيث من المأمول أن تتم إعادة معالجة خمسين بالمئة من الورق التالف بحلول عام ٢٠٠٠ ميلادية».

ويبدو أن هذه أخبار سارة، إلا أن عملية إعادة المعالجة لها حدودها: ففي كل مرة تعاد فيها ألياف الورق إلى حالة العجينة فإن جودتها تتراجع ويفقد الورق الجديد تماسكه وقوته. والباحثون في مختبر منتجات الغابات في الولايات المتحدة الأمريكية في ماديسون بولاية ويسكونسن Wisconsin هم الآن بصدد إيجاد سبل جديدة لاستخدام الورق الذي فقد ميزاته كورق جديد جيد. فمن ورق الصحف القديمة بعد مزجه مع البلاستيك المستعمل، ثم تسخين المزيج وضغطه تمكن المختبر من صنع الكراسي وأغطية حزامات الأمان، وحتى صحون طعام الكلاب. ولقد سجل المختبر في سجلات حقوق الاختراع تقنية أخرى باسم شركتين لتصنيع الأسقف المستعارة شكل فيها الورق المستعمل معظم أجزائها، وهذه





قاعة مطالعة مزدانة بلوحة فنية تمثل شخصيات مشهورة



سحابة من أشرطة الورق الطويلة تلهب حماسة المؤمنين في إحدى ساحات مدينة صقلية في عيد القديس بطرس. وقد أخذت الكلمة الإنجليزية للورق من كلمة بابيروس من مصر القديمة. انتقل الورق من البلاد العربية إلى إيطاليا بعد آلاف السنين من تقديم الصيني تساي لون LUN الورق أول مرة إلى البلاد عام ١٠٥ للميلاد

العملية وجدت طريقها إلى تجهيزات المسارح في هوليود، وقد تؤمن يوماً ما المأوى المؤقت لعمال كاليفورنيا النازحين.

مفهوم خاطئ:

وضع تيد لاوفنبرج Laufenberg، وهو أحد علماء مختبر ماديسون، بين يدي نموذجاً جاهزاً لمشروع مناعة الأسقف، خفيف الوزن كالورق المقوى، ولكنه بقساوة عمود الفولاذ، طبقاته الخارجية مغطاة بطبقة رقيقة من الخشب لتجميله، أما الداخل فقد صنع من ورق الجرائد المضغوط بقالب أشبه بعلبة حمل البيض، وأشكال أخرى من الأقواس لتأمين تقويتها ودعمها. ويعتقد لاوفنبرج بأنها من القوة بحيث تكفي لأن تحل محل العوارض الخشبية، ولكن بنصف وزنها، ولكن، هل يمكن لمربعات كهذه مصنوعة من نفايات الورق أن تصمد بحيث تنجح في إحداث الفرق، وهل تؤخذ في المستقبل جدياً على أنها إحدى مواد البناء؟ يعتقد لاوفنبرج ذلك، على الأقل في الاستخدامات داخل المنازل.

ويوماً ما يمكن لهذا المنتج الجديد أن يعمل على الحد من عدد الأشجار التي تقطع للحصول على الخشب، غير أنه لن يوقف قطعها من أجل لُبها ففي كل عام هناك محصول من لب الخشب يقدر عالمياً بعشرة بلايين قدم مكعب تستخدم في إنتاج مختلف أنواع الورق.

غير أنه خلافاً للمفهوم الخاطئ الشائع، فإن هذا الرقم هو أقل من تسعة بالمئة من المحصول الإجمالي العام للخشب. وفي الولايات المتحدة الأمريكية يتم تأمين لب الخشب من غابات معدة أصلاً من أجل إنتاج الورق، وليس من الغابات الطبيعية العذراء.

في صباح أحد الأيام المشرقة كنت أقود سيارتي في غابة من الدلب والزان على هضبة تاج هيل Tug Hill شرق بحيرة أونتاريو ontario في كندا مع بروس كاربنتر الذي يترأس جماعة لحماية البيئة تدعى اتحاد جماعة أنهار نيويورك.

كانت أزرار أوراق الشجر الخضراء في أول تفتحها في غابات تؤهلها وحشتها لأن تكون غابات محمية، إلا أن هذه الغابات تبين أن مساحتها تبلغ خمسين ألفاً من الهكتارات تملكها شركة لوينز فولز Lyons Falls للورق ومشتقاته. وعلى غرار الكثير من أراضي شركات الورق في شمال نيويورك، فإن عملية قطع الأشجار تجري بشكل انتقائي مدروس. ويبدي كاربنتر قلقه بأن هذا الامتداد الكبير للغابة لن يبقى هكذا على حاله لأمد طويل، فقد واجهت شركة ليونز فولز تدنياً بالأرباح وارتفاعاً في ضرائب المتلكات، وراودتها فكرة بيع غاباتها. ودرءاً لحدوث مثل هذا فقد سعى كاربنتر ومعه بعض المهتمين بالبيئة إلى إقناع بعض البرلمانيين في الولاية بشراء ملاحق أبنية من شأنها حماية الأرض ومساعدة الشركة على





تعطي ألياف الواشي WASHI، وهو ورق ياباني مصنوع باليد، القوة والخفة اللازمتين لخوض معركة تطيير طائرات الورق في احتفال شيرون السنوي



«الفنون جنون» شعار يمثله هذا الفنان الذي جلس يرسم على الورق في قارعة الطريق



صور قديمة وملاحظات باهتة تشير إلى مسيرة صنع الورق خلال الحياة المنعمة التي عاشها زيغفريد لارسون ابن أحد المهاجرين السويديين المولودين في بنسلفانيا

الاستمرار بعملها. يقول دان ماك جوق Mc Gough، نائب رئيس سابق لشركة ليونز فولز: «وبهذا تتاح لنا الفرصة للإبقاء على صناعتنا وعلى الغابة في الوقت ذاته». قال هذا بعد أن أخفق المجلس التشريعي لمدينة نيويورك في استصدار الصك اللازم القانوني لهذه الملاحق عام ١٩٩٤م.

إصبع الاتهام!!

أعلنت الشركة عام ١٩٩٦م أنها قد باعت أرضها إلى شركة هانكوك لتجارة الأخشاب. ومع أن هذه الشركة لها سمعتها الطيبة لإدارتها الطويلة الأمد للأراضي المشجرة التي تملكها في أماكن أخرى من الولايات المتحدة، إلا أن القلق ساور كاربنتر في أنه بلا تأمين رسمي للأبنية الملحقة، فإن الطلب على إخلاء الملكية في المنطقة سوف يستمر بالضغط على الملاك في تجزئة ممتلكاتهم. وقال كاربنتر معقباً: «يمكن لشركة هانكوك أن ينتهي أمرها إذا هي باعت أراضيها على هذا المعدل بشكل مجموعات الواحدة منها عشرون هكتاراً تُباع لإشادة المساكن». وكان يشير بيده إلى كامل المنطقة والغابات المحيطة، ثم قال: «سوف تبتلعنا الطرق الجديدة والمخلفات التي سوف تملأ الأنهار، واقتلاع الأشجار من نحو كل بناء سوف يرتفع. إننا نشعر بأن هذا هو المكان الذي سوف يثبت أن صناعتي الورق والخشب يمكن لهما أن تكونا أفضل أصدقاء البيئة.

وهذا ما لم يكن من المتوقع حدوثه بهذه السرعة، إذ إن علماء البيئة يشيرون بإصبع الاتهام منذ عشرات السنين إلى صناعة الورق لاستهلاكها الكبير للماء وتعريتها لمساحات شاسعة من الغابات مسببة بذلك اليباب ومفرزات التلوث. وبالمقابل تدافع هذه الصناعة عن نفسها بأنها قد زادت من استخدامها للورق القديم المعالج وقللت من استهلاك الطاقة ومن ثم التلوث وأعادت تشجير الغابات. ويقول بول شميت Shimdt رئيس مجلس إدارة شركة ويسكونسن لصناعة الورق: «لقد أضحت لصناعة الورق مواطناً متعاوناً له اعتباره». ويتابع قائلاً: «لقد عالجت هذه الصناعة ما يزيد على ثلاثة وأربعين مليوناً من أطنان الورق عام ١٩٩٥م مقابل اثنين وعشرين مليوناً عام ١٩٨٦م، وكانت لسنين عدة تعمل بأكثر مما تتطلبه مراعاة الأنظمة ضد التلوث عموماً، وتلوث الهواء والماء».



ألعاب الأطفال تمثل جزءاً كبيراً من صناعة الورق

محاولات حماية البيئة !!

كان لشميت الحق في أن يقف موقف الدفاع، فمنذ عام ١٩٨٥م، عام اكتشاف الدايوكسين العالي السمية، أحد نواتج معامل الورق، وصناعة الورق تصرف بلايين الدولارات للتخلص منه، مشيراً إلى أنه في نهاية عام ١٩٩٤م قطعت دابر مصادر الدايوكسين بتراجع قدره ثلاث أونصات كل عام، وهذا يعادل أقل من واحد بالمئة من الكمية السنوية التي خرجت من كل مصادرها في الولايات المتحدة. غير أن كمية الدايوكسين مهما كانت ضئيلة فهي مؤذية حسب توصيات وكالة حماية البيئة Environmental Protection Agency (E.P.A.) للحد الحرج لتلوث الماء. وهذا يفسر سبب استمرار الضغوط على الصناعة التي تطلق الدايوكسين وأشباهه من مركبات الكلوراين العضوي Organo Chlorine الناتج من مخلفات المعامل كمشتقات تنتج من عملية تبييض الورق، وفي هذا تتبع المعامل تقليداً قديماً من أجل التخلص من الشوائب وتحسين أداء نوعية ورق الطباعة؛ وذلك بمعالجته بمادة الكلوراين Chlorine، الذي يتفاعل مع لبّ الخشب لتشكيل مادة الأورجانوكلوراين. ووجدت هذه المواد الكيماوية طريقاً لها داخل السلسلة الغذائية بتراكمها ضمن الأنسجة الدهنية للسمك والطيور والمخلوقات الأخرى. ومع أن الآثار الصحية لهذه المواد تبقى موضع جدل، إلا أنّ وكالة حماية البيئة خرجت بدراسة أولية طال انتظارها تقول فيها: إن مزيداً من التعرض لمقادير مهما كانت زهيدة من نوع معين من الكلوراين العضوي قد يزيد من خطورة التعرض للسرطانات، وإضعاف جهاز المناعة في الجسم، والتشوهات الولادية.



ابداع في تشكيل الورق

وربما لا نجد مكاناً تتمثل فيه المتابعة الدؤوبة لمشكلات البيئة أفضل من شركة فوكس ريفر Fox



River شمال ولاية ويسكونس، حيث معامل الورق أكثر من أي مكان في الولايات المتحدة. ففي مدينة جرين بي Green Bay حللت ضيفاً على مايك تزيتل Zettel الذي يدير محلاً لبيع طعم السمك، والمحل كالح المنظر يمتلئ بأنواع الطعوم، ومريلات الأطفال، ودود العلق. وبدا تزيتل ببنيته القوية ولباسه، إلى حد ما، لا يمت إلى المكان بصلة، وكان آنذاك قد قدم فوراً من عمله في بوليس المدينة السري.

يسترجع تزيتل في ذاكرته رائحة مصانع الورق ورائحة النهر قبل سنين في السبعينيات حينما كان يجول في المكان ببزة الشرطي. ويتحدث عن تلك الفترة قائلاً: «إنه لأمر مؤسف أن كانت هناك ليال لا يمكن تحملها، إذ إن النهر قد فقد الأوكسجين ولم يبق هناك من أنواع السمك سوى سمك المشط، وبالتدريج عاد النهر إلى ماكان عليه بشكل يمكن الاستمتاع بالصيد فيه من جديد». ثم يقول محذّراً: «... ولكن إياك وسمك السلّور من هذا النهر». ويخبرني تزيتل بأن السمك هنا مازال يحوي آثار مواد كيماوية مؤذية لأن المخلفات الصناعية لمعامل الورق قد تكوّمت في النهر منذ أمد طويل.

شيء مغاير

وهناك على الأقل معمل واحد للورق تملكه شركة جرين بي للتغليف قد توضحت لديه طريقة تصنيع الورق بالشكل المأمون. فلا أحد مثلاً يشكو من عدد الأشجار التي تقطعها الشركة، ولا أحد أيضاً يتأفف من الملوثات التي يطلقها المعمل، والأمر في غاية البساطة؛ ذلك أن المعمل لا يتسبب في شيء كهذا. أخذني المدير العام للشركة جيف والش walsh إلى المعمل، وشاهدت في ساحة التحميل والشحن كيف تقوم الشوكات الرافعة الضخمة بدفع الحاويات الكبيرة الملأى بالصناديق. ثم إلى الأحزمة الناقلة التي ترفع هذه الحمولة إلى خزّان ضخم للبّ الخشب. ثم توجهنا إلى المكان حيث كان المعمل في السابق يتخلص من فائض الماء المستخدم ويلقي به في النهر. أما اليوم فقد رأيت شيئاً مغايراً، إذ كان هناك طابور من الحاويات المملوءة بالماء لإعادة معالجته ومن ثم إعادة استخدامه في المعمل.

وترتسم على الوادي صفوف من معامل الورق؛ لأن المادة الخام وجدت هنا في الأصل. ويفسر والش ذلك: «كان لابد من أن نكون على ضفة النهر؛ لأن صناعتنا تستهلك مقادير هائلة من الماء. إلا أننا في عام ١٩٨٨م عاهدنا أنفسنا أن نعيد بناء هذا المعمل للوصول إلى إعادة معالجة منتجات الورق المقوى بنسبة مئوية كاملة، وأن نستغني نهائياً عن مصرف الماء المستعمل». ويعمل برنامج المعمل هنا على إعادة معالجة الماء الذي لولا هذا لكان يقذف به في النهر. إن هذا يمثل





على الرغم من كل تقدم في مجال حفظ المعلومات يظل الورق المستودع الأمين

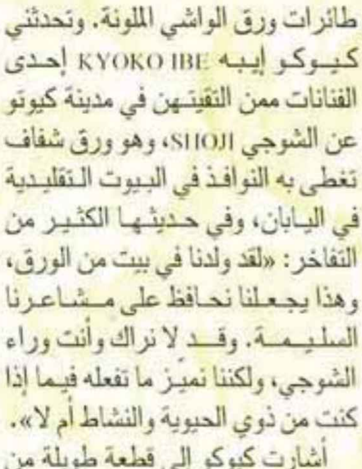
نقلة نوعية تستهوي علماء البيئة في أن يشهدوها حيث تتحول النفايات إلى مصادر.

وليس على هذا المعمل أن يساوره القلق إزاء عملية التبييض BLEACHING؛ لأن الزبائن لا يتوقعون من الورق المقوى المصنوع أن يكون أبيض. ولكن ماذا بشأن أعمال أخرى كنشر المطبوعات، أو تلك التي تستدعي استخدام الورق الأبيض من أجل أداء عالي المستوى؟ فإذا أنت طبعت مجلة كلها صور ملونة على ورق ليس ناصع البياض، فإنها تخرج ملطخة لتشوه صورها الملونة. فهل حقيقة ليس هناك أبدال لمادة الكلوراين المبيضة؟ إن صناعة الورق تستكشف حاليًا أساليب أخرى متعددة للتبييض. فمثلاً عمد أحد المعامل الذي يزود هذه المجلة بالورق إلى التحول من الكلوراين إلى ثاني أوكسيد الكلوراين الذي يكاد يعدم انطلاق الكلوراين العضوي السام. وتحذو المعامل الأخرى حذو هذا المعمل بصرفها ملايين الدولارات للغرض نفسه. وفي القريب العاجل لن تكون هناك فرصة لهذه المعامل للاختيار لأن وكالة حماية البيئة عاكفة على دراسة قوانين من شأنها منع استخدام مادة الكلوراين في كافة معامل الورق.

بيت من ورق

يندر في اليابان أن تتحدث إلى أي مواطن عادي من دون أن يكون الورق أحد موضوعات الحديث، وقل أن تجد أمة تحترم الورق كاليابان حيث نشأ فن صناعة الواشي WASHI، وهو الورق المصنوع باليد الذي يتحدى عوادي الزمن. فالخطاطون مازالوا ينكبون على صفائح الواشي العاجية اللون يتفننون بخطوطهم عليها. وتحمي فتيات الجيشا جلودهن من وهج الشمس بمظلات مصنوعة من ورق الواشي، والأولاد يلهون بتطيير





طائرات ورق الواشي الملونة. وتحدثني كيوكو إيبه KYOKO IBE إحدى الفنانات ممن التقيتهن في مدينة كيوتو عن الشوجي SHOJI، وهو ورق شفاف تغطى به النوافذ في البيوت التقليدية في اليابان، وفي حديثها الكثير من التفاخر: «لقد ولدنا في بيت من الورق، وهذا يجعلنا نحافظ على مشاعرنا السليمة. وقد لا نراك وأنت وراء الشوجي، ولكننا نميّز ما تفعله فيما إذا كنت من ذوي الحيوية والنشاط أم لا».

أشارت كيوكو إلى قطعة طويلة من ورق الواشي تغطي شباك مرسمها، وكانت أشعة الشمس حينها قد سخنت وجعلت قطعة الورق لينة بمرورها عبر الواشي داخل الغرفة، ثم قالت: «تكون أفضل حالات الورق حينما يقع بين العين والضوء، أستطيع أن أستشعر الحياة التي تسكن الألياف لا بل أسمعها أحيانًا. وربما يعود ذلك إلى شرايينا وأوردتنا، ذلك أننا من نسيج مترابط لا يختلف عن ألياف الورق».

وهنا لمستُ خيبة أمل في نبرة صوتها وهي تقول: «إن غالبية الناس في الوقت الحاضر لا يعني الورق شيئًا بالنسبة إليهم، وكل ما يفعلون حياله هو رميه في سلّة المهملات».

بدت قرية كوروداني KURODANI الجبلية التي لا تبعد كثيرًا عن كيوتو والتي يشتهر أهلها بأنهم صناع للورق مغلقة على ما حولها لوضعها الذي لا يتغير بسفوحها المنحدرة الخضراء لكثرة أشجار المشمش والخيزران، تشمخ فوق القرية وتظلل بيوتها الخشبية الصغيرة.



سحر الورق يجذب الباحثين عن الثقافة

حسرة!!

في يوم من الأيام صحبني كيوشي فاكودا FAKUDA رئيس التعاونية لصنّاع الورق في جولة زرنا فيها وشهدنا دكاكين صغيرة كان العمال فيها يحركون عجينة لبّ الخشب،

ترجمة: أدهم شاكر عضيمة



دعاة المحافظة على البيئة يحذرون من الآثار السلبية لصناعة الورق

ويصنعون منها صفائح من الورق، ثم يعلقـونهـا على ألـواح من الخـشب الرقيق، وينتظرونهـا ريثـمـا تجف. ويقول لي فـاكودا: «إن كل ما تشهده من نشـاط هو مـحض تضليل لأن شـبـاب اليوم ينظرون إلى صـنـاعـة الورق على أنه عـمـل يحط من القدر الاجتـمـاعي، وكلهم يتطلعـون إلى العـمـل في المدينة». قـال ذلك وهو يرمي ببـصـره بعين ملؤها الحـسـرة على دكاكين الوراقين الصغيرة حيث تحـافظ أيد قليلة على التـقـليـد القـديم وتبقيه حياً.

منذ مـدة لا تزيد علـى العـشـرين عـامـا كـانت هناك ٩٠٠ بـيت من البـيـوت اليـابانيـة تقـوم بصنع ورق الواشي، واليـوم يقـتـصـر العـدد على ٣٦٠ فـقط. ويـقـول فـوكـودا: «لدينا اليـوم عشـرون فـقط من هذه البـيـوت تقـوم بصنع الـورق الجـيـد. ودائمـا أوضح للجـيل الجديد أن حـرفة كـهذه هي حـرفـة رائعـة وعـريقـة وعلينا الحفاظ عليها».

لم أعـد استغرب مبلغ الحـمـاسـة التي يبديها الناس أمثال فوكـودا لهذه الوسيلة البسيطة، وأجـد نفسي أحيانًا أرفع صـفحـة من الورق نحو الضـوء مـتـفـحـصـا مـا فـيـهـا من شـوائب أو عـوالق، ومـا أتفـحـصـه من ورق مـصنوع عـادة من ألياف الشـجـر أو القطن أو الكتان أو لحاء الشجيرات.

طلـبت من فــوكــودا أن يعلمني حرفته المدهشة. بدأ ذلك بأن وقف إلى جانبي في ورشة للورق في كوروداني يسـاعـدني على التـعـامـل مع قـالب الورق. وبعد أن خرجت أول شريحة من بين يدي قـال سـاخـرا: «إن أول شـريحـة صنعـتـهـا أنا لم تكـن بهـذا السوء». قلت له: «دعني أحـاول مرة أخـرى» والثقـة تملأ نفسي هذه المرة. نجحت في وضع الأليـاف على نسق واحد هذه المرة بلا مـسـاعـدة. خرجت شريحـة أخرى، ولكنها كـانت ملطخة تتماوج ألوانها كألوان فراشة. قلت له: «دعني أحــاول مـرة أخـيــرة». لم يعطني فـوكودا مـا أردت سمـاعـه بل أومأ برأسـه عـلامـة علـى الموافـقـة، فـأدركت أن تلك العـراقـة التي للورق في اليـابان لا يمكن تعـلمـهـا في يوم وليلة.

بإذن خاص لمجلة «الفيصل» من NATIONAL GEOGRAPHIC، عدد مارس ١٩٩٧م، ص (٨٨-١٠٩)
By Jon R. LUOMA
Photographs by Sisse BRIMBERG
Translated with permission from NATIONAL GEOGRAPHIC Magazine
Vol. 191, No. 3, MARCH 1997

جهود العلماء العرب في الدراسات الشرعية في خُراسان

عبدالرحمن الفريح
حائل - السعودية

نزل خُراسان بعض الصحابة، فأثبت أصحاب الطبقات أسماءهم في مقدمة من يؤخذ عنهم العلم في تلك البلاد(١). وترجم المصنفون لساكني خراسان هؤلاء، فذكروا الصحابي الجليل الحكم بن عمرو بن مجدع ابن حذيم بن حلوان بن الحارث بن ثعلبة بن مُليلٌ بن ضمرة، غفاري، كناني مُضري، عدناني(٢) تأمّر في خُراسان، ومات عام ٥٠ للهجرة وهو والٍ عليها(٣)، وأثر عنه - رضي الله عنه - الشدة في الحق، والصلابة في التمسك به، حتى كانت لا تأخذه به لومة لائم(٤).

وذكروا الصحابي الجليل بُريدة بن الحُصيب بن عبدالله بن الحارث بن الأعرج بن سعد بن رزاح بن عدي بن سهم بن مازن بن الحارث الأسلمي من المضرية العدنانية(٥).

وهو من المهاجرين الأولين ممن هاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم قبل قدومه المدينة، ولحق به، فلمّا أراد النبي صلى الله عليه وسلم دخول المدينة، قال بُريدة: لا تدخل المدينة إلاّ ومعك لواء، ثم حمل عمامته، وشدها في رمح، ومشى بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم يوم قدومه المدينة(٦). كنيته أبو سهل، وقيل: أبو ساسان، انتقل إلى البصرة، وأقام بها زماناً، ثم خرج إلى سجستان فبقي بها مدة، وبها عقبه، قال البستي: وقبره بـ «مرو» مشهور يُعرف، بجنب قبر الحكم الغفاري(٧).

وورد أيضاً ذكر قريط بن أبي رمثة من بين الصحابة الذين استوطنوا خراسان، وهو ممن هاجر مع أبيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي رمثة: أبنك هذا؟ قال: نعم، قال: أما إنه لا يجني عليك ولا تجنى عليه، ثم خرج أبو رمثة بابنه قريط إلى البحرين مع العلاء بن الحضرمي في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقام بها إلى أن خرج غازياً في أيام عمر، وقريط هو الذي فتح «الأُبُلّة»، ثم غزا خُراسان مع الأحنف بن قيس، ونزل «مرو»، واستوطنها إلى أن مات، وبها عقبه(٨).

وترجم البُستي لقيس بن سعد بن عبادة مع الصحابة نزلاء خراسان، وقيس خزرجي يُكنى بأبي القاسم، خدم النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين من وقت قدومه المدينة إلى أن قبضه الله إلى جنته، وشارك في حرب صفين مع علي بن أبي طالب، وكان على مقدمة جيشه، وقيل: إنّ معاوية بن أبي سفيان طلبه في عام ٥٨م، فاندس في «تفليس» إلى أن مات عام ٨٥هـ في خلافة عبدالملك بن مروان(٩).

وترجم للصحابي قُثم بن العباس بن عبدالمطلب أيضاً، وعدّه من الصحابة المجاهدين في خراسان، إذ خرج مع سعيد بن عثمان بن عفّان واستشهد ببلاد ما وراء النهر بـ «سمرقند»(١٠). وأشار البستي إلى أن هناك من زعم أن قُثم بن العباس مدفون في «مرو»(١١) وفيما عدا هذا الزعم الذي أشار إليه البستي فإن الروايات تذكر أن استشهاده كان في «سمرقند»(١٢).

وورد في كتاب «الطبقات» لابن خياط أنّ أبا بُرزة الأسلمي معدود من الصحابة الذين نزلوا خراسان، وماتوا بها، واسم أبي بُرزة نضلة بن عبدالله بن الحارث بن حبال بن أنس بن خُزيمة بن مالك بن سلامان بن أسلم، نزل البصرة، وأتى خراسان، فمات بها(١٣).

كما ورد في طبقات ابن خياط اسم عبدالرحمن بن يعمر، صحابي من بني الدئل بن بكر نزل الكوفة، وأتى خراسان، فمات بها(١٤).

وورد في جمهرة النسب في تعداد بني معاوية بن قُشير أنّ منهم: حيدة بن حيدة بن

معاوية بن قشير(١٥)، قال هشام: أخبرني أبي أنه أدركه بخراسان، وابنه وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال محمد: إنما أدرك ابنه بخراسان(١٦).

وذكر ابن حزم في ترجمة حيدة أنه بن معاوية بن حيدة بن قشير له صحبة: وابن ابنه بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة، روي عنه(١٧).

وكما حظيت خراسان بنزول عدد من الصحابة في أرضها فقد حظيت بعدد من التابعين، وهم أكثر من الصحابة، سماهم ابن خياط الطبقة الأولى في خراسان، وعدّ منهم يحيى بن يعمر القطفاني، من أهل البصرة، وزيد بن علي أبو القرمص، وعبدالله وسليمان ابني بريدة بن حصيب، وأبو مجلز لاحق بن حميد السدوسي(١٨).

ويحيى بن يعمر ليس من غطفان كما ذكر ابن خياط، فهو عدواني من بني شقة بن عوف بن بكر بن يشكر، وعدوان تلتقي مع غطفان في قيس عيلان المضرية العدنانية، وقد وردت سلسلة نسب يحيى في كثير من المصادر مثل الطبري(١٩)، والبستي(٢٠)، وابن حزم(٢١).

ومن طريف ما يروى عن يحيى بن يعمر أنه كتب ذات مرة: «إنّا لقينا العدو فمنحنا الله أكتافهم، فقتلنا طائفة، وأسرنا طائفة، ولحقت طائفة برؤوس الجبال وعراعر الأودية وأهضام الغيطان وأثناء الأنهار» ووقع الكتاب يزيد بن المهلب - والي خراسان - وأرسله إلى الحجاج في العراق فقال الحجاج: من يكتب ليزيد؟ فقيل يحيى بن يعمر، فكتب إلى يزيد أن ينفذه إليه ففعل، ولما قدم يحيى بن يعمر على الحجاج سأله عن أناس سماهم له وهل يلحنون؟ فأجاب: نعم فقال الحجاج، وأنا، قال: وأنت أيضاً تلحن لحناً خفياً تزيد حرفاً وتجعل أنّ في موضع إنّ، وإنّ في موضع أنّ، وعندها غضب الحجاج فأعاد يحيى إلى خراسان(٢٢).

ومع تبصر يحيى بالعربية وتعمقه فيها فقد كان علماً فقيهاً محدثاً تولى قضاء «مرو» لقتيبة بن مسلم، وكان من أوعية العلم وحملة الحجة، روى عن عدد من الصحابة كأبي هريرة، وعمار بن ياسر، وابن عباس، وابن عمر، وأبي ذر الغفاري، وحدث عنه عبدالله بن بريدة، وقتادة، وعطاء الخراساني، وسليمان التيمي(٢٣).

وتلمذ ليدي يحيى ونقل عنه عدد من الفقهاء والمحدثين أشهرهم ابن عقيل الحذاء، من أهل البصرة وسكن «مرو»، وهو معدود في التابعين سمع ابن أبي أوفى يقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الذكر ويقل اللغو ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة ولا يأنف أن يمشي معه المسكين والأرملة فيقضي له حاجته(٢٤).

ومن التابعين الذين عرفوا بخراسان عدا من ذكر ابن خياط الزبير بن عدي الهمداني، أبو عدي، ولد بالكوفة، وسمع عن أنس بن مالك، وهو من العبّاد الزهاد، لكن أخباره فيها شيء من المناكير، وذكر البستي أنّ كل ما في أخباره من المناكير فهي من جهة بشر بن الحسين الأصبهاني(٢٥).

ومنهم أيضاً عطاء بن السائب الليثي الكناني المضري، من أهل المدينة، مسح علي بن أبي طالب رأسه وقال: بارك الله عليك وعلى ذريتك من بعدك، سكن مرو(٢٦) وولد له بها ابن فسماه محمداً ولمحمد ابن يقال له: السائب وللسائب ابن يقال له عطاء، عدادهم كلهم في أهل «مرو»(٢٧).

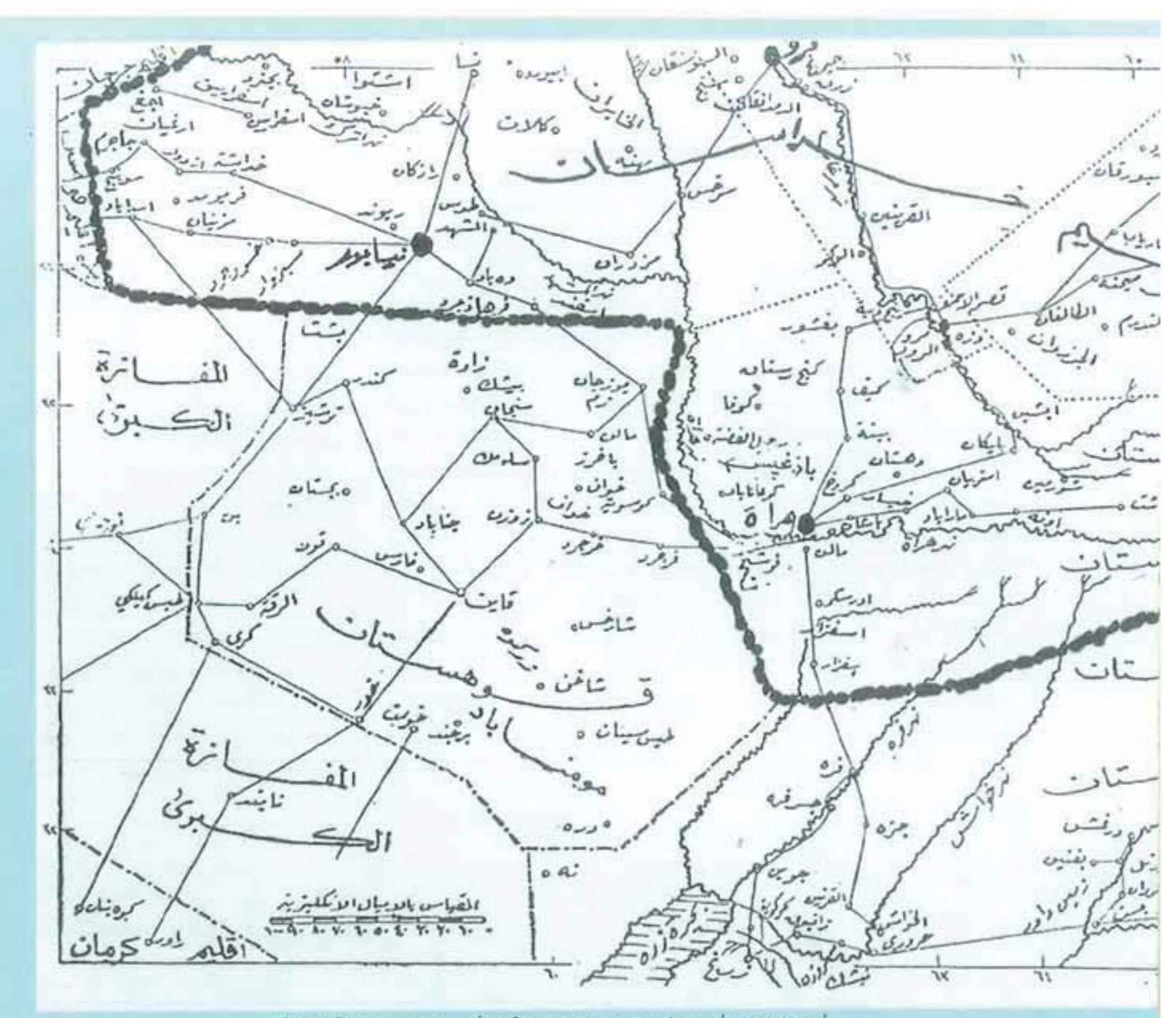
ومنهم همام بن خناس العبدي الربعي، انتقل إلى «مرو» من البصرة، وأخذ العلم من عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فاستفاد وأفاد(٢٨).

وممن سكن «مرو» من التابعين الربيع بن أنس بن زياد البكري، أخذ العلم من أنس بن مالك، وكان راوية لأبي العالية الرياحي التميمي، ودخل أخباره بعض المناكير، ذكر البستي أنها من جهة أبي جعفر الرازي(٢٩).

وعدّ البستي(٣٠) الربيع بن زياد الحارثي، والي خراسان(٣١)، من مشهوري التابعين، ونقل أنه سمع من أبي بن كعب وغيره من الصحابة.

وعرف خراسان وبلاد ما وراء النهر بعدد من مشهوري أتباع التابعين، الثقات والأثبات في الروايات، وهم الطبقة الثانية عند ابن خياط، وقد عد ابن خياط منهم: يعقوب بن القعقاع ونسبه إلى بني تميم(٣٢)، والحق أنه من الأزد من بني الأعلم اليمانيين، كانت أخته الجنوب بنت القعقاع زوجة للحسن بن العمرطة أمير «سمرقند» في عام ١٠٦هـ، والحسن من بني آكل المرار الكنديين الكهلانيين اليمانيين، وقد ولي يعقوب قضاء «مرو» ذكر ذلك الطبري حينما تحدث عن إمارة ابن العمرطة في سنة ١٠٦هـ(٣٣)، وذكر البستي أيضاً أن أبا مسلم الخراساني ولّى يعقوب قضاء «مرو»(٣٤).

ومن بين أتباع التابعين اشتهر الضحاك



أرباع خراسان وأهم مواطن استقرار القبائل العربية (نقلاً من كتاب بلدان الخلافة الشرقية)

بن مُزاحم الهلالي العامري القَيْسي وهو صاحب مدرسة كبيرة يتعلم فيها الصبيان بلا مقابل، ولم يقتصر علم هذه المدرسة على بلد معين في خراسان وبلاد ما وراء النهر، فقد كان الضحاك يتنقل باستمرار بين «بلخ» مسقط رأسه و«بُخارى» و«سمرقند» و«مرو» مع عناية شديدة بعلم القرآن، واحتساب في تعليمه.

وذكر البُستي أنَّ الضحاك لم يسمع من ابن عباس ولا من أحد الصحابة شيئاً، ورواية أبي إسحاق السبيعي عن الضحاك قال: قلت لابن عباس: وهم فيه شريك، كيف يقول لابن عباس ولم يره؟ وإنما لقي سعيد بن جُبير بـ «الريّ»، فأخذ عنه التفسير(٣٥).

وجلُّ أتباع التابعين في خراسان أخذوا علومهم عن التابعين فالضحاك أخذ عن سعيد بن جبير، وأصبغ بن علقمة أخذ عن سعيد بن المسيب، ومحمد بن زيد العبدي أخذ عن الاثنين معاً، وعبدالمؤمن الحنفي أخذ عن عبدالله بن بُريدة الأسلمي(٣٦).

وقد وصف أصبغ بن علقمة، وهوحنظلي تميمي، بأنه من خيار المشايخ المعلمين بـ «مرو»(٣٧) كما كان محمد بن زيد العبدي الربعي من القضاة المشهورين سكن «مرو»، وتولى قضاءها، وروى عنه المصريون والمراوزة(٣٨)، ومثله في صدق الحديث عبدالمؤمن بن خالد الحنفي الربعي(٣٩)، إذ كان متقناً ثبتاً(٤٠).

ويلاحظ أنَّ علم العلماء العرب في خراسان وبلاد ما وراء النهر لم يقتصر على أهل تلك البلاد، بل تعداها إلى ما سواها من الأقاليم، فالمصريون مثلاً ينقلون عن محمد بن زيد، وأهل العراق ينقلون عن عمر بن سالم الأنصاري قاضي «مرو»، وعن وسيم بن جميل الثقفي، وجوّاب التيمي(٤١).

وقد أصبحت البلدان الخُراسانية وحواضر بلاد ما وراء النهر مدارس علم يقصدها الناس من شتّى الأصقاع للنهل من سائر العلوم والمعارف، واشتهر كثير من المحدثين وأصحاب الفتيا والتعليم بعدم استقرارهم في بلد معين من تلك البلاد فكان ذلك فرصة لنشر العلم في نواحٍ ومناطق متعددة، وقد عرف بذلك الضحاك بن مزاحم كما تقدم، ومثله في هذا الأسلوب والنهج كثير بن زياد السلمي

البرسائي الأزدي صاحب الحسن البصري، الذي كان يحدث في «بلخ» مدة من الزمن ثم ينتقل إلى «سمرقند» فـ «بخارى» وهكذا(٤٢)، ومثلهما منصور اليشكري الربعي أبو حفص صاحب أبي مجلز وعكرمة، فقد كان يحدث في «مرو» وفي خراسان وفي «بخارى» ببلاد ما وراء النهر(٤٣).

ومن الثقات المأمونين بخراسان عمرو بن مُصعب، أول مولود بـ «سرخس» في الإسلام، وكان أبوه من أصحاب علي رضي الله عنه، وله أخ يدعى خارجة، ذكره ابن خياط في الطبقة الثالثة من أهل خراسان(٤٤)، وضعفه البُستي(٤٥).

ومن مشهوري من اجتهدوا في نشر العلم سليمان بن عامر بن عُمير الكندي البِرزي، من أهل «مرو»، قال: سمعت الربيع بن أنس يقول: من استطاع منكم أن يكون له في مدينة «مرو» دار فيها بئر طحانة فليفعل، والنضر بن زُرارة الذهلي البكري الربعي، من أهل «بلخ» مستقيم الأمر في الحديث، وأبو طيبة عيسى بن سليمان الدارمي التميمي(٤٦).

وقد انقطع بعض العلماء العرب إلى العبادة، وشهروا بالتجرد من ملاذ الدنيا والتقشف، وأثر ذلك عن أحد الأزديين الذي كان يرفض ما يجود به الوالي عليه(٤٧)، وهو شبيه بذلك بإبراهيم بن أدهم التميمي، زاهد خراسان الشهير(٤٨)، وقريبًا من نهجهما عاش كُرز بن وبر الحارثي، المتعبد الزاهد(٤٩).

وبالإضافة إلى جهود العلماء العرب في نشر العلم الشرعي وتعليمه كان لأهل البلاد الأصليين إسهام كبير في العناية بعلوم القرآن وبثها بين الناس في البلدان الخراسانية ومدن ما وراء النهر وغيرها.

ومن هؤلاء جبلة بن أبي روّاد مولى العتيك الأزديين اليمانيين المقتول بـ «نيسابور» في عام ١٣١هـ(٥٠)، وحسين بن واقد مولى عبدالله بن عامر بن كُريز القرشي، قاضي «مرو» المتوفى في عام ١٥٩هـ، والفضل بن عطية المروزي ـ مولى بني عبس(٥٢)، وعبدالله بن المبارك مولى بني حنظلة التميميين، أحد الأئمة فقهًا وورعًا وعلمًا وفضلًا وشجاعة ونجدة، ممن رحل وجمع وحدث، وحفظ وذاكر ولزم الورع الخفي والصلابة في الدين(٥٣).

ومع توالي الأيام توالت جهود علماء خراسان العرب في الدراسات الشرعية فنبغ جهابذة العلم من أمثال: المسيب بن شريك التميمي المتوفى في عام ١٨٥هـ(٥٤)، الذي سمع الحديث بخراسان، وقرأ القرآن، ودرس الفقه واللغة(٥٥)، والنضر بن شميل المروزي المازني التميمي المولود في عام ١٠٤هـ(٥٦)، وصاحب التصانيف الكثيرة في الحديث واللغة والأدب(٥٧).

الهوامش والمراجع

١. خراسان هي الأرض المحصورة بين نهر جيحون شمالًا وسجستان وجبال الهندوكوش جنوبًا ويحدها من الغرب المفازة وقوهستان فاصلة بينها وبين إقليم فارس ومن الشرق صحراء الصين والبامير وسجستان ومن الشمال الغربي طبرستان وجرجان وخوارزم، وخراسان قديمًا أرباع أربعة هي: نيسابور وتقع في إيران الآن، وهراة وبلخ وتقعان في أفغانستان، والعاصمة مرو وتقع في التركمنستان.. ويأتي نهر جيحون حدًا طبيعيًا بين خراسان وبلاد ما وراء النهر، ومن أشهر بلاد ما وراء النهر سمرقند وبخارى وتقعان في أوزبكستان الآن.

٢. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ١٨٦.

٣. ابن الأثير: الكامل، ج٣، ٢٤٣.

٤. البستي: مشاهير علماء الأمصار، ٦٠.

٥. انظر ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ٢٤٠.

٦. علق على هذا الدكتور محمد جبر أبو سعدة قال: هذا الجزء من الخبر غريب، ولم أجده في كتب السيرة جميعًا قديمها وحديثها، وبصفة خاصة لم أعثر عليه في كتاب السيرة النبوية لابن حبان البستي.

٧. سئل بريدة الأسلمي عن رأيه في عثمان وعلي وطلحة والزبير فقال: قوم سبقت لهم سوابق فإن يشأ يغفر لهم بما سبق لهم وإن يشأ يعذبهم بما أحدثوا فعل، حسابهم على الله، فعد بذلك من المرجئة الأولى الذين يرجون عثمان وعليًا ولا يشهدون بإيمان. انظر البستي مشاهير علماء الأمصار، ص٦٠. والمصري: أثر أهل الكتاب في الفتنة والحروب الأهلية، ٥٣٤.

٨. البستي: مشاهير علماء الأمصار، ٦١، وأبو رمثة من بلي من قضاعة انظر ابن الأثير: الكامل، ج٣، ٤٧.

٩. البستي: مشاهير علماء الأمصار، ٦٠.

١٠. ابن الأثير: الكامل، ج٣، ٢٠٠، ٢٥٣.

١١. البستي: مشاهير علماء الأمصار، ٦١.

١٢. وفي «سمرقند» مزار لقثم بن العباس، انظر إحسان حلوصي: الطريق إلى سمرقند، ٨٧.

١٣، ١٤. ابن خياط: الطبقات: ٢١٧.

١٥. الكلبي: جمهرة النسب، ٢٥٤.

١٦. هشام هو ابن محمد السائب الكلبي صاحب الجمهرة. انظر الكلبي جمهرة النسب، ٢٩٠.

١٧. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ٢٩٠.

١٨. ابن خياط: الطبقات، ٢٥٧. وأبو مجلز السدوسي ممن زكي عند عمر بن عبدالعزيز حينما سأل عن ثقات أهل خراسان، وقبل ذلك ولاه وكيع بن حسان بن أبي سود أمر «مرو».. ابن الأثير: الكامل، ج٤، ١٥٨، والبلاذري: فتوح البلدان، ٤٦٣.

١٩. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ٣٩.

٢٠. انظر البستي: مشاهير علماء الأمصار، ١٢٦.

٢١. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ٣١٠.

٢٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ٣٩.

٢٣. الذهبي: الأمصار ذوات الآثار، ٨١.

٢٤. البستي: مشاهير علماء الأمصار، ١٢٦.

٢٥. وكانت وفاته في عام ١٣١هـ انظر البستي: مشاهير علماء الأمصار، ١٢٦.

٢٦. وكان على الشرطة أيام أمية بن عبدالله، انظر ابن الأثير الكامل، ج٤، ٧١.

٢٧، ٢٨، ٢٨، ٢٩، ٣٠. البستي: مشاهير العلماء والأمصار، ١٢٦.

٣١. ابن الأثير: الكامل، ج٣، ٢٤٥.

٣٢. ابن خياط: الطبقات، ٣٠٤.

٣٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ١٩٨.

٣٤. البستي: مشاهير علماء الأمصار، ١٩٥.

٣٥. البستي: مشاهير علماء الأمصار، ١٩٧. وتوفي الضحاك في عام ١٠٢هـ أو ١٠٥هـ. انظر والزركلي: الأعلام ج٣، ٢١٥.

٣٦. البستي: مشاهير العلماء والأمصار، ١٩٧.

٣٧، ٣٨. البستي: مشاهير العلماء الأمصار، ١٩٨.

٣٩. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ١٩٦، ج٩، ٤٧.

٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣. البستي: مشاهير العلماء والأمصار، ١٩٨.

٤٤. ابن خياط، الطبقات، ٣٠٦.

٤٥. انظر البستي: مشاهير العلماء والأمصار، ١٩٨.

٤٦. أخبارهم في البستي: علماء الأمصار، ١٩٨.

٤٧. أصاب يزيد بن المهلب تاجًا فيه جواهر فقال: أترون أحدًا يزهد في هذا التاج؟ قالوا: لا، فدعا محمد بن واسع الأزدي وقال: خذ هذا التاج فرفض، فلما عزم عليه أخذه وتصدق به. انظر الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ١٣٥.

٤٨. ابن كثير: البداية النهاية، ج١٠، ١٤٠.

٤٩، ٥٠. انظر البستي: مشاهير علماء الأمصار، ١٩٩.

٥١. الذهبي: الأمصار ذوات الآثار، ٨٤.

٥٢. البستي: مشاهير علماء الأمصار، ١٩٩.

٥٣. الذهبي: الأمصار ذوات الآثار، ٨٤، البستي: مشاهير علماء الأمصار، ١٩٩، وقد توفي عبدالله بن المبارك في عام ١٨١هـ انظر حسين حسن: أعلام تميم، ٣٧٣.

٥٤. هو المسيب بن شريك بن مخرمة من الشقرات من بني تميم من مواليد خراسان. الكلبي: جمهرة النسب، ١٩٢.

٥٥. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ٢١٣، وذكر صاحب أعلام تميم أن المسيب بن شريك توفي عام ١٨٦هـ انظر حسين حسن: أعلام تميم، ٣٥٤.

٥٦. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ٢١١.

٥٧. ابن الأثير: الكامل، ج٥، ١٩٥، ٥٢، ويلاحظ أن كثيرًا من علماء خراسان في عصر بني أمية وبعده جمعوا بين الفقه والحديث والأدب، وذلك كإسحاق بن راهويه المروزي الحنظلي التميمي المتوفى في عام ٢٣٨هـ. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ١، ٦٤. وانتشرت المذاهب الإسلامية في تلك البلاد، فغلب المذهب الحنفي عليها، ثم انتشر المذهب الشافعي وخصوصًا في منطقة «الشاش» ببلاد ما وراء النهر، انظر الذهبي: الأمصار ذوات الآثار، ٩٤.

توظيف الأسطورة في الرواية العبرية الحديثة

محمد محمود أبو غدير
القاهرة - مصر

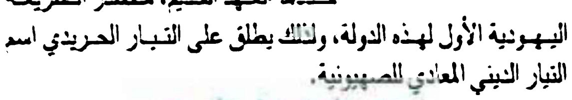
يُعرِّف العلماء الأسطورة بأنها العمل الخارج عن المألوف والخارق للعادة في صفات الإنسان والحيوان والطير والجن، وهي تفسر أسرار الحياة والكون في أسلوب قصصي يدور حول التقاليد والعقائد الدينية والاجتماعية. وعاشت الأسطورة مع الإنسان القديم يستودعها أحلامه وتشوقه إلى الأسرار التي تحرك حياته، مثل أسرار الميلاد والوفاة، وخوارق الطبيعة، ومصادر الخير والشر.

كما تتحدث الأسطورة عن علة الخلق الإنساني، وعلة الظواهر الطبيعية، وتفسر لنا الأسرار الخافية وراء الكون. وغالباً ما تتألف أساطير العالم القديم من قصص الآلهة والأبطال من حيث مولدهم وموتهم، وحبهم وبغضهم، ومؤامراتهم، وانتصاراتهم وهزائمهم، وأعمال الخلق والتدمير. وهي تختلف فيما بينها بما يتفق وتاريخ الشعب الذي أنتجها وحضارته ومزاجه وخلقه(١). ويدين الفكر الإنساني وكذلك الكتابات العبرية بالشيء الكثير للأسطورة اليونانية الرومانية(٢). كما استمد العهد القديم الشيء الكثير من أساطير شبه الجزيرة العربية التي كانت بالنسبة إليه المعين الغزير الذي أخذ منه قصصاً متعددة، مثل قصة الخلق والطوفان والغواية التي يرجع عهدها في الجزيرة العربية إلى ثلاثة آلاف سنة أو نحوها قبل الميلاد. كما أخذ العبريون بعض الأساطير من الأدب السومري القديم الذي كان منتشراً في جميع مناطق الشرق الأدنى(٣).



توظيف الأسطورة واقع متأصل في الفكر اليهودي

ويتفق ظهور الأساطير والخرافات في الكتابات العبرية مع طبيعة الديانة اليهودية ذاتها التي من أهم صفاتها أنها ديانة أسطورية تفسر أحداث التاريخ تفسيراً أسطورياً، وتوظف الأسطورة والخرافة لخدمة الأهداف الدينية والسياسية؛ ولذلك تقوم الديانة اليهودية في عقائدها على مجموعة من الأساطير مثل أسطورة الاختيار الإلهي لبني إسرائيل، وأسطورة نقاء الدم اليهودي، وأسطورة الوعد الإلهي، بل الوعود الإلهية المتكررة والمقطوعة بين الرب والشعب، وأسطورة أرض الميعاد المرتبطة بأسطورة العهد؛ لأنه عهد بالأرض أو وعد بالأرض، ولذلك سميت أرض الميعاد. وهناك أيضاً عقيدة المسيح المخلص الذي يعود إلى بيت داود وله مواصفات بطولية معينة. وقد ظهرت هذه العقيدة بعد سقوط مملكة داود وسليمان عليهما السلام التي حددت للمسيح المخلص وظيفة سياسية، وهي إعادة إنشاء المملكة في المستقبل على يد مسيح مخلص له صفات أسطورية(٤) يقوم بجمع الشتات اليهودي وإعادة بناء الهيكل. وانطلاقاً من هذا الاعتقاد رفض تيار يهودي واسع (وهو ما يسمى بالتيار الحريدي) قرار المؤتمر الصهيوني الأول بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين انطلاقاً من المخطط الذي وضعته الحركة الصهيونية الهرتسلية؛ لأنها حركة علمانية أولاً؛ ولأن إنشاء دولة من دون ظهور المسيح المخلص يعني استعجال النهاية، وإقامة الدولة بغير الشروط التي حددها العهد القديم، مصدر الشريعة اليهودية الأول لهذه الدولة، ولذلك يطلق على التيار الحريدي اسم التيار الديني المعادي للصهيونية.



مصادر الأسطورة في الأدب العبري

ولما كان الأدب العبري القديم قد نشأ في بيئة ازدهرت فيها فكرة تعدد الآلهة وظهر فيها من الشخصيات الإنسانية من ارتقى إلى درجة الألوهية، ونسبت إليه الأعمال التي لا تنسب إلا إلى الآلهة، فقد برزت

في عدد من قصص هذا الأدب، كما وردت في العهد القديم، صورة الإنسان الأسطوري أو شبه الأسطوري الذي يحمل بعض الصفات الخارجة عن إطار البشر. ولكن مع ظهور فكرة التوحيد في العهد القديم وإذ أصبح الإله الواحد هو الإله المسيطر على حركة الطبيعة وعلى التاريخ وعلى الإنسانية كأحد مخلوقاته؛ فقد أصبحت الإرادة الإنسانية خاضعة للإرادة الإلهية وأصبح الفعل الإنساني عاديا كان أم خارقا للعادة من تدبير القوة الإلهية. وبدأ العهد القديم يعطينا صورة جيدة للبطولة وللصراع مع الآخرين تختلف عما ورد في الأساطير القديمة، وإن تأثرت بها بطبيعة الأمر في عدة جوانب. فالشخصيات البطولية في العهد القديم ليست من الآلهة أو من أنصاف الآلهة، كما وجدنا في الأساطير السومرية أو المصرية القديمة؛ بل هي أناس من لحم ودم، ولدوا وعاشوا وماتوا مثل سائر البشر، ولهم صفاتهم ونواقصهم، ولهم بطولاتهم ولديهم نقاط ضعف أيضا. والبطولة في العهد القديم ليست قاصرة على البطولة الجسمانية فقط ولا على مجابهة الأخطار عن طريق القيام بأعمال خارقة للعادة؛ بل قد تشمل الصبر على الآلام والمحن، مثلما ورد في قصة أيوب. كما استمد الأدب العبري الحديث في تناوله لمفهوم الصراع الشيء الكثير من الأساطير والأعمال الخارقة للعادة التي ورد ذكرها في قصص العهد القديم وفي أساطير العالم القديم أيضا. ولاتساع رقعة الأدب العبري الحديث وامتداده فترة زمنية تزيد على القرنين - فمن المعروف أن هذا الأدب ظهر في أوربا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر - ولتنوع الأشكال الأدبية العبرية التي تناولت هذه الأفكار الأسطورية فسنقتصر في هذه الدراسة على شكل واحد فقط من أشكال الأدب العبري وهي الرواية.

صورة البطل في بدايات الرواية العبرية تأثرت بأساطير العهد القديم والأساطير اليونانية

أولا: توظيف الأسطورة في الرواية العبرية في فترة ما قبل قيام إسرائيل

- رواية «محبة صهيون» وفكرة الصراع وصورة البطل الأسطوري قبل هجرة اليهود إلى فلسطين:

إذا كانت الأسس التاريخية والدينية لفكرة الصراع، ومفهوم البطولة كما وردت في العهد القديم قد زالت بزوال دولة اليهود نهائيا على أيدي الرومان في عام ٧٠م، وتشتتهم في أرجاء المعمورة، إلا أنه حدث مع استقرار الجماعات اليهودية في البلدان الأوربية وتأثرها بالفكر الأوربي في عصر النهضة بخاصة فيما يتصل بالرفع من شأن الإنسان، وتأكيد حريته ومساواته بالآخرين، ومنحه كل الحقوق والواجبات، فقد تغيرت فكرة الصراع وتغيرت معها صورة البطل اليهودي في الكتابات العبرية. وأول رواية عبرية ظهرت في العصر الحديث في عام ١٨٥٢م في روسيا وهي رواية «محبة صهيون» للأديب إبراهام مابو (١٨٠٨ - ١٨٦٧م) تضمنت تصورا جديدا لفكرة الصراع، وعرضت لصورة البطل العبري المتأثرة بأساطير العهد القديم أساسا، وبالأساطير اليونانية ثانيا؛ ولذلك كانت هذه الرواية تاريخية تتناول فترة من التاريخ اليهودي القديم؛ ولذلك ذكر بعض النقاد أن مابو بعث بروايته هذه الحياة من جديد في القصة العبرية التي انزوت واختفت من الوجود منذ نهاية فترة العهد القديم(٥). ولأن الواقع اليهودي في أوربا في عهد مابو كان يفتقر إلى شخصية البطل اليهودي الذي يمكنه أن يحاكي في فنونه الشخصيات الأسطورية القديمة، فقد عاد المؤلف إلى الوراء، واختار فترة معينة في التاريخ اليهودي شهدت بعض الازدهار والتحرر الديني، وهي فترة الملك أحاز (حكم بين عامي ٧٣٥ق.م، و ٧٢٠ ق.م) متمثلا السيرة الذاتية لكثير من أبطال العهد القديم. فبطل هذه الرواية التاريخية واسمه أمنون بدأ حياته بالعمل في الرعي حيث كان يتنقل من مكان إلى آخر، مثل كثير من أبطال العهد القديم، ومنهم يعقوب وداود، وهو شجاع مثل شمشون، ولكن البطولة لديه جاءته بالمصادفة. فقد تصادف في أثناء مروره بين أشجار الكروم أن رأى أسدا يخرج من بين الأشجار الكثيفة ليهاجم قطيعا من الغنم. ويدخل البطل في صراع مع الأسد حيث ينجح في النهاية في القضاء عليه. وتبدأ مأساة هذا البطل حين يقع في أسر قوم من الأعداء يقومون بنقله إلى جزيرة كريت ليسجن هناك مع غيره من أبناء عشيرته. ولكن أمنون ليس على شاكلة أبطال الإغريق، بل هو بطل مأساوي يتقبل مصيره المرير، ولا يعمل من أجل تغيير وضعه والتغلب على ظروف الأسر. ومن الواضح تأثر المؤلف بالإطار العام لأسطورة مينوتاورس الإغريقية التي تتحدث عن عمل بطولي يقوم به بطل أثيني ضد أحد المخلوقات الأسطورية في جزيرة كريت، وسنتناوله فيما بعد. ولكن بطل مابو إنسان سلبي يتقبل وضعه، كأنه يجسد بذلك تقبل اليهود لأوضاعهم في أوربا الشرقية في عهد المؤلف، بما اكتنفه من مشكلات عدة لم تجد الشخصيات البطولية أو الشبيهة بالأبطال التي تعمل على إنهائها، ومن هنا بحث المؤلف عن بطل قديم ليعيد اكتشافه، ولكنه يخيب الآمال حين استسلم لمصيره في كريت بعيدا عن أهله وعشيرته.

- رواية «الثكل والفشل» وفكرة الصراع وصورة البطل اليهودي بعد الهجرة إلى فلسطين:

بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل في عام ١٨٩٧م دخل التاريخ اليهودي الحديث منعطفا جديدا يتمثل في العمل على تهجير أكبر عدد ممكن من يهود العالم إلى فلسطين التي اختيرت مكانا تقام عليه «الدولة اليهودية». وكانت هجرة جماعات من اليهود إلى فلسطين منذ بداية القرن العشرين خطوة تفصل بين مرحلتين من مراحل الأدب العبري الحديث، المرحلة الأولى التي تعرف بمرحلة أدب التنوير، وظهرت إلى الوجود منذ منتصف القرن الثامن عشر، وخلالها ظهرت أول رواية عرفها الأدب العبري الحديث هي رواية «محبة صهيون»،

والمرحلة الثانية التي تعرف باسم مرحلة أدب الإحياء القومي التي تبدأ منذ عام ١٨٨١م وتصل إلى ذروتها بانعقاد المؤتمر الصهيوني الأول، وتنتهي هذه المرحلة بالإعلان عن قيام إسرائيل ليبدأ في الأدب العبري الحديث ما يعرف بأدب الدولة. ولكن تهجير جماعات من اليهود إلى فلسطين بما فيهم كثير من الأدباء والمفكرين ورجال الصحافة والنشر لم يؤد كما ذكر المفكر اليهودي أحاد هعام - وهو زعيم التيار الروحي داخل الحركة الصهيونية - إلى اختفاء ما يعرف بالضائقة اليهودية التي من أجلها تقرر إقامة دولة لليهود على أرض فلسطين، ولم يؤد إلى اختفاء مشاعر الغربة والعزلة لدى اليهود. فقد تأكد أن اليهودي هاجر إلى فلسطين جسديا ولكنه ظل يعاني في فلسطين من المشاعر نفسها التي كان يعاني منها في الخارج. وتجيء رواية «الثكل والفشل» للأديب يوسف حاييم برنر (١٨٨١ - ١٩٢١م) الذي هاجر أيضا إلى فلسطين في الفترة نفسها لتؤكد أن اليهود الذين جاؤوا إلى فلسطين في هذه الفترة عانوا أيضا من أوضاع صعبة نجمت عن صعوبة التأقلم مع واقع الحياة الجديد في فلسطين، بالإضافة إلى مقاومة الشعب الفلسطيني لهم، وتصديه لمخططاتهم في بلاده. وكتبت هذه الرواية ونشرت في فلسطين في صورتها النهائية في عام ١٩١٧م، وعنوان الرواية يعكس في نظر النقاد فلسفة مؤلفها القائمة على تداول معاناة الإنسان اليهودي المغترب ضد نفسه وضد واقع المجتمع الجديد الذي نقل إليه. وتشكل الأسطورة التوراتية الإطار الخارجي للرواية حين عاد المؤلف إلى قصة أيوب كما وردت في العهد القديم، والتي تصل في التفاصيل التي وضعها مدونها إلى الأسطورة المأساوية المتكاملة، وإن كان بطلها ليس على شاكلة أبطال الإغريق؛ بل هو بطل مريض حقق مكانته بفضل صموده أمام بلواه وأمام المحن التي تعرض لها من دون أن يفقد ثقته في نفسه وفي ربه. وهكذا تعد الرواية تجسيدا للجو العام المحيط الذي سيطر على الكثير من اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين في أوائل القرن العشرين، وهو الجو الذي سيطرت عليه - كما ذكرنا - مشاعر الإحباط والإخفاق والثكل أيضا. والبطل الرئيس في الرواية هو مهاجر جديد يخفق في تحقيق هدفه وهدف الحركة الصهيونية أيضا في أن يتحول إلى فلاح يعمل في فلاحة الأرض وزراعتها، والتحول بذلك إلى عنصر منتج بدلا من الانشغال بمهن وحرف تستخدم العقل ولا تستخدم اليدين. ولذلك فقد أخفق في الأعمال التي كلف بالقيام بها في إحدى القرى اليهودية التي أنشئت حديثا، وانتهى به الأمر إلى أنه انهار في الحقل وخارت قواه إلى جانب إصابته بلوثة في عقله مما تطلب نقله إلى مدينة بعيدة في فلسطين للعلاج، وبعد محاولات علاجه جسمانيا ونفسيا انتهى به المطاف إلى الاستقرار في إحدى دور المسنين في القدس مكتفيا بتذكر الأيام السابقة الطيبة قبل هجرته إلى فلسطين، ويصف نفسه تبعا لذلك بأنه جاء إلى فلسطين ليتحول إلى ذبابة ضعيفة، وإلى قلب مريض. ولكن إذا كان أيوب قد استرد عافيته وصحته، وعادت له ثروته فإن بطل الرواية لم يصل إلى هذه النتيجة الطيبة، بل مات فقيرا معدما مريضا ليستحق بذلك لقب الإنسان الثاكل والفاشل، ومعه أيضا أبناء جيله.



انشغل الأدب العبري في السنوات الأولى لتأسيس إسرائيل بقضية التأقلم مع الواقع الجديد

ثانيا: توظيف الأسطورة في الرواية العبرية بعد قيام الدولة

كان من المتوقع أن يؤدي قيام إسرائيل إلى اختفاء المشكلات المادية والنفسية التي تحدث عنها اليهود كثيرا خلال تشتتهم في دول العالم. لقد انشغل الأدب العبري حقا في سنوات الدولة الأولى بالمشكلات الحياتية والاجتماعية والاقتصادية التي نجمت أساسا عن صعوبات التأقلم مع الواقع الجديد في الدولة بخاصة مع مجيء الهجرة الواسعة من الدول العربية، والإسلامية بتوجهاتها الفكرية التي تختلف عن تلك الخاصة باليهود الغربيين. كما ركزت الأعمال الروائية والقصصية على العمل على استيعاب هؤلاء المهاجرين وصهرهم في المجتمع الإسرائيلي الوليد، ولكن بمرور الوقت فترت الحماسة التي صاحبت



قيام الدولة، وظهر بحلول السنوات الأخيرة من الستينيات تيار جديد في الأدب العبري نشأ أساسا في مجالات الأدب والفن في أوربا في نهاية القرن التاسع عشر مناديا بتجاهل ضروريات المجتمع بسبب الاعتقاد بأن الحضارة الإنسانية مآلها إلى الانحطاط والانحلال. ولكن برزت أيضا أسباب إسرائيلية خاصة بالمجتمع الجديد ساعدت على تعمق هذا التيار، ومنها تصاعدت في الاقتصاد الإسرائيلي بسبب المقاطعة العربية، وتفجر خلافات شديدة داخل إسرائيل بين اليمين واليسار حول التعويضات الألمانية، مع أنها منعت انهيار الاقتصاد الإسرائيلي، بالإضافة إلى تصاعد الصراع بين الجيل القيادي القديم الذي أسس الدولة وعلى رأسه دافيد بن جوريون والجيل الشاب الذي نظرت قطاعات واسعة منه بخاصة تلك التي لم تشارك في الصراع الذي صاحب قيام الدولة أو الذي تفجر في سنوات سابقة عن ذلك إلى المشروع الصهيوني على أساس أنه مشروع لم يكلل جميعه بالنجاح، وأن إقامة دولة يهودية لم تكن أكثر من تجميع اليهود في جيتو ضخم محاط بالأعداء من كل جانب وينتظرون الفرصة المناسبة للانقضاض عليه. ولذلك اختفى في تلك الفترة من الرواية العبرية البطل اليهودي الجسور وحل محله البطل المهزوم أو (اللابطل) الذي أخفق في إيجاد سعادته في هذا المجتمع، ووجد الحل لمشكلاته النفسية والاجتماعية في النزوح إلى الخارج. وغلفت روايات كثيرة في تلك الفترة أبطالها بغلاف أسطوري خارجي يختلف عن الغلاف الأسطوري الذي شكل

خلفية للأبطال في الفترة السابقة التي استندت إلى أساطير أو قصص شعبية وردت في العهد القديم. أما البطل في الرواية العبرية منذ أواخر الستينيات فصاعداً فهو صورة عصرية للبطل اليوناني القديم، ولكن لا يماثله في الشجاعة والإقدام؛ بل هو صورة مشوهة منه، ولا يحمل سوى رغبة في تغيير وضعه، ولكن لا يقرن ذلك بالفعل والعمل. أي إنه استعار من البطل اليوناني القديم ما يدور فقط في داخله من رغبات، وما يعتمل في نفسه من تطلعات، ولكن لا يصارع من أجل ترجمة هذه الرغبات إلى خطوات عملية. ويبرز هذا التوجه في أسماء عدد من الروايات التي كتبت في ذلك الوقت مثل رواية « الحي الذي يعيش على الميت» للأديب أهرون ميجد الصادرة في عام ١٩٦٥م، ورواية «المرأة العظيمة التي تنتمي إلى الأحلام» للأديب يهو شواع كيناز الصادرة في عام ١٩٧٣م، ورواية «هاينز وابنه والروح الشريرة» للأديب أهرون ميجد الصادرة في عام ١٩٧٦م، ورواية «بعد أن شنقوني على المقصلة» للأديب عاموس كوليك الصادرة في عام ١٩٧٦م، ثم الرواية التي سنعرض لها في هذه الدراسة، وهي تحمل اسم مسخ يوناني أسطوري قديم وهي رواية «مينو - طاوور» للأديب المعاصر بنيامين تموز الصادرة في عام ١٩٨٠م. و«مينو طاوور» هذا هو الاسم العبري الذي حرف عن الاسم الأصلي للمسخ اليوناني «مينو تاورس» الذي كان له جسم إنسان ورأس ثور. وهذا المسخ أنجبته باسيفاي ابنة ملك كريت مينوس نتيجة علاقة غير شرعية مع ثور أرسله الإله أريس هدية إلى الملك مينوس. وقد أقام الملك مينوس قصرا ضخما فيه مجموعة من الممرات المتشابكة والمتقاطعة إذ إن كل من يدخله يضل طريقه ولا يخرج منه أبداً.

وفي هذا القصر المخيف حبس المسخ إلى أن قضى عليه بطل جاء من أثينا، ولكن بطل الرواية لا تربطه بالبطل الأسطوري الأصلي سوى الاسم فقط، أما هو فإنسان إسرائيلي محبط قرر النزوح عن إسرائيل، والتخلي عن ثرواته وزوجته وأولاده، والاستقرار في لندن حيث استغرق كل وقته في السعي وراء فتاة إنجليزية هام بها حباً، ولكنه حب من طرف واحد وعن بعد، إذ إن الصلة بينه وبينها كانت قائمة على إرسال خطابات غرامية لها من دون أن تراه ولكنه اكتفى بمتابعتها عن كثب. ويحاول البطل المحبط والنازح عن إسرائيل البحث عن سعادته التي فقدها في إسرائيل في مكان بعيد، كما حاول في نظر النقاد الإسرائيليين تصحيح الخطأ الذي ارتكبه والده حين هاجر من قبل إلى إسرائيل قادماً من موطنه الأصلي في أوربا، أي إن الابن يحاول إصلاح وضعه عن طريق الهجرة العكسية بعد أن اكتشف إخفاق التجربة الإسرائيلية، وتأكد إخفاقه شخصياً في التعايش مع وضعية المجتمع الإسرائيلي؛ ولذلك وجد أن التخلص من هذه المعضلة يتمثل في التمرد على وجوده الجسدي في إسرائيل والبحث عن جوهر روحي جديد في الخارج في صورة محبوبة أوربية يبثها غرامه وعشقه عن بعد. وخلال هذه المسيرة تطارده صورة المسخ اليوناني الذي تحول إلى أحد الموضوعات التي سجلتها ريشة أكثر من فنان عالمي، وعلى رأسهم الفنان فان جوخ في لوحة تحمل الاسم اليوناني نفسه. ويتفق نقاد الأدب العبري على أن الهدف الأساسي للرواية هو توجيه النقد إلى الفكرة الصهيونية التي تمثلها الدولة، أو كما يقول دكتور دان ميرون إن بنيامين تموز أراد في روايته تلك مهاجمة إسرائيل الصهيونية عن طريق مقارنتها بإسرائيل أخرى مثالية وخيالية توجد في الخارج لكي يؤكد من خلال ذلك قبح التجربة الإسرائيلية(٦).

أما الناقد جرشون شاكيد فيرى أن هذه الرواية تعكس الحالة النفسية لتموز نفسه ولأبناء جيله إزاء التباين والتناقض اللذين يسيطران على المجتمع الإسرائيلي، ويبرز ذلك في عدد من الأشكال والمجالات، مثل الخلاص والشتات، والهجرة إلى إسرائيل في مقابل النزوح عنها والتشتت بين الولاء للبلاد والسعي وراء امرأة أجنبية. ويرى أيضاً أن هذه الرواية تجسد قوة جذب العالم الخارجي وبصورة تفوق قوة جذب المجتمع الإسرائيلي ذاته وختم شاكيد كلامه بأن المؤلف كان ضحية التشتت بين عالمين، عالمه الفعلي الذي يعيش فيه وعالم آخر كان مجرد فكرة قبل سنوات، وهو العالم الكنعاني الذي يجسد ما يسمى بالتيار الكنعاني الذي ظهر في إسرائيل قبيل قيام إسرائيل، ردعا إلى وحدة حوض البحر الأبيض المتوسط؛ من أجل إعادة المنطقة إلى الوضع الذي كانت عليه قبل ظهور الحركة الصهيونية. وأن هذا هو أيضاً حلم بطل الرواية الذي اتجه إلى أوربا، وترك إسرائيل الذي تمثل في نظره الخيار الصهيوني الذي فرض عليه لأسباب تاريخية جاءت بالمصادفة، وأن الرواية تنتهي مأساوية بموت أبطالها الرئيسين(٧).

وكما ذكرنا تجيء هذه الرواية ضمن سيل من الروايات العبرية التي تؤكد إخفاق التجربة الصهيونية، وعلى دخول إسرائيل إلى ما يعرف الآن بمرحلة ما بعد الصهيونية وعلى أن الحركة الصهيونية الهرتسلية التي ادعت سعيها إلى حل مشكلات اليهود في العالم عن طريق تهجيرهم إلى إسرائيل؛ إنما أدت فقط إلى إيجاد جيتو يهودي جديد في فلسطين.

المراجع

١. صموئيل نوح كريمر: أساطير العالم القديم. ترجمة د. أحمد عبدالحميد يوسف. مراجعة د. عبد المنعم ابو بكر. القاهرة ١٩٧٤م. ص٧.
٢. حاييم شوهام: الأسطورة في الدراما العبرية. مجلة المسرح. دورية ربع سنوية. تل أبيب ١٩٩٤م ص٩١.
٣. وول ديورانت: قصة الحضارة. الجزء الثاني من المجلد الأول ص٣٦٨.
٤. د. محمد خليفة حسن: أسطورة البقرة الحمراء بحث منشور في رسالة المعرفة. السنة الخامسة. العدد الثالث. صادرة عن مركز تنمية البحوث ١٩٩٧م.
٥. د. محمد أبو غدير: مفهوم البطولة في الرواية العبرية الحديثة. رسالة دكتوراه غير منشورة. كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٨٢م ص١٠١.
٦. دان ميرون: دفتر مفتوح. حول القصة العبرية. تل أبيب ١٩٨٩م ص٤٢.
٧. جرشون شاكيد: العلاقة بين الشتات ودولة إسرائيل في القصة العبرية. دورية موزنايم الأدبية. العددان السابع والثامن . نوفمبر ١٩٨٧م ص١٤.

الدلالات الاستلزامية في اللغة العربية والقواعد التخاطبية عند بول كرايس

الراضي رشيد
طنجة - المغرب

يعد بول كرايس من فلاسفة اللغة الذين اهتموا بدراسة الظواهر التداولية في اللغة الطبيعية، فقد انطلق من ملاحظة مجموعة من الظواهر المرتبطة بهذه اللغة، التي لا تجد لها تفسيراً في المستوى التركيبي أو الدلالي، وإنما يحتاج المخاطب في تأويلها إلى استثمار مجموعة من العناصر التي توجد خارج التنظيم الداخلي للغة، من قبيل: المقام، والسياق التخاطبي، والمعارف المشتركة، والأحوال النفسية.

ويلجأ المتكلم في أثناء عملية التخاطب إلى استثمار هذه المعطيات لتوليد مجموعة من الدلالات، ويقوم المخاطب باشتقاقها بطريقة ضمنية، ووفق مجموعة من القواعد المضبوطة.

وقد وضع كرايس في هذا الإطار قواعد تُمكن من التحكم في هذا النوع من الدلالة، منطلقًا من مبدأ عام أسماه مبدأ التعاون COOPERATION PRINCIPLE وصاغه على الشكل التالي:

مبدأ التعاون: «لتكن مشاركتك في التخاطب عند حصولها، على النحو الذي يتطلبه الغرض أو الاتجاه المرسوم للتخاطب».

فهذه القواعد - في رأي كرايس - هي التي تنظم عملية التخاطب التي يصورها في شكل لعبة، ومعلوم أنه ما من لعبة إلا ولها قواعد يفترض أن تكون محترمة، وحتى في حالة عدم احترام هذه القواعد، فإن المستمع يقوم بتأويل عملية الخرق لاشتقاق دلالات أخرى، وذلك بناء على مبدأ التعاون.

فقد أثبت كرايس أن التداول الخطابي بني على استثمار مجموعة من القواعد الخطابية، وهو ما يسميه بالاستلزام التخاطبي المتعارف، ومن جهة أخرى، على خرق هذه القواعد اعتمادًا على معرفة كل من المتكلم والمستمع لها، واعتقاده أن المتخاطبين يتعاونان للوصول إلى هدف مشترك، وهو تحقيق أكبر نسبة من النجاح في عملية التواصل.

فـ «نظام الخرق» إذن في مفهوم كرايس هو مستوى آخر من مستويات توليد الدلالة، حيث يتمكن المتكلم عبره من تضمين مجموعة من المعاني، ويقوم المستمع باشتقاقها من الرسالة، اعتمادًا على بعض القرائن اللفظية والمقامية، وعلى المعارف المشتركة بين المتكلم والمستمع.

وإذا حاولنا تصفح كتب البلاغة العربية، فإننا سنجد أن العرب كانوا أسبق إلى التفطن لهذه الخاصية التي تميز اللغة، وهذا راجع بالأساس إلى أن التراث العربي في عمومه له طابع تداولي، لذلك فإننا نعتقد أن اقتراحات القدامى في مجال العلوم اللغوية، من شأنها أن تضيء بعض جوانب الدرس اللساني الحديث في مستويات المعالجة التداولية.

وقد تناول التراث البلاغي العربي هذه الظاهرة في سياق الربط بين إجراءات الخطاب، ومقتضيات المقام، وذلك فيما يسميه البلاغيون بخروج صيغ الكلام عن

معانيها الأصلية، لإفادة معانٍ وأغراض أخرى بحسب المقام والقرائن الحالية، وقد أدى بنا فحص بعض جوانب هذا الموضوع إلى الوقوف على ملامح نظرية عربية حول الاستلزام الدلالي لا يمكن لمقال واحد أن يجمع شتاتها ويرتب مسائلها؛ فقد قام البلاغيون العرب بتقعيد طرائق أداء المعاني، واستقراء وجوهها، ثم بحثوا في المواضع التي يخرج فيها الكلام عن وجهه الأصلي إلى وجوه أخرى تكون بمنزلة خرق لمجموعة من القواعد، مما يؤدي إلى توليد دلالات استلزامية تضاف إلى الدلالات الأصلية، وإلى تجميل الخطاب وتحقيق بعض القيم البلاغية المعتبرة في اللغة العربية، ويذكرنا هذا الأسلوب في المعالجة بمنهج كرايس في دراسته للاستلزام التخاطبي. وسوف نحاول بدورنا تسليط هذا المنهج على فصول من كلام البلاغيين العرب، لإعادة بنائه بناءً حديثًا، وللاستفادة منه بالمقابل في ترصيص COMPACTIFIER الدرس اللساني الحديث، وملء بعض فراغاته، وإن كانت الفروق بينهما بينة واضحة، إذ تحتفظ المعالجة العربية ببعض خصوصياتها.

وقد اكتفينا في هذا الإطار بالوقوف على موضعين فقط من المواضع التي تبدو فيها المعالجة التداولية غنية وواضحة تقترب بشكل كبير من أسلوب المعالجة الحديثة، تاركين البحث في الجوانب الأخرى إلى فرصة لاحقة.

الاستلزام الدلالي وطرائق صياغة الخبر من حيث توكيده أو إهماله

صاغ علماء البلاغة العرب قواعد لكيفية إيراد الخبر من حيث التأكيد قوة أو ضعفًا أو عدمًا. فرتبوا حالاته، ودققوا مسائله، منطلقين من شروط تداولية واضحة، يقول السكاكي: «لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التعزية يباين مقام التهنئة، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب.. ولكلٍّ من ذلك مقتضٍ غير مقتضى الآخر».

ففي هذا الكلام وعي واضح بتعدد الأفعال الإنجازية التي يؤديها الخطاب. ونجد هذا الوعي مرافقًا للسكاكي في حديثه عن كل ظواهر الممارسة اللغوية في مستوياتها التركيبية والدلالية والتداولية، بما في ذلك حديثه عن إيراد الخبر وطرائق توكيده، حيث يقول: «.. فإذا ألقى الجملة الخبرية إلى من هو خالي الذهن عما يلقى إليه.. كفى في ذلك حكمه، فتستغني الجملة عن مؤكدات الحكم، ويسمى هذا النوع من الخبر ابتدائيًا، وإن ألقاها إلى طالب متحير.. لينقذه من ورطة الحيرة استحسن تقوية المنقذ»، ويستمر السكاكي في معالجة هذه الأحوال متخذًا من المخاطب محددًا لصيغ إيراد الخبر، ثم يعرج على المواضع التي يتم فيها الخروج عن مقتضى الظاهر في حالات نجد إحصاءها في كتب البلاغة العربية، وسنحاول في هذا السياق جمع شتات كلام البلاغيين في هذا الصدد، وبناء نظام من القواعد يصف عملية إيراد الخبر من حيث التوكيد أو عدمه، مسترشدين بمنهج كرايس في التقسيم والتفريع، ومعتمدين على مفهوم الخرق.

> أثبت كرايس أن التداول الخطابي يبنى على استثمار مجموعة من القواعد الخطابية، وهو ما يسميه بالاستلزام التخاطبي المتعارف

من المفترض في المتكلم الذي يسعى إلى صياغة خبر ما أن تكون الصيغة التي يلجأ إليها ملائمة لموقف المستمع من هذا الخبر خلوًا أو ترددًا أو إنكارًا، ويمكن أن نصوغ لهذا الأمر مبدأ عامًا نسميه مبدأ الملاءمة وصيغته كالتالي:

«اجعل صياغتك للخبر ملائمة لأحوال المخاطب مع الحكم خلوًا أو ترددًا أو إنكارًا»

وتتفرع عن هذا المبدأ ثلاث قواعد أساسية:

- **قاعدة الخلو**: أي إذا كان المخاطب خالي الذهن من الحكم، أو معتقدًا له، وصيغتها: «لا تستعمل أي نوع من أدوات التوكيد».
- **قاعدة التردد**: أي إذا كان المخاطب مترددًا في الحكم شاكًا فيه وصيغتها: «يحسن لك أن تؤكد الخبر».
- **قاعدة الإنكار**: أي إذا كان المخاطب منكرًا لحكم الخبر وصيغتها: «يجب عليك أن تؤكد الخبر بمؤكد أو أكثر».

يجب على المتكلم إذن أن يلتزم هذه القواعد في أثناء إلقائه للخبر، إلا أنه قد تأتي حالات يتم فيها خرق قاعدة من هذه القواعد، مما يؤدي إلى توليد دلالات استلزامية تفهم اعتمادًا على معطيات السياق والمقام

التخاطبي، ويتخذ هذا الخرق الصور التالية:

ـ خرق قاعدة الخلو: وهو ضربان:

ـ الخرق القريب: وهو حين ينزل خالي الذهن منزلة الشاك المتردد، وذلك بناءً على إجراء أسلوبي يعمد إليه المتكلم، كأن يسوق في صدر الكلام ما يشير إلى حكم الخبر ومضمونه، فيأتي بأداة ليؤكد بها هذا الحكم، ومن أمثلة ذلك: «لا تدخن. إن التدخين مضر بالصحة» ففي هذا المثال تم تأكيد الخبر مع كونه لا يحتاج لمؤكد، بسبب بداهة الحكم الذي يتضمنه، إلا أن المتكلم أكده بناء على النهي الذي ساقه في بداية الكلام، وبذلك خرق قاعدة الخلو خرقًا قريبًا بإنزال المعتقد للخبر، منزلة الشاك المتردد.

ـ الخرق البعيد: وهو حين ينزل خالي الذهن أو المعتقد للخبر منزلة المنكر، لظهور قرينة سياقية تكون بمنزلة علامة على الإنكار، ومثال ذلك قول القائل: «إن برّ الوالدين لواجب»، فمضمون الخبر يقتضي إيراده من دون مؤكد، لأنه من البداهة بحيث لا يمكن أن ينكره أحد، وقد مكن هذا الخرق من أداء وظيفة دلالية، وهي الإشارة إلى أن المخاطب واقع في عقوق والديه أو مقصر في البر إليهما.

ـ خرق قاعدة الإنكار:

وذلك حين ينزل المنكر منزلة غير المنكر، إذا كانت لديه شواهد وأدلة لو تأملها لرجع عن إنكاره، ومثال ذلك، إذا قلت لمن يعتقد أن اللسانيات مادة لا فائدة فيها: اللسانيات مادة مهمة جداً، فإيراد هذا الكلام من دون أداة للتوكيد خرق لقاعدة الإنكار، وقد نتج من هذا الخرق تولد دلالة استلزامية فحواها أن المخاطب سواء اقتنع أم لم يقتنع، فحكم الخبر حقيقة واقعة، وقد تشتق من هذا الكلام دلالات استلزامية أخرى، حسب معطيات السياق، كأن يفهم أن المتكلم يقصد إلى التعريض بتفاهة هذا الرأي، ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم، قول الله تعالى: *وإلهكم إلهٌ واحدٌ.* البقرة: ١٦٣. فهذه الآية الكريمة يتجه الخطاب فيها إلى المنكرين لوحدانية الله، وكان ينبغي تبعاً لمبدأ الملاءمة أن يؤكد هذا الخبر، إلا أن القرآن أعرض عن ذلك فخرق بذلك قاعدة الإنكار، وقد مكن هذا الخرق من تضمين دلالات استلزامية، فكما لو أننا نسمع إلى جانب منطوق الكلام معنى فحواه: «موتوا بغيظكم فسواء آمنتم أم لم تؤمنوا فإن الله هو الإله الواحد» ففي الآية تعريض وتوبيخ واستنكار وغيرها من المعاني



تعاون بين المتخاطبين للوصول إلى هدف مشترك

المستلزمة عن طريق الخرق المتمثل في حذف أداة التوكيد.

وعلى هذا نخلص إلى أن قواعد صياغة الخبر في العربية من حيث توكيده أو عدم توكيده تشكل نسقًا يشاكل نظرية كرايس حول التخاطب، مبدؤه العام هو مبدأ الملاءمة في مقابل مبدأ التعاون عند كرايس وقواعده هي قاعدة الخلو وقاعدة التردد وقاعدة الإنكار مقابل القواعد الأربع عند كرايس (الكمية والكيفية والإضافة والجهة).

الاستلزام الدلالي المتولد عن خرق قواعد استعمال أدوات النداء

معلوم أن النداء ينقسم بحسب الأدوات المستعملة قسمين:

ـ نداء القريب، وله أداتان هما: الهمزة وأي.

ـ نداء البعيد، وأدواته: «يا» و«أيا» و«هيا» و«آ» وتستعمل «وا» للندبة، ونصوغ لكل واحد منهما قاعدة مناسبة:

ـ قاعدة نداء القريب: «اجعل نداءك للقريب بإحدى

الأداتين الهمزة أو أي».

ـ قاعدة نداء البعيد: «اجعل نداءك للبعيد بإحدى الأدوات التالية «يا» «أيا» «هيا» «آ» «وا».

فإذا أجرى المتكلم النداء بحسب هذه القواعد، يكون قد احترم الأحوال الأصلية لأدوات النداء، إلا أن هذه القواعد قد يتم خرقها لتتولد عن هذا الخرق دلالات جديدة، يتم اشتقاقها اعتماداً على قرائن حالية ومقامية، ويتخذ هذا الخرق وجهين اثنين:

ـ خرق قاعدة نداء القريب: فإذا كان نداء القريب يتم بواسطة إحدى الأداتين الهمزة أو أي، فقد يعمد المنادي إلى استعمال أدوات نداء البعيد في مقام نداء القريب، فيكون بذلك قد خرق قاعدة نداء القريب، مما يؤدي إلى توليد دلالات استلزامية يتم اشتقاقها من خلال تأمل معطيات المقام والسياق التخاطبي وأوضاع المنادي والمنادى، ومن أمثلة ذلك قول الشاعر:

يا من يُرجّى في الشدائد كلها

يا من إليه المشتكى والمفزَع

ففي هذا البيت يوجه الشاعر النداء إلى الله تعالى، وقد كان عليه أن يستعمل أداة نداء القريب لقوله تعالى: *وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ*. **البقرة: ١٨٦**. إلا أن الشاعر قام بخرق هذه القاعدة. واستعمل أداة النداء «يا» فتولدت عن هذا الخرق «دلالة استلزامية أضافت إلى معنى النداء العام معنى إنجازيًا آخر يقوم المستمع اعتماداً على قرائن المقام باشتقاقه واستنتاجه ، وهذا المعنى هو: علو مرتبة المنادى ورفعة شأنه.

نظام «الخـــرق» في مفهوم كرايس هو مستوى آخر من مستويات توليد الدلالة، حيث يتمكن المتكلم عبره من تضمين مجموعة من المعاني ويقوم المستمع باشتقاقها من الرسالة

ـ خرق قاعدة نداء البعيد: إذا كان خرق قاعدة نداء القريب يتم باعتماد أدوات نداء البعيد لنداء القريب، فإن خرق قاعدة نداء البعيد بالمقابل يكون من خلال اعتماد أدوات نداء القريب لنداء البعيد، أي باعتماد إحدى الأداتين: الهمزة أو أي ومن الأمثلة التي توضح هذا النوع من الخرق أحاديث النفس في ظروف الغربة: أي أمي كم اشتقت إليك ـ «أأهلي وأصحابي هل إليكم من سبيل» ـ «أي وطني كم طال الفراق». ففي هذه الأمثلة يتم خرق قاعدة نداء البعيد، إلا أن هذا الخرق يفسر برغبة المتكلم في تأكيد أن المنادى على الرغم من بُعد المسافة فهو حاضر في قلبه، قريب من وجدانه. فيبدو من خلال هذا أن الإمكانات التي يتيحها تنويع اعتماد أدوات النداء بين القريب والبعيد، مجال خصب لتوليد الدلالات الاستلزامية من خلال خرق القواعد التي تحكم أسلوب النداء.

نخلص بعد هذا الوقوف القصير على جوانب من المعالجة التداولية لبعض الظواهر اللغوية من البلاغة العربية إلى أن طرائق المنهج التداولي في المعالجة اللغوية تفتح آفاقاً واسعة للكشف عن الكثير من الظواهر التي تقصر المناهج الصورية باختلاف منازعها واتجاهاتها عن فهمها وتفسيرها. كما أن اللغة العربية بوصفها لغة طبيعية غنية بالظواهر التداولية يتطلب وضعها التسلح بأدوات غاية في الدقة من جهة، والمرونة من جهة أخرى، وهذا ما نجد أن اللغويين العرب القدامى قد حاولوا استيفاءه، مما يدفعنا إلى القول إن التراث اللغوي العربي مازال بحاجة إلى اكتشاف جديد.

المراجع

١. دلائل الإعجاز: عبدالقاهر الجرجاني، دار المعرفة للطباعة والنشر ١٩٧٨م.
٢. أسرار البلاغة: عبدالقاهر الجرجاني، دار المعرفة للطباعة والنشر ١٩٧٨م.
٣. مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٣م.
٤. أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبدالرحمن، المدرسة الحديثة للنشر والتوزيع ط١/١٩٨٧م.
٥. التواصل والحجاج، سلسلة الدروس الافتتاحية، طه عبدالرحمن، كلية الآداب، جامعة ابن زهر بأكادير، الدرس ١٠/١٩٩٣م مطبعة المعارف الجديدة.
٦. اللسان والميزان والتكوثر العقلي، طه عبدالرحمن،المركز الثقافي العربي ط ١/١٩٩٨م.
٧. دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، أحمد المتوكل، دار الثقافة: البيضاء ١٩٨٦م
٨. المنهج الوظيفي، مساهمة في عمل جماعي: قضايا المنهج في اللغة والأدب، أحمد المتوكل، منشورات دار توبقال للنشر ط١/١٩٨٧م.
٩. الاقتضاء في التداول اللساني (مقال)،عادل فاخوري، عالم الفكر، ع٣/١٩٨٩م.
١٠. علم المعاني، عبدالعزيز عتيق، دار النهضة للطباعة والنشر/١٩٧٤م.

11- Paul grice, logique, et conversation, comminication n,30.
12 - Francois recanati: les enonces performatif, les edition de minuit 1989.
13 - Flaufaoukil Ahmed: reflexions sur Freonie de la signification dans la pensee linguistique arabe: publication de la zfacuhe des letres et des sciences humaines de rabat.

المنحرفون والمجرمون: هل يولدون أم يربّون؟

أحمد محمد خليل
إربد - الأردن

سؤال يتردد على ألسُن الناس: هل يورّث السلوك البشري في المقام الأول، أم إنه يتشكّل بالتأثيرات البيئية؟ يستخدم العلماء أطفال التبني والتوائم لمحاولة معرفة دور كل من الوراثة والبيئة في صياغة شخصية الإنسان.

فبعض المختصين وعامة الناس يجيبون تجاوزًا عن هذا السؤال بقولهم: هذا وراثي، وذاك غير وراثي، بكل بساطة، وبصورة مقصودة أو غير مقصودة. فهل من الدقة والأمانة والعدل أن نحمّل الوراثة بعض أمراض المجتمع وأخطائه؟ وهل يجوز لنا أن نلبس الباطل ثوب الحق، ونتجنّى على الوراثة لغاية في نفوسنا، وهي بريئة من التهم الملصقة بها براءة الذئب من دم سيدنا يوسف؟ ويرى بعض أهل الخبرة والقانون في الفكرة القائلة: إن الشاذّين سلوكيًا يولدون حاملين لجينات الشذوذ مسوغًا لخلط الحقائق أمام المحاكم، وتخفيف العقوبة عن المجرمين. ولكن، أين هذا من إحقاق الحق، وإنصاف الضحايا والمظلومين؟ أليس الواجب التركيز على محاربة أسباب الفقر والمرض، ودوافع الإجرام، في غياب الوازع الديني والتربية الأسرية السليمة؟! إن هذه المقالة تعالج بعض جوانب هذه المسألة التي حيرت، وما زالت، عقول كبار العلماء، وهي تخلص إلى حقيقة مضمونها أن لكل من الوراثة والبيئة أهميتها الخاصة في السلوك الشخصي، ولكن نصيب كل منهما يتفاوت من حالة إلى أخرى.



يتفق التوأم أوسكار وجاك في الطباع على الرغم من اختلاف بيئة النشأة

جزيء الدنا DNA وأسراره

وحتى يتسنى لنا فهم الأسس الوراثية للسلوك، من الضروري الإشارة إلى الجينات وطبيعة عملها. فعندما ننظر إلى الكائنات الحيّة المختلفة، سواء أكانت إنسانًا أم حيوانًا أم كائنات دقيقة، نجد أن أهم ما تشترك به هو مادتها الوراثية. وتوجد المادة الوراثية على هيئة مركب كيماوي عملاق، يدعى الحامض الريبي النووي المنقوص الأكسجين DNA. ويتوضع هذا المركب في نواة الخلية الحيّة، في شكل يشبه الخيوط الدقيقة، التي يسمى كل منها كروموسوم. ويحمل DNA أسرار الخلق لكل جنس من الأجناس، لأن كل فرد يرث هذا المخزون الوراثي من أبويه، وينقله بإخلاص إلى أولاده، وبعدهم إلى أحفاده... وهكذا.

ويتكون جزيء DNA من

وحدات بنائية تتكرر ملايين المرات، يطلق على كل منها اسم «نيوكلوتيد». وهناك أربعة أنواع من النيوكلوتيدات، يختلف بعضها عن بعض بنوع القاعدة النيتروجينية الموجودة فيها. وهذه القواعد هي الأدنين ١، والجوانين ،، والسيتوسين ،، والثايمين ا. ويدعى تتابع معين من القواعد في جزء محدد من DNA بالجين (GENE). ويتحكم تسلسل القواعد في الجين في ترتيب الأحماض الأمينية وعددها ونوعها؛ وعددها في الطبيعة عشرون في البروتين الذي يعد الناتج النهائي لمعظم الجينات. ويعتقد العلماء أن البروتينات تؤثر في بعض الارتباطات داخل الدماغ نفسه، وأن بعضها يعمل منظما لوظائف الجسم، كما هو حال الإنزيمات والهرمونات. ويقدر عدد الجينات في الخلية البشرية، بنحو ٨٠,٠٠٠ إلى ١٠٠,٠٠٠ جين، وهناك عدد كبير منها خامل، وعدد آخر بلا وظيفة معروفة حتى الآن. وحتى نستوعب عمل الجين يمكننا موازنة أبجدية الوراثة «القواعد النيتروجينية» بالحروف الأبجدية المكونة لأي لغة. فكما أن ترتيب الحروف في كلمات الجملة اللغوية يعطيها معناها الخاص، فإن ترتيب القواعد النيتروجينية في الجين، ومن ثم ترتيب الأحماض الأمينية في البروتين، يؤدي إلى صفة أو وظيفة محددة للخلايا الحية، وبالنهاية للكائن الحي ككل. ولنتصور أنه وقع خطأ مطبعي في أثناء كتابة الجملة اللغوية، فإنها قد تصبح بلا معنى، أو قد يتغير معناها. وهذا قريب جدا لما يحدث بالفعل في الجينات عند حصول الطفرة الوراثية (GENETIC MUTATION)، إذا لم يتم إصلاحها. حيث يتغير تركيب جزء مقابل في البروتين، مما يؤدي إلى تبدل في صفة أو وظيفة معينة في الكائن الحي. وقد يكون تأثير الطفرة صغيرا أو كبيرا، تبعا لأهمية هذه الصفة أو الوظيفة في حياة هذا الكائن.

البيئة تتدخل

وقد تتدخل العوامل البيئية المحيطة بالكائن الحي في الكيفية التي ينمو ويعيش بها هذا الكائن. ففي حالة النباتات نجد شجرة تنحني

مبدأ الجبرية أو الحتمية البيولوجية أدى إلى معاناة كثير من الناس من التمييز على أساس المنزلة الاجتماعية والذكاء والجنس

تواضعا أمام إصرار رياح المحيط التي تهب باستمرار. كما نرى كيف تقتل الرياح الشديدة البرودة البراعم. بينما تنمو في شجرة أخرى البراعم من الجهة المقابلة إلى أغصان متفرعة، مما يعطي هذه الشجرة الشاهقة مظهر الراية الخفاقة.

لكن الأمر ليس بهذه البساطة عندما يتعلق بحياة الحيوانات وسلوكها، لأنه لا يتوقف على عوامل خارجية مثل ضوء الشمس والماء والمغذيات والأمراض والآفات وغيرها، بل يتعداها إلى عوامل أخرى معقدة. ويزداد الموقف تعقيدا بالنسبة إلى سلوك الكائن البشري لأسباب ترتبط بالنواحي الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والدينية والنفسية التي تتفاعل كلها لتسهم في نمو الإنسان، وتربيته، وتجسيد سلوكه، وصياغة شخصيته. فالغنى والفقر، والصحة والمرض، والحب والكراهية، والأسى والشفقة، والفرح والغضب، والتوحد لها آثار بالغة في حياة الفرد. صحيح أن الصفات الشخصية المتعلقة بالبدن والجنس والسمات السلوكية والمقومات الأخرى تختلف من شخص إلى آخر تبعا لمخزونه الوراثي، إلا أن العوامل البيئية يمكن أن تحور أيا من هذه الصفات لدرجات متفاوتة. وفي عالم الحيوان يلجأ العلماء إلى دراسة السلوك عن طريق إجراء التزاوج والتهجينات المختلفة تحت ظروف تجريبية تكاد تكون محكمة. أما في المجتمعات البشرية، فتزداد المعوقات لاستحالة إتمام بعض البحوث، بسبب قلة عدد الأفراد الناتجة من كل زواج، وطول الفترة الزمنية للأجيال، وكذلك القيود الاجتماعية والدينية المفروضة على الزواج. ولهذا يستخدم الدارسون أطفال التبني والتوائم وعائلاتهم للحصول على مادة بحثية ثمينة في هذا المجال. ففي حالات التبني يمكن الفصل بين العوامل البيئية التي يوفرها الأبوان الجديدان، من العوامل الوراثية التي يكتسبها الطفل المتبنى من أبويه الطبيعيين. أما بالنسبة إلى التوائم فالمعلوم أنها إما أن تكون متطابقة IDENTICAL TWINS من الناحية الوراثية تماما، لأنها تنتج من انقسام بويضة مخصبة واحدة - MONOZY

ZYGOTIC إلى خليتين تتطوّر كل منهما إلى جنين، وإما أن تكون أخوية FRA-TERNAL TWINS غير متطابقة وراثيا، بسبب تطورها من بويضتين مختلفتين بعد إخصاب كل منهما بنطفة ذكرية منفصلة DIZYGOT-IC.

التوائم المتطابقة وغير المتطابقة

وبصورة عامة، لا يزيد الشبه بين التوائم الأخوية عمّا هو معروف بين الأشقاء والشقيقات في الأسرة الواحدة. وقد لوحظ أن التوائم غير المتطابقة التي عاشت في ظل الظروف المعيشية ذاتها لم تكتسب الصفات السلوكية نفسها. وبالمقابل، أدت تربية التوائم المتطابقة في بيئات منفصلة بعد الولادة مباشرة إلى سلوك متماثل على نحو لافت للانتباه في معظم الأحيان مثل ما يبدو في قصة أوسكار ستور OSKAR STOHR الذي تربى في أكناف جدّه الكاثوليكي في عهد ألمانيا النازية، بينما عاش أخوه التوأم المطابق له جاك يوفي JACK YUFE (إلى يساره في الصورة) مع أبيه اليهودي في إحدى دول البحر الكاريبي. ومع هذه الفروق الواضحة في البيئة إلا أن الرجلين يتصرفان كما لو كانا حبتي بسلّة (بازلاء) يضمهما غلاف واحد. فكلاهما يقرأ المجلات بصورة معكوسة من آخرها حتى أولها، وكل منهما يغمس خبزه المحمص، مدهونا بالزبدة، في قهوته بالطريقة نفسها، إلى غير ذلك من التصرفات الشخصية المتشابهة إلى درجة عالية.

ومن ناحية أخرى ورد في ردّ على مجموعة استبانات صممت على يد العالم أووك تيلليجين AUKE TELLEGEN، وضمنها نحو ثلاثمئة سؤال متعدد الأبعاد لمعرفة السلوك الشخصي، أن التوائم المتطابقة التي عاشت بعيدة بعضها عن بعض تميل إلى سلوكيات شخصية أكثر تقاربا من التوائم الأخوية التي عاشت معا. وفي الإطار ذاته أيضا تتحدث الدكتورة ساندرا سكار SANDRA SCARR أستاذة علم نفس النمو في جامعة فرجينيا في الولايات المتحدة فتقول: لقد دهشت عندما وجدت أنه على الرغم من



توأم بينهما اختلافات

تشابه الشخصية بين الإخوة والأخوات البيولوجيين من ناحية، وإخوتهم بالتبني خلال السنوات الأولى من العمر، إلا أن أوجه الشبه كانت تكون معدومة في نهاية المطاف. وبيّنت دراسات أخرى أن تأثير عدد من العوامل البيئية في تكوين الشخصية لا يكون إلا من خلال المخزون الوراثي للشخص.

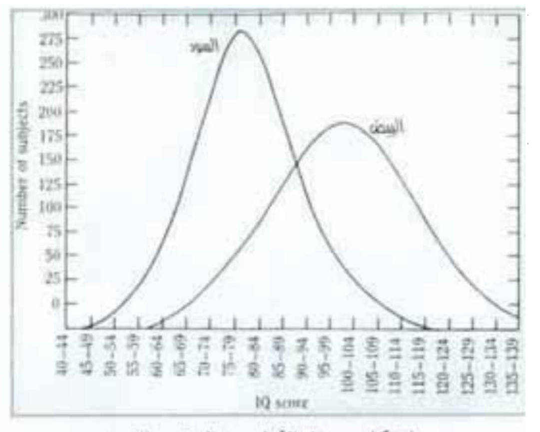
وعلى الجبهة الأخرى يصرّ بعض العلماء على أن التوائم المتطابقة لا تبدي صفات خارجية، وتصرفات حياتية متطابقة في كل النواحي. فالناظر بطريقة غير مقصودة إلى الأختين التوأمين المتطابقتين (انظر الصورة) سيجد أن هناك اختلافات جسدية وسلوكية تميز بينهما، فبينما تحدق واحدة منهما في آلة التصوير لا تبالي الأخرى بذلك. ويضيف المناصرون لعمق التأثيرات البيئية في السلوك أن النباتات المستنسخة أي المتطابقة المحتوى الوراثي بشكل تام، لن تنمو بالمعدل ذاته، ولن يكون لها عدد الأوراق والأزهار والسيقان والجذور نفسه. ويدعم أنصار علم السلوك البيئي صحة وجهة نظرهم بقولهم: إن فعل الجينات يتعدّل بوجود بعض المواد الكيماوية، ومنها الكحول ونواتج التدخين في جسم المرأة الحامل، في مرحلة حرجة من مراحل نمو الجنين. وهم يرون أن امتلاك جينات سليمة لا يضمن، بالضرورة، نموا وشكلا طبيعيين، فالتكوين الوراثي المحتوي على معلومات وراثية معيبة يشبه إلى حد بعيد شريط الموسيقى المسجل بطريقة مثالية. فحتى لو استخدمت أحدث تقانات التسجيل فإن جودة الصوت ستعتمد على نوعية جهاز الاستماع بعد ذلك. وحامل الشريط الرديء لن ينتج منه موسيقى جيدة، ومثل هذا مصدر الكهرباء الضعيف، ومكبر الصوت التالف فإنهما يشوهان الصوت والنغم، حتى لو تم التسجيل على شريط تسجيل ذي نوعية متميزة. وعلى العكس من ذلك، فإن الصوت المسجل بصورة سليمة على شريط جيد يمكن

تحسين نوعيته إلى درجة كبيرة باستخدام تقانات إلكترونية تقلل أو تكتم الضوضاء. وبصورة مماثلة، فإن تجسيد الجين المعتل قد يتعدل في بيئة ملائمة.

والحقيقة أنه لا يزال من الصعب استكمال دراسة السلوك الإنساني، وإن استعملت أحدث الطرائق المتوافرة على أيدي أكثر أصحاب المهنة مهارة. وهناك أنماط سلوكية ليس من السهل الفصل بين التأثيرات الوراثية والبيئية فيها بجلاء ووضوح؛ لأنها مزيج معقد من المظاهر. ومما يضفي على الموضوع غموضاً أن عدداً من الدراسات التي نشرت، وظهر أنها قد ميزت بعض الجينات المسؤولة عن سلوك محدد، لم يتم التأكد من صحتها، أو تم التراجع عن نتائجها من قبل أصحابها فيما بعد. ومثال ذلك تعيين جين أو جينين، قيل: إنهما يتحكمان في السلوك المتسم بتقلب المزاج، وتناوب المس والهوس - MANIC DE-PRESSION BEHAVIOR لدى سكان الأمش AMISH POPULA-TION في الولايات المتحدة الأمريكية. وعندما أريد توسيع هذه الدراسة كشف النقاب عن حالات جديدة لا تتفق مع نتائج الدراسة السابقة، أي إنها لم تكن مرتبطة مع الجينات المزعومة أو أي موقع جيني آخر. وقد تخلى الباحثون عن نتائج دراساتهم وأعلنوا ذلك بأنفسهم.

صفات وراثية وغير وراثية

والواقع أن البحوث في هذا النطاق تستلزم تطوير طرائق خاصة لقياس مدى الاختلافات السلوكية التي تعود إلى أسباب وراثية، أو إلى أسباب بيئية وتحديدها. ويؤكد العلماء أن قابلية توريث صفة ما HERITABILITY لا ترتبط بشكل مباشر بعدد الجينات ذات العلاقة بهذه الصفة، ولكنها مقياس لمقدار الاختلافات المظهرية التي تعزى إلى عوامل وراثية. وتراوح القيمة الرقمية لقابلية التوريث بين الصفر (إذا كانت البيئة وحدها تسيطر على انتقال الصفة)، والواحد الصحيح (عندما تكون الصفة لها أصول وراثية بحت).



بيان قياس معدل الذكاء بين البيض والسود

وهناك مجموعة من الصفات البشرية التي تتحكم بها عوامل متعددة، وهي تظهر بشكل متدرج بين أفراد المجتمع، ومن ذلك طول القامة، ووزن الجسم، ولون بشرة الجلد، وضغط الدم، ومستوى الذكاء.. إلخ. ومن غير المعروف، على وجه الدقة، عدد الجينات، أو مجموع العوامل البيئية التي تؤثر في مثل هذه الصفات. ومن المهم التوضيح أنه لا يمكن تحديد قابلية انتقال بعض الصفات وتوريثها، بسبب عدم وجود تباين ظاهر بين أبناء البشر بالنسبة إلى هذه الصفات فمثلاً: لا يختلف الناس في عدد الأعضاء الموجودة في جسم الفرد، فكل واحد منا له أنف واحد. وبسبب عدم وجود اختلافات مطلقة في عدد الأنوف في المجتمع البشري، على الرغم من التباين البيني الشاسع، فإن قابلية توريث هذه الصفة لا يمكن متابعتها وحسابها. وبعكس هذا، توجد اختلافات جليّة قابلة للقياس في شكل الأنوف عند مجموعة من الأشخاص.

وتعد قابلية التوريث مقياساً ناجحاً ذا فائدة كبيرة لمعرفة مدى إمكان تهجين الأفراد المختلفي الصفات، وهي تستخدم على نطاق واسع في التطبيقات الزراعية والحيوانية المتعلقة بتحسين الإنتاج. أما في حالة الإنسان فمن الصعب تطبيقها لأغراض تحسين النسل، للأسباب الأخلاقية والدينية التي سبق ذكرها. كذلك فإنه لا يمكن الاعتماد على الاستنتاجات المستنبطة من الدراسات البشرية ذات الصلة بمدى قابلية توريث بعض الصفات الآدمية. وعليه، فلابد من تفسير نتائج هذه الدراسات بنوع من الحذر الشديد؛ لأنه لا يمكن الفصل بين حصة البيئة والوراثة، بصورة قاطعة، في معظم الحالات.

خطورة مبدأ الجبرية

ومن الخطورة بمكان تعميم النتائج، لما قد يترتب عليه من إساءة استخدامها، وإخضاعها لأغراض سياسية.

فالذكاء يتأثر دون أدنى شك بالجينات، إلا أن مجرد تغيير في واحد من مئات الجينات كفيل بأن

يحـــدث اضطرابات حـــادّة في القدرات الذهنية والعقلية للشخص. وتؤدي العـوامل الحـياتـيـة دوراً لا يستهان به في هذا المجال، ومن ذلك سـوء التـغـذية، ومستوى المعيشـة، والمستوى الثقـافي، وغيرها. وهكذا، فإن لكل مـن الوراثة والبيئـة نصيبًا في تحديد مستوى الذكاء، ولكن إلى أي حـد؟ وقـد أحـدثت قـيـاسـات مسـتويات الـذكاء INTELLIGENCE TESTS, IQ تبعـات ثقيلة وتناقضات كثيرة في المجتمع الأمريكي؛ لأنها وجـدت أن مـعـدل الذكـاء عـند الأطفال السود أقل منه عند أقرانهم من البـيض (انظر الشكـل الخـاص بتجربة قياس الذكاء)، بمقدار ١٥ إلى ٢٠ نقطة. وعند التدقيق في هذا الشكل يستنتج أن بعض السود أكثر حظاً بالنسبة إلـى الذكاء من كـثير من البيض، ولا تشـير المعلومات الواردة في الشكـل إلى أن فـروقـات الذكـاء تعود إلى أسباب عـرقيـة أو معيشـية. فعلى الـرغم من الادعاء بتشابه البيئة لجـميع أفراد العينة ولكن ما عناصر هـذا التشابه؟ وهل توجـد ظروف بيئـية عـامة ومـوحدة بالفعل؟

وتلاقـي البــراهين والأدلـة، مع الدور الكبـير الذي تؤديه الوراثة في تطور الشـخـصيـة قـبـولاً وترحـيـبا واسـعين لدى كـثير من الناس. وقـد أدى الفـهـم الخـاطئ لفكرة تحـديد السلوك وراثيا، أو مـا يسـمى بمبدأ الجبرية أو الحتمـية البيولوجية BIOLOGICAL DETERMINATION إلى معاناة كثير من الناس، والتمييز بينهـم من قـبل مـؤيدي هذا المبـدأ، وذلك على أسس خادعـة، من حيث المنزلة الاجـتـمـاعـيـة، والذكـاء، واخـتـيـار الجنس المفـضّل...إلخ؛ لاعـتـقـادهم بأن صـفـات الشـخص وسلوكه قدر مكتوب، لا يمكن تجنبه أو الفرار منه، ولا ذنب له فيه، على الرغم من اعـتراف أكثـر أصـحـاب هذا المذهـب تشـدداً بدور الـعـوامل البيئية، وعـدم إنكارهم لها. ففي عام ١٩١٥م كلفت مـصـلحـة الصـحـة العـامـة الأمـريكـيـة عـالم الأوبـئـة جـوزيف جـولـدبيـرغـر JOSEPH GOLDBERGER بتقصي أسباب داء الذرة القاتل PELLAGRA، الذي كان يتـفـشى بين الطبـقـات الفـقـيـرة في المجتمع، وقـد توصل جـولدبيرغـر، بعد تجارب طويلة على نفسه وأفراد عـائلتـه وعلى عـدد كـبـيـر من المتطـوعين، إلى أن المرض يـعـزى إلى أسـبـاب تتـعلق بسـوء التـغـذية، وبنقص فيـتـامين (ب) بالذات، وأنه لا يمت بصلة إلى الوراثة والعدوى. ومع ذلك، لم تحاول الحكومة تغيير الأحـوال، أو اسـتـئـصـال أسـبـاب المرض الحـقـيـقـيـة. ويكمن السـر في تجاهل تقارير جولدبيرغر، وتغييب الحقائق عن الجمهور فترة طويلة، في الحـفـاظ على مصـالح مـعـيّنة، ولغايات اجتماعية وسياسية معقدة. ولعل من الأسـبـاب الـرئيسـة لهـذا الانحـياز الجهود المبـذولة لمجموعـة من عـلمـاء الوراثـة الأمــريكـيين المؤمنين بعلم تحـسين النسـل EUGENIC، الذي كـــان أســـمـــه الإنجليزي السير فـرانسيس جالتون SIR FRANCIS GALTON، عـــام ١٨٨٣م.

التمييز الاجتماعي والخداع

ويتبنى هذا العلم تحسين التركيب الوراثي لـلناس من خـلال التـزاوج الانتـقـائي SELECTIVE BREEDING. وقـد كـان علـى رأس هذه المجموعة شـارلز بنيدكت دافينبورت CHARLES BENEDICT DAVENPORT، الذي عمل ناطقاً باسم اللجنة التي أطلق علـيـها لجنة الـبلاجـرا. وكـان لـهـذا الرجل ضلع كـبـيـر في إهمـال اسـتـنتـاجـات جولدبيـرغـر وتجاوزها. وقد زاد على هذا أن نشر مقالة في مجلة اتحـاد علمـاء النفس الأمـــريكيين JOURNAL OF THE AMERICAN PSYCHOLOGICAL ASSOCIATION عام ١٩٢٠م ادعى فيـها أن البـلاهـة والخبل INSANITY AND IMBECILITY والإجـــرام ومـرض البـلاجـرا كلهـا حـالات وراثيـة، للتـأثـيـر في الرأي العـام الأمريكي.

البحوث العلمية كشفت زيف إدعاءات تفوق الجنس الأبيض على الهنود الحمر والأفارقة السود

ومن الصـور المأساوية الأخـرى الحالات التي جلبها مبدأ الحـتمـيـة البـيـولوجـيـة مـا سـمـي في بعض المجـتـمـعـات بالنقاء الـعـرقي الذي اقـتـرن بالنبـلاء وأتـبـاع بـعض القوميات، بينما هناك ما يعرف بالدم الفاسد BAD BLOOD الذي ووصف بأنه لا يجـري إلاّ في عروق الفـقراء والمجـرمين. وازدادت مـعـاناة ذوي الدم البغيض المزعوم خلال سنوات الحرب العـالمية الثانية عندمـا أخذت المستشفيات وبنوك الدم، في الجنوب الأمريكي تفصل دم السود والأقليات عن دم البـيـض، حـتـى لا يخـتـلط

«الطاهر بالنجس» في أثناء عمليات نقل الدم. ونحن نعلم يقيناً أن خلايا الدم الحمراء الناضجة لا تحمل عوامل وراثية لخلوها من النوى.

كما نعرف أن المهم في عمليات نقل الدم هو مولدات المضادات AN-TIGENS المحمولة على سطوح خلايا الدم الحمراء، ولا علاقة لنجاحها بأصل الدم أو جنس المتبرع به.

ومن المخادعات المتصلة بالتمييز الاجتماعي، على أسس علمية فارغة، ما جرى في أواخر القرن التاسع عشر، على يد الطبيب الأمريكي صامونيل جورج مورتون SAMUEL GEORGE MORTON، من محاولات لإقناع الناس بأن المنحدرين من عرق أبيض يتفوقون على الهنود الحمر، والأفارقة السود، بالنسبة إلى الذكاء؛ لأن أدمغتهم أكبر حجماً. وظل الأمر كذلك، حتى جاء البروفسور ستيفن جولد STEPHEN GOULD، من جامعة هارفارد الأمريكية عام ١٩٧٨م، وراجع حسابات مورتون، وأثبت زيفها وعدم دقتها، بشكل متعمد أو غير متعمد. وتستمر مسرحية العنصرية العلمية في القرن العشرين أيضاً؛ فهذا العالم الإنجليزي سيرل بيرت CYRIL BURT يوقف حياته لجمع معلومات ضخمة ليسخرها في تدعيم رأيه القائل بتفوق الجنس الإنجليزي على غيره من البشر. وبعد أن مات بيرت عام ١٩٧١م، سرعان ما أثيرت الشكوك حول نزاهته ومكانته العلمية، وكان أول من كشف لعبة بيرت العالم الأمريكي ليون كامن LEON KAMIN. ولكن، من يعوض المظلومين الذين حرموا حقوقهم بسبب تلفيق بيرت وتزويره؟

الطلاق وراثي

وتعود هذه الأيام النوايا الخبيثة من جديد، مستخدمة ما يمكن أن يطلق عليه اسم العلم السيئ؛ لتحقيق ميول ونزعات مشبوهة، في ظلال المناخ السياسي المتناقض، فقد أصبحت هناك (موضات) وصرعات ذات شعبية رائجة للتآمر على الأخلاق والقيم والعادات والتقاليد. وتطل علينا الفتنة مقنعة بدراسات محتواها أن الطلاق والعدوانية سلوكان يستندان إلى أسس وراثية لا دخل للإنسان وبيئته فيها. وعلى سبيل المثال قررت دراسة حديثة أن هناك ارتباطاً إيجابياً (٥٢ر.) بين الاستعداد الوراثي والميل إلى الطلاق، وهذا لا يعني بالطبع وجود جينات موروثة للطلاق وإنما جينات عند بعض الأشخاص تجعلهم أكثر ميلاً إلى بعض الأهواء الفردية السلوكية والعاطفية التي تنتهي بهم إلى الطلاق.

من الفتن المقنعة الادعاء أن الطلاق والعدوانية سلوكان يستندان إلى أسس وراثية لا دخل للإنسان وبيئته فيها

وهنا غير بعض الخبراء والساذجين موقفهم حول الطلاق وأسبابه، وبخاصة في المجتمعات الغربية، فتحولت الأسباب من كونها نتيجة الانحلال وانهيار الأسر إلى تفسيرات أساسها الغش والخداع والخيانة الزوجية والرغبة في التعدد، وجميع ذلك - حسب رأيهم - صفات متأصلة في طبيعة الجينات التي يحملها هؤلاء «الأبرياء». ويقتضي هذا التصور الحديث للطلاق تهرب الزوج من مسؤولياته، وعدم دفع نفقات زوجته وأولادها الذين لم يأتوا من صلبه. ويسوغ بعض الناس هذا السلوك الإنساني بأنه امتداد طبيعي لما يحدث في عالم الحيوان، من قبيل الحرص على البقاء وحفظ النوع. ويضرب المؤازرون لهذا النهج مثلاً بنوعين من القرود، أحدهما معروف باسم «القشة»، والآخر يسمى «طمارين»، وهما يعيشان في أمريكا الجنوبية. وثبت - كما يقولون - أنها تنغمس في الملذات والخيانة، كلما سمحت الظروف المحيطة بذلك.

تحايل علمي

مثال آخر للتحايل العلمي البالغ الأثر يتمثل بمرض العصر، وهو متلازمة نقص المناعة المكتسبة أو الإيدز. فقد ذهب بعض علماء البيولوجيا إلى الربط بين الفروق التشريحية للدماغ وشؤون الفرد الجنسية. ففي عام ١٩٩١م أعلن العالم سيمون ليفيه SIMON LE-VAY، عن مفاجأة مذهلة عندما أخبر أن واحدة من مجموعات الخلايا العصبية الموجودة تحت السرير الدماغي HYPOTHALA-MUS والمعروفة INAH-3، عند أحد ضحايا الإيدز، كانت أصغر بكثير منها عند الرجال الطبيعيين، من

حيث الميل الجنسي HETEROSEXUALS، أي إن حجم INAH-3 عند المنحرفين جنسياً HOMOSEXUALS من الذكور يساوي تقريباً حجمه عند النساء الطبيعيات. ومع أنه لم يتم التأكد من هذه النتائج، إلا أنه من المعروف أن حجم INAH-3 عند الرجال يصل إلى نحو مثلي حجمه عند الإناث، ويعزو العلماء هذا الفرق بين الجنسين إلى التفاوت في مستوى الهرمونات الجنسية (الأستروجين والتستوستيرون) التي تنتشر في جسم الجنين والرضيع. وادعى فريق آخر من العلماء وجود اختلافات جوهرية في ترتيب القواعد النيتروجينية بين جينات الرجال، مما يدفعهم إلى اختيارات جنسية متغايرة. ولم تثبت أيضاً صحة هذه الادعاءات حتى الآن. ويشعر المتعاطفون مع حقوق أصحاب الميل الجنسي المتماثل أنه إذا ما ترسخت الأسس الوراثية لهذه الحالات فإنه سيتم تصنيفها والتعامل معها على أنها حالات طبية، وليست ظواهر اجتماعية.

والواقع أن هذا هو بعض ما يخشاه المتحفظون على مشروع الجين البشري HUMAN GENOME PROJECT المتوقع أن ينتهي العمل به بين عامي ٢٠٠٣ و ٢٠٠٥؛ إذ من الممكن أن تستغل معرفة الخريطة الجينية للشخص، لأغراض التمييز الجنسي والاجتماعي والوظيفي؛ مما قد يؤثر سلباً في حياة طبقات كثيرة من المنحرفين، أو فئات خاصة من المرضى، لكون حالاتهم لا يمكن تعديلها، وأن ما هم فيه وباء ينبغي التخلص منه لمصلحة البشرية.

وأخيراً، فإنه باستعادة الأحداث والأفكار الواردة سابقاً، وبالتأمل فيها، نجد أن تحليل النتائج بموضوعية يوحي، وبصورة عامة، إلى أن للوراثة والبيئة مساهمتهما في السلوك البشري.

فما دامت البحوث العلمية جارية بطريقة صحيحة من أجل هدف سام هو خدمة الإنسانية، ومادامت الاستنتاجات بعيدة عن السياسة، فإن دراسة السلوك الإنساني لن تكون مجالاً معقولاً للمتابعة فحسب، بل ستغدو موضوعاً واقعياً نتعلم منه الكثير عن أنفسنا. يقول عالم النفس ريتشارد أشير RICHARD ASHER: «تماماً كما نبتلع الطعام؛ لأننا نرغب فيه، وليس لما فيه من قيمة غذائية، فإننا نستوعب الأفكار ونصدقها لأنها تستهوينا، وليس لأنها منطقية». أما نحن المسلمين فإننا نقول: لا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ونؤمن كذلك بأنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، انطلاقاً من فهمنا للآية الكريمة: *يا أيُّها الناس إنّا خلقناكُم من ذكرٍ وأنثى، وجعلناكُم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليمٌ خبيرٌ*. **الحجرات:١٣**. وجاء في القرآن الكريم قول سيدنا نوح لربه: *إنك إن تذرهم يضلّوا عبادك، ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً*. **نوح:٢٧**. وقد يكون في ذلك إشارة لدور الوراثة الحتمي في سلوك بني آدم.

مادامت الاستنتاجات العلمية بعيدة عن السياسة، فإن دراسة السلوك الإنساني تكون موضوعاً واقعياً نتعلم منه الكثير عن أنفسنا

وفي سورة التين، قد نجد تلميحاً إلى تفاعل البيئة مع الجينات، *لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غير ممنون*. **التين: ٤ -٦**. هذا، والله وحده أعلم، لأن مادة الحياة، كما يرى عالم الطب الوراثي أرنو موتلسكي ARNO MOTULSKY في جامعة واشنطن وغيره كثيرون، لاتزال صندوقاً أسود BLACK BOX فتبارك الله أحسن الخالقين.

المراجع

١- ... معمة لنمو الشخصية: النظرية، التقييم، مناهج البحث. معهد البحوث والدراسات العربية. القاهرة ١٩٧٧م.

٢- ... هيروت. الشك في ضوء الوراثة والسلوك. ترجمة ... فاروق عبدالفتاح علي موسى. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة ١٩٨٨م.

3- HOLDEN, C. 1987. THE GENETICS OF PERSONALITY. SCIENCE 237: 598-601

4- PLOMIN, R. 1990. THE ROLE OF INHERITANCE IN BEHAVIOR. SCIENCE 248: 183-188

5- BAILEY, J.M. AND A.P. BELL 1993. FAMILIALITY OF FEMALE AND MALE HOMOSEXUALITY. BEHAVIOR GENETICS 23: 313-322

6- MORELL, V. 1993. EVIDENCE FOUND FOR A POSSIBLE "AGGRESSION GENE". SCIENCE 260: 1722-1723

7- BOWLEDGE, T.M. 1993. THE INHERITANCE OF BEHAVIOR IN TWINS. BIOSCIENCE 43: 420-424

8- GREENSPAN, R.J. 1995. UNDERSTANDING THE GENETIC CONSTRUCTION OF BEHAVIOR. SCIENTIFIC AMERICAN, APRIL: 72-79

القراءة الحرة الشمولية الرؤية والآفاق

صالح جديد
ولاية الطارف - الجزائر

تعدد المناهج واختلاف النصوص وتنوع الرؤى جميعها جعلت علاقة النقد بالنص، والنصوص بالنقد تتباين، وقد يصل بينها الموقف أحيانًا إلى العدائية، وتفاديًا لمثل هذه الهنات والممارسات غير الحضارية، حاولنا من خلال القراءة الحرة الشمولية طرح البديل، الذي نعتقد أنه الوحيد القادر على جمع شمل النقد والنص، وعلى ربط علاقات مودّة وصداقة - دائمة. ولتحقيق هذا المبتغى قسّمنا المنهج المطروح إلى عناوين رئيسة هي: تجليات القراءة، ثم أدب القارئ والقراءة، وأخيرًا الفعل القرائي - كيف يكون مؤثرًا ومثيرًا في عالم النص؟

تجليات القراءة

الأعمال الإبداعية الأدبية لا تأخذ مصداقيتها وشرعيتها ما لم تجد القارئ الذي يهتم بها، ولا تكتسب الشهرة والذيوع ما لم تنجز حولها قراءات، وهذه القراءات تختلف بطبيعة الحال من قارئ إلى آخر، ومن ثقافة وزمن وظروف اجتماعية وتاريخية وبيئية إلى أخرى، فكل قراءة منجزة هي في حد ذاتها موقف القارئ من النص، ويستحيل في عالم القراءة والإبداع أن توجد قراءة بريئة من أجل النص وللنص فقط، كما تذهب البنوية وأصحاب المدرسة التي تقول: الفن للفن، بمعنى أن مستويات القراءة تتجلى في مواقف وثقافات لا نكشفها إلا بعد أن تدون كتابة على الورق، فالكتابة بهذا العمل تثبت القراءة/ الخلفية والمرجعية الثقافية للقارئ، ثم تتحول القراءات المكتوبة إلى أدلة إثبات مادي يستحيل على صاحبها نكرانها على حد تعبير أصحاب القانون.

إن تجليات القراءة تبدأ من التقسيم المشهور الذي وضعه جير النبرانس، والذي مضمونه أن القراء ثلاثة أنواع:

- **القارئ الحقيقي**: وهو الذي يمسك الكتاب بيده.
- **القارئ العرفي**: وهو الذي يفترضه المؤلف، وهذا القارئ يمتلك بعض الخصائص الذوقية والقدرة على قراءة النص.
- **القارئ المثالي**: وهو الذي يؤيد النص ويوافق على ما جاء فيه.

انطلاقًا من هذا التقسيم يمكننا القول - بداية - إن القارئ الحقيقي هو القارئ الوحيد الموجود على أرض الواقع، فهو المسك بالكتاب (النص)، وهو الذي يقوم بعد ذلك، وانطلاقًا من ثقافته الخاصة (الفطرية والمكتسبة/ الواسعة والمحدودة) بإنجاز فعل القراءة منطلقًا من خلفيات ثقافية يتمتع بها، واتجاهات فكرية (أيديولوجيا) يعتقدها، وكل هذا لا نتعرفه إلا عند ما يتجلى في القراءة. أما القارئ العرفي فهو قارئ يحاول أن يخرج به جيرالد من عالم القارئ العادي إلى عالم القارئ المثالي، لكن القيود التي تكبله لا تسمح له بذلك، فيبقى وسطًا بينهما، لذا وجدنا جيرالد يجنح إلى اختلاق قارئ ثالث هو القارئ المثالي، وهو قارئ لا وجود له على أرض الواقع، وإنما وجوده كائن في ذهن المبدع وحده فقط، ومثل هذا القارئ لا يمكن أن يفتق النص ويفكك رموزه، ومن ثم يستحيل أن ينجز لنا قراءة مستقلة ومعزولة عن عالم المبدع، فهو كما حدده جيرالد - المتواطئ مع المبدع، الموافق لكل ما جاء في النص؛ وهو بمفهوم نقاد ما بعد البنوية قارئ سلبي ومستلب، وعلينا أن نقرر هنا أن هذا القارئ هو المبدع في حد ذاته.

وانطلاقًا من التقسيم السابق أيضًا نجد أن القراءة لا تكون فطرية بريئة إلا إذا ارتبطت بعالم خاص إليه يوجه العمل الإبداعي، وهذا مثل الكتابات الموجهة للأطفال، أو الكتابات الموجهة لفئة خاصة ومحددة من القراء مثل الأصدقاء، والرسائل المتبادلة بين المبدعين والعشاق.. وخارج هذه الدائرة تغيب كل قراءة بريئة.

والنوع الآخر من القراءة يمكننا أن نصطلح عليه بمصطلح القراءة الحرة الشمولية، وهي القراءة التي لا تتقيد بالشروط الخاصة، أو بالعلاقات الحميمة بين القارئ والمبدع، إنها قراءة تبحث دومًا عن خفايا النص، مستندة في ذلك على الثقافة الواسعة للقارئ والخلفية الفكرية العقدية (الإيديولوجية) والموقف من النص كإبداع، ومن العملية الإبداعية كواجب ورسالة تؤدى. إن القراءة الحرة الشمولية هي أكثر القراءات جرأة على تفجير النص، وتحويل رموزه وإشاراته وحركاته وسكناته إلى عالم صاخب حيوي تستحيل معه الرتابة والجمود.

والقراءة الحرة الشمولية تكاد تتفق - ولو بنسبة ضئيلة، ولكنها ذات قيمة في معادلة المفاهيم لعالم القراءة - مع ما ذهب إليه الدكتور يوسف نور عوض في كتابه «نظرية النقد الأدبي الحديث»؛ وذلك عندما قال: «إن معظم المقاربات القرائية ما هي في حقيقتها سوى تأكيد على بعض الاتجاهات السابقة أو تركيز على جانب واحد من جوانب نظرية الإبداع سواء كان ذلك الجانب إعلاميًا أو اتصاليًا أم برجماتيًا» ص ٥١.

بعد كل هذا الطرح النظري يحق لنا أن نتساءل: هل القراءة تتجلى في ما تفصح عنه؟ أم إنها تتجلى في المسكوت عنه داخل النص الإبداعي، وتحاول القراءة البوح به؟

إن حقيقة القراءة للنصوص تختلف باختلاف زاوية النظر إلى النص وفهمه، فأغلب النصوص الإبداعية يحاول أصحابها قول شيء ما، لكنهم في حالات عدة، وبحكم ظروف وأسباب ما يكتمونه، والتدليل عليه من خلال المقاربة القرائية والموازنة والمقارنة بين النص كمتن جامد ودليل مادي، وبين الأحداث والظروف التي أنجبت النص بتلك الصورة غير المتكاملة، فجاءت القراءة لتكملها. وهذا النوع من القراءة المنجزة عندما تجلي لنا المسكوت عنه فتنضوي تحت قطب التحقيق، ويبقى النص خارج دائرة القراءة يمثل القطب الفني أو الجمالي.

إن المسكوت عنه داخل النصوص يشكل نسبة نسبية، ولا يمكننا أن نتصور وجود نص من دون وجود نصوص محذوفة أو مسكوت عنها، ذلك أن لكل عصر قهرمانته تمامًا كما هو حال القصور العباسية وعالم ألف ليلة وليلة الذي أظهر لنا تلك القهرمانة المربية والمتسلطة والمتحكمة في عالم القصر الداخلي، حتى في الخليفة نفسه.





القارئ وعملية القراءة طرفان لا يمكن للنقد أن يستغني عنهما

كما تتجلى القراءة في شقها الثاني فيما أفصحت عنه هي، أي في تأويلها وتفسيرها للنص بالمسكوت عنه والمعلن عنه. وتتجلى القراءة باكتشافها لعالم النص بكل حيثياته ومكوناته، وهذا التجلي يصل أحيانًا إلى مرتبة اليقين، ومنزلة الكشف والتجلي، ومقامات الحلول والفيض على حد تعبير أقطاب المدرسة الصوفية: الحلاج وابن عربي. ولتتجلى القراءة في ما تقول، وتفصح عنه يشترط في صاحبها أن يكون صاحب قدرة على قراءة النصوص وفهمها فهمًا واضحًا ومحددًا في حدود ظروفها، وأزمنتها التاريخية والثقافية الحاملة لها.

إن العلاقة بين النص والقراءة هي علاقة حميمية، كلما انفصل الواحد عن الآخر سيطر عليه شعور، وإحساس بالحنين إلى الاتصال بشقه الآخر المشارك له في مكان التكوين والنضج. إنه الرحم الذي أقل ما يقال عنه إنه التوجه الحضاري والعصر الذي يجمع بينهما. فكل قراءة، وكل نص يتوخى توجهًا حضاريًا يسعى لأن يسود العالم كأقصى طموح، والمجتمع الذي ينتمي إليه كأدنى توقع.

وبناء على هذا، فإن تجليات القراءة لا يمكن أن نسوغ ما لم نضع أيدينا - بوضوح - على المسكوت والمفصح عنه داخل النص، وكل قراءة منجلية في هذا الأمر تجعلنا نؤكد ثانية أنه لا توجد قراءة بريئة خالية من خلفية ما وهادفة لقصد ما، كما أنه يستحيل أن يوجد نص ما خال من كل صعائب النشر، ولذع القرّاء والنقاد، وسخرية الأصدقاء والأعداء، فما كل هذا إلا دليل قاطع على ما ذهبنا إلى تأكيده وقوله.

ما نؤكده أن القراءة بتجلياتها تكشف لنا عن عالم النص الثري والمتنوع، توضح لنا أيضًا طبيعة الثقافة والخلفية العقدية الفكرية (الإيديولوجية) لكل نص. وعليه فالقراءة الحرة الشمولية لا تنجز ما لم يكن صاحبها يتمتع بثقافة شمولية، وبفكر حر، وإحساس جمالي، وذوق رفيع، هذه الأطراف المتعددة تجعل حريته في التأويل واستنباط معايير القراءة النقدية لا تخضع للهوى، ولا تتقيد بالشروط والظروف، والقراءة الحرة الشمولية تتجلى في رفضها لسلطة النص والقارئ. إنها قراءة مهما قلصت من النص تشريحًا وتفكيكًا، إلا أنها تبقى تؤمن بحرية الآخر في الرفض، وربما بحرية النص في التحرر من أوهام القارئ الحر الشمولي، وهي بعد كل هذا قراءة تسعى، من وراء محاصرتها للنص إلى بعث روح التمرد والرفض فيه، وإعطائه جرعة دافعة للتجدد والقبول بكل قراءة، لكن في حدود تجلياته الاجتماعية والثقافية وحدوده الزمانية والمكانية (الزمانكية).

ولتحقيق هذا لابد من آداب تضبط القارئ والقراءة معًا، لا بد من أسس وركائز عليها تقوم الممارسة القرائية.

أدب القارئ والقراءة

وهنا نؤكد بصورة قوية الركائز الأساسية للقارئ والقراءة فنقول:

القارئ وعملية القراءة طرفان لا يمكن للنقد أن يستغني عنهما، فهنالك قارئ يتخيله المبدع ذاته. لذا أجد أن الركائز الأساسية المتحكمة فيهما تكمن في عدة عوامل مختلفة منها:

- **العامل الزمني**: إشكالية الزمن في النقد الحديث تكمن في انقسامه إلى زمنين هما:

- زمن المبدع/عملية الكتابة: وغالبا ما يكون هذا الزمن متقطعًا وطويلاً، وذلك بحسب الدفقات الإبداعية والفيض الإلهامي، فقد يمتد الزمن إلى أيام أو أشهر أو سنوات وربما إلى ساعات. وأغلب الكتاب يدونون تاريخ نهاية العمل في آخر الصفحات، وتاريخ البداية في المقدمة.

- زمن القراءة: وهو زمن غير محدود ولا مضبوط، ولا يخضع لقوانين الحصر الزمني، وهذا النوع من الزمن يختلف باختلاف القراء، فقد يكون زمن القراءة مصاحبًا لزمن صدور العمل أو بعده.

إن إشكالية الزمن في النقد الحديث يمكننا التغلب عليها في القراءة الحرة الشمولية باتباع عملية تركيبية، أي أن نفكك أولاً الأحداث إلى وحدات وجزئيات، ثم نعيد بعد ذلك تركيبها وفق سياقها التاريخي الجديد الذي نتخيله ونتوقعه، ونعيد بناءه ونحن نمارس عملية التفكيك والتركيب، وبمعنى أدق، إن الزمن في القراءة الحرة الشمولية يخضع لعملية رياضية تعرف بالاحتمالات، فالناقد يقوم بوضع عدة احتمالات

وفرضيات لترتيب مجرى الأحداث والوقائع معطياً نفسه أحقية التأويل والترتيب، وهو بهذا يعيد بناء أحداث العمل من جديد شاعراً بأنه هو المبدع الفعلي للعمل الأول والأخير، حاكماً بموت المؤلف بمجرد صدور عمله، نافياً عنه صفة التملك.

كما يمكننا القول بأن القارئ الحر الشمولي هو صاحب السلطة في الكتابة والقراءة والصانع والمرتب لمجريات الأحداث وفق تسلسلها الزمني، ولهذا العمل الزمني المتحرر من ربقة المبدع المأسور بيد القارئ الحر الشمولي، قوة يفرضها على القارئ، ألا وهي التحلي بأدب التعامل مع الزمن كما هو دونما تحريف؛ فمثلاً لو وجدنا رواية ما تحدثنا عن عهد من عهود الإنسان، فما على القارئ إلا أن يغوص بذاكرته في تلك الفترة، فلا يتعامل مع النص إلا بلغته معطياً القيمة الحقيقية للأشياء، حتى لو بدت في عصرنا هذا هينة أو تافهة أو غريبة لا تصدق، فهي حتماً عند أهلها تمثل الكنوز والحكمة، وربما الأمور التي بسببها فنيت الأجيال وتغيرت الحياة.

- العامل الثقافي والعلمي: ما لا يمكن أن نتناساه في تحديدنا لأسس القراءة الحرة الشمولية هو العامل الثقافي والعلمي، حيث إن الثقافة تؤدي دوراً مهماً وعظيماً في ضبط القراءة وتوجيهها، كما تغني العمل إغناء كبيراً؛ ذلك أن الثقافة في عمومها امتزاج وتخمر لجملة معارف وعلوم، وسلوكات وأنظمة حياة، وبفضلها - الثقافة - تتميز الأشياء.

أما العلم فهو أقل حظاً من الثقافة؛ وذلك لارتباطه بالقوانين الدقيقة، والتجارب الصحيحة، والتقنيات المتطورة، فالعلم يتعامل مع الشيء كجسم مركب له أعضاء ووظائف، فيقوم بتشريح الجسم وإعطاء الوظائف والمهام لكل عضو حسب فهم العالم وإرادته، بينما الثقافة تمزج العلم بالعادة والسلوك غير العلمي أحياناً.

وإحساساً منا بأهمية هذا العنصر الثقافي والعلمي - عددناه في المرتبة الثانية، فالقراءة الحرة الشمولية بقدر ما تبحث عن الحقائق الحرفية في النص، تحاول أن تمنطقها وتسبغ عليها الصبغة العلمية، هذه الممارسة في حد ذاتها تدفع بالقارئ إلى إجراء عملية تثقيف للنص، فيكشف عن أسسه الثقافية، وتوجهه الحضاري معطياً إياه سلطة البوح بمخزونه الثقافي الذي يتجلى في السلوك والعمل والقول والاعتقاد، وغيرها من حاضنات الثقافة.

والقارئ الحر الشمولي بين تغليب العلم على الثقافة أو العكس يقع في مرحلة التيه والمد والجزر، فتأتي القراءة الحرة الشمولية المنتمي إليها، التي تمسك بطرفي المعادلة، ولا تغلب الثقافي على العلمي أو العكس، وإنما تعطي ما هو قابل للتفسير العلمي مجاله، وما هو قابل للتفسير الثقافي مجاله، والقارئ وجب عليه التحلي بأدب العدل والفطنة، فلو وجد ظاهرة علمية في النص تخالف العلم، ولكنها من باب الأخطاء الشائعة ثقافياً، فعليه أن يفند ذلك علمياً، ويدلل على سبب جعلها مغروزة في الذاكرة الثقافية، وبهذا العمل يؤدي واجباً علمياً وثقافياً، كاشفاً عن ظاهرة ثقافية قد تمتد إلى عدة أجيال.

- العامل النفسي: ليس من السهولة بمكان أن نخضع القراءة كل النصوص، وإنما نحاول جاهدة وضع التفسيرات النفسية للدلالات العلامية الموحية بالهواجس النفسية، والطاقات الشعورية، رابطة بين عالم النص وعلم التحليل النفسي للنصوص، مسترشدة بمصطلحاته. غير أن الإشكال الذي يواجه القارئ للنصوص هو كيف يبحث بتحليل علم النفس في شخص المبدع أو أشخاص عمله؟ وهل كل عمل هو اعتراف تدويني من صاحبه؟ بمعنى أنه سيرة ذاتية؟

إننا إذا سايرنا هذا الطرح، وحكمنا عليه بالإيجاب، فإننا لا نقدم للمتلقي الحقيقة كاملة، فهل كل قارئ يعرف معرفة ولو جزئية حياة المبدع؟ ودوافع إبداعه؟.

لمواجهة هذا الإشكال تأتي القراءة الحرة الشمولية لتوجيه التحليل النفسي للنص أولاً، وبعد ذلك للمؤلف حسب معرفة القارئ له، فنحن في القراءة الحرة الشمولية في عاملها النفسي نبحث داخل النصوص عادين إياها كائناً حياً يسر ويعلن، ومن خلال ألفاظه وأحداثه ورموزه ومداولاته نحلل نفسية النص داخلين بذلك في ما يمكن أن نعده نفسية المجتمع الذي ينتمي إليه المبدع والقارئ، ولو كانا مختلفين، لأن نفسية المجتمع لا تظهر إلا في النصوص.

إن المسكوت عنه داخل النصوص يشكل نسبة عالية، ولا يمكننا أن نتصور وجود نص من دون وجود نصوص محذوفة أو مسكوت عنها

فالعامل النفسي يتطلب من القارئ آداباً جمة، منها أن المتلقي للنص لا يحكم عليه انطلاقاً من شخص مبدعه وانتمائه وميوله، وإنما يأتي الحكم على النص بعد سبر أغواره، وتحليل رموزه، وربط صوره بمدلولاتها في الحياة والمجتمع.

وأن يكون القارئ متمتعاً بموهبة تقمص الشخصيات والثقافات، فلا يحلل النص نفسياً إلا بعدما يتشربه ويحوله إلى ذاته، ويحيي عوالمه الظاهرة والخفية، بالإضافة إلى كون القارئ في تحليله النفسي ملماً بعلم مدرسة التحليل النفسي، متشبعاً بثقافته الأصيلة محاولاً ربط التخيل عن مجتمعه وثقافته بأصوله الحقيقية التي هي في الأخير مرجعية كل عمل إبداعي.

- العامل الاجتماعي: نغيب في القراءة الحرة الشمولية تماماً البنى التحتية والفوقية لفهم النص وبنائه، كما يغيب أيضاً كل نظرة مادية وتجارية للنص، وتبقى فقط النظرة الجمالية، حيث إن كل نص هو في حقيقته شعور اجتماعي يحسه المبدع بحكم انتمائه إلى مجتمع، فهو الضمير الجمعي الذي يدفع بالمبدع إلى التعامل مع قضايا مجتمعه تعاملاً يصيب الأنا الفردي، والمصالح الفئوية الضيقة، فالنص بخضوعه للعمل الاجتماعي وفق القراءة الحرة الشمولية يعمل جاهداً على تحقيق عدالة اجتماعية في ضبط قضايا المجتمع ورصدها بكل شرائحه الطبقية، والتعبير عنها بروح جماعية، فكأن المبدع هو المجتمع، والمجتمع هو المبدع، بمعنى أن القراءة الحرة الشمولية تنظر إلى عامل المجتمع على أنه لبنة أساسية في إخصاب القدرات النصية على قول ما أراده المبدع، كما أنها تتعامل مع النصوص بحسب وجودها الاجتماعي، فعندما أقرأ نصاً لمجتمع رأسمالي أو اشتراكي أو حتى بدائي، علي أولاً أن أتحلى بآداب ذلك المجتمع وأخلاقياته، وعلي أيضاً أن أجعل ثقافتي

الخاصة بالمجتمع المدروس أصيلة ومهيمنة على ثقافتي الحقيقية، وأعدّ نفسي من المدافعين المتحمسين عن المجتمع، وثقافته، هذا إن لم أكن من المنظرين له.

القراءة الحرة الشمولية في تعاملها مع النص تفرض على القارئ والقراءة آداباً أساسية، منها ألا ننخدع في النصوص لشهرتها أو لعدمها، كما يجب أن ننظر إلى النص وفق سياقه الزمني والثقافي والعلمي والنفسي والاجتماعي، فكل عنصر يدعم الآخر.

كيف يكون الفعل القرائي مؤثراً ومثيراً في عالم النص؟

إن العوامل الدافعة لتجلية النصوص وكشف غوامضها تنطلق أساساً من جملة أشياء منها الآليات (الإجراءات العملية)، والنص، وزمن القراءة (متى نقرأ)، وباختصار نوجزها في: بماذا؟ ماذا؟ متى؟

يعتقد الكثير من النقاد الحداثيين أن الفعل القرائي يرتبط بآليات عملية بفضلها نتعرف النص، وهذا اعتقاد لا شك فيه، ولكننا عندما نحوله من مفهوم مجرد فلسفي إلى مفهوم عملي إجرائي تعترضنا عراقيل جمة، منها مثلاً: لماذا اختار هذا الإجراء؟ أو هذا المنهج دون الآخر؟ والإجابة بطبيعة الحال تتنوع وتتعدد، غير أنه في القراءة الحرة الشمولية تبدأ الصعاب تذلل كلما اقتنع المطبق للمنهج قناعة لا يرقى إليها شك في أن النص وحده غير قادر على هدايتنا للإجراء الفعال، وأن القارئ عاجز كل العجز - في بدايات التعرف إلى عالم النص - عن الاهتداء للإجراء الملائم، إنه إذا اقتنع بهذا المبدأ أولاً، نجده يتحرك في الخطوة الثانية إلى إجراء جلسات حوار وتعارف مع النص، وهذا السلوك يقوم أساساً على معاملة النص كشخص عاقل وواع، لكنه مصاب بنوع من الاهتزاز النفسي، وباختصار يتحول الإجراء في هذه الخطوة إلى ممارسة تقنيات الطب النفسي حيث تشكل المعادلة التالية:

المعالج ———— المعالَج ———— العلاج

القارئ ———— النص ———— الإجراء العملي

والخطوة الثالثة التي على القارئ الحر الشمولي أن يخطوها في باب الآليات العملية هي فترات الراحة، فعلى القارئ ألا ينهك قواه العقلية، والجسمية، وحتى الروحية ليجهز على النص إجهازاً كاملاً، وإنما عليه أن يترك لنفسه وللنص فترات متقطعة من الزمن، ليجدد هو قواه، ويرتب أفكاره من جديد، وليعطي النص لحظات الاستقرار والثبات على الحالة التي تركه عليها، وفي هذه الفترات المتقطعة من الراحة نجد، بصفة لا شعورية، أن العلاقة بين القارئ والنص تزداد حميمية وتشتد وتقوى، والحقيقة أن هذه الراحة هي بمنزلة الوقت المستقطع عند لاعب الكرة.

هذا الوقت هو الذي تعاد فيه جدولة كل العملية وسد الثغرات، وتكييف الضغط بالأساليب الناجعة.

وفي الخطوة الرابعة يشرع القارئ الحر الشمولي في تحليل النص مستفيداً من وسائل كثيرة مبسوطة أمامه، فيختار في كل لحظة زمنية، ومقطع نصي الوسيلة المحققة للغرض، وهو هنا يشبه في عمله عمل الجراح، ومثل هذا التحول من العلاج النفسي إلى العلاج الجسدي للنص، ليس من باب التعارض أو التناقض، وإنما من باب التكامل والتواصل، وفي هذه المرحلة الرابعة يكون القارئ والنص قد حققا قيمة كبرى ممثلة في اللحمة بينهما إذ تسير المعاصرة والأصالة جنباً إلى جنب، كما يكون النص أكثر قابلية لممارسة القارئ الحر الشمولي، ويكون هذا الأخير قد شارف حدود الوصول إلى دراسة النص من كل جوانبه، وبكل خلفياته وحيثياته لا سالباً ولا مستلباً. أما الخطوة الخامسة والأخيرة من مراحل الآليات الإجرائية في القراءة الحرة الشمولية فتتمثل في إنتاجية النص من جديد وإعادة صياغته، وكأننا بالقارئ تحول إلى جراح بعدما نجح في استئصال الداء، فلم يبق له إلا إرجاع الأمور إلى حالتها العادية مع مراقبة ما بعد العملية، كذلك القارئ الحر الشمولي بعدما ينجز دراسته يصبح له نصان اثنان:

النص الأول: وهو الذي أجرى عليه القراءة، بمعنى النص الإبداعي.

النص الثاني: وهو القراءة للنص، بمعنى النص النقدي.

> القراءة الحرة الشمولية لا تنجز ما لم يكن صاحبها يتمتع بثقافة شمولية وبفكر حر وإحساس جمالي وذوق رفيع

وبطبيعة الحال الفروق الإبداعية بين النص الأول والثاني تظهر للعيان، إذ إن النص الأول هو إبداعي محض، بينما النص الثاني نقدي إبداعي.

النص الأول ساكت وساكن، لا يقول شيئاً إلا إذا دخلنا معه في مرحلة استنطاق، بينما النص الثاني ناطق متحرك يقول كل شيء لم يقله النص، ويبقى دوماً يبحث عما يخرجه من لحظة السكون التي هو عليها إلى لحظات تجدد دائم، إنها لحظات الانعتاق الكلي، ومع هذه الفروق نجد أيضاً نقاط الالتقاء والتقاطع بين النصين؛ إذ إن النص الأول يشترك مع النص الثاني في فلسفة زاوية الرؤية للوجود لكل من المبدع والقارئ الحر الشمولي، كما يلتقيان في الحالة التي من المفروض أن تكون - أي الاتفاق حول ما يجب أن يكون لا ما هو كائن - ولا سيما إذا عرفنا أن منية كل إبداع تقديم الحلول والأسباب التي تعجل بتحقيق إنسانية الإنسان وحضارته. بعد الكشف عن الآليات الإجرائية التي بها تتحقق القراءة الحرة الشمولية نصطدم أمام إشكال النص في حد ذاته، فهل كل نص ينفتح على القراءة؟ وهل الخصائص المميزة للنصوص المتعددة ثقافياً ولغوياً وفكرياً (إيديولوجيا) تشيئ القراءة؟ وهل علينا في العملية القرائية أن نتعامل مع النصوص تعامل القاضي مع المجرم؟ وهل حقاً القراءة تتهم النص، وأنه على النص تبرئة ذاته؟

إن مثل هذه الأسئلة الخطيرة في المركز الفلسفي للقراءة الحرة الشمولية هي عمود قيامها وأساس انبعاثها، ولنبدأ من حيث انتهت الأسئلة، أي بين الإدانة والاتهام، والدفاع والتبرئة، فالنقد العربي القديم حتى أواسط القرن التاسع عشر يتعامل مع النصوص الإبداعية من منطق استعلائي، فهناك قواعد وقوانين يميز بها الغث من السمين، والجيد من الرديء حتى إنه غلب على تسميته بالنقد الانطباعي الذاتي أو النقد القيمي. إذن فهو ينظر للنص نظرة القاضي للمتهم متى ثبتت

عليه الأدلة، حكم له أو عليه، مثال ذلك نقد المهلهل، وأم جندب، وزهير، وأبو هلال العسكري، وابن قتيبة والقرطاجني...إلخ. فالتعامل الذي خص النص تأسس على قوانين، ومن خلالها انطلق النقاد في التقسيم والتقويم، فكانت أعمالهم تلك شبيهة بقوانين «بوالو» عميد النقد الكلاسي الغربي. غير أن الهزة التي تلقاها النقد العربي القديم بفعل الموجة العاتية لأهل الحداثة والتجديد جعلت الكثير من المفاهيم والقوانين لدى نقادنا تتغير؛ بل إن هناك من حاول تأسيس نقد حداثي عربي جديد بعد القراءة الواعية للتراث والاستفادة منه مختزلاً ذلك كله في ثنائية الاتصال المنفصل، وعلى رأس هذا التيار يقف أدونيس بكل شموخ.

وبالفعل كانت المسيرة قاسية، لكنها فعالة، ومن كانت بدايته محرقة، كانت نهايته مشرقة.

وتحول النقد، وأصبح ينظر للنص على أنه مساوٍ له إن لم يكن أرقى وأسمى منه، وكانت المشاكسة بين النص والنقد لا تنتج العداوة والتدابر، وإنما تنتج تلاحماً حميمياً يحدده الإقبال والاحتضان، وبذلك انتهت آخر جلسات المرافعة لتغير ما ركد من القوانين وأسن، وتندفع بالحركة النصية إلى تفتيق غوامض النقد قبل النص.

إننا في القراءة الحرة الشمولية نعتقد اعتقاداً راسخاً بأن النقد والنص بينهما نقاط اتصال كثيرة، وأن الممارسة النقدية تغيب بداية ونهاية كل القوانين التي تقيد النص، وتجعل منه مجرد متهم في قصر العدالة النقدية ليرافع عن نفسه بنفسه، وأن النص والنقد كالليل والنهار لليوم، والشمس والقمر للكون.

كما نؤمن أيضاً بأنه: لا النقد ولا النص يستطيع أحدهما الاستغناء عن الآخر، وأنه يستحيل التفريق أو التمييز الثقافي والمعرفي بينهما، فعهد (الأبارتايد) الثقافي قد انتهى، لأنه لا قيام للواحد منهما من دون وجود الآخر، فكما يمثل النص أرضية صلبة لنمو النقد وتحقيق نظرياته، كذلك الشأن للنقد فإنه يمثل الدعامة القوية التي تسند النص حتى يبلغ أشده، ويستوي على سوقه.

إن المسألة الأخرى والخطيرة التي تواجه النقد الحديث هي ظاهرة (التشيؤ)، بمعنى أن يتحول النص في نظر النقد إلى مجرد هيكل أو جسم مادي يحتكر عناصر حياته ووجوده، وبمجرد الظفر بها يفقد مصداقيته ويلقى جانباً، ولا تعطى له أدنى قيمة، فيفقد النص بذلك نصيبه ويتحول النقد إلى استغلال أو لنقل مصاص دماء جديد، وهذا الموقف في جوهره وحقيقته أحط من موقف النقد الكلاسي، لذلك لا غرو أن نجد في القراءة الحرة الشمولية ثورة على هذا المنطق، وسعياً حثيثاً أولاً وقبل كل شيء إلى تغيير مثل هذه المفاهيم، ثم إنها تنظر إلى النص على أنه ينبوع حياة متى نضب أوغار منه الماء، لا نستغني عنه أو نردمه، وإنما نقوم بعملية استصلاحه وتجديد مجاري حياته ومنابعه، فإن تيقنا بعدم جدوى العملية استفدنا منه في عمل حياتي جديد. وعليه فالقراءة الحرة الشمولية لا (تشيئ) النصوص. وإنما تنفخ فيها روح الحياة من جديد، وإذا كانت القراءات الأخرى تستنزف النص تأكيداً لسلامة نظرتها وسعة ثقافتها وتخصص عملها، فإن القراءة الحرة الشمولية، بقدر ما تفتق وتفلق النص وتشرحه، تبعث فيه الحضور بقوة كعالم مستقل بذاته يتجدد مع كل مستجدات الحياة، كما تجعل منه منحنياً عنيداً للقارئ أو الناقد، محولاً الصراع إلى دائرته، مبادراً إياه بالأسئلة، فاتحاً له مجال الحوار الهادئ والفعال، وينجذب القارئ إلى النص بفعل هذه العملية الإغرائية الإغوائية، فينفتح النص على ذاكرة القارئ وآلياته وثقافته.

القراءة الحرة الشمولية (تشيئ) النصوص، وتبعث فيها روح الحياة من جديد

فهي إذن - القراءة الحرة الشمولية - تعمل جاهدة على تخليص النص من فكرة (التشيؤ)، والأسبقية في الوجود، والأحقية في البقاء التي يعاني منها جراء آليات النقد الحديث والمعاصر، والتي تعتقد أن الخلفيات والمكونات الثقافية والفكرية و(الأيديولوجية) للنصوص هي السبب الوحيد الذي عجل بفكرة (التشيؤ)، فكلما تعدد النص في بنيته الداخلية والخارجية أعطى الفرصة في قتل النص، وهنا بالضبط نصطدم بمسألة غاية في الأهمية تتمثل في: هل كل نص ينفتح على القراءة؟

تبقى النصوص عادة عديمة القيمة ما لم تتعرض للقراءة والنقد، والنقد يبقى مجرد قوانين وفلسفات ومفاهيم أيضاً ما لم يتجسد في عالم النص.

ومن هنا نعتقد أن الحكم المطلق بانفتاح كل نص على القراءة يوقعنا في أخطاء علمية، كما أن النفي التام هو أيضاً مغاير للروح العلمية، لأنه قبل «نعم» أو «لا» وبعدهما مساحات للحوار والجدال وتقديم الحجج والأدلة على الحكم بنعم أو بلا، فإذا حرقنا كل هذه المراحل وقعنا فيما وقع فيه الغراب المقلد، لذا نرى في القراءة الحرة الشمولية أن مسألة الانفتاح لا ترتبط أساساً كما هو حال النقد العادي بالعملية الانتقائية، ففي هذه الممارسة قهر وظلم للنصوص، وجري ربما وراء شهرة أصحابها لا شهرة النص. فالقراءة الحرة الشمولية لا ترفض هذه النظرة برمتها ولا تجعلها أيضاً الأصل في الممارسة النقدية، وإنما تعدها جزءاً من كل، أي إن الانفتاح لا يكون إلا بعد حوار تعارفي بين النص والقارئ لكسب نقطة مهمة في منهج القراءة الحرة الشمولية، ألا وهي مسألة الثقة المبنية على فلسفة أن النص يستمد قيمته وشهرته من مضامينه ونصيته، وليس من شهرة صاحبه.

إن مسألة الانفتاح في القراءة الحرة الشمولية ترتبط أساساً ومبدأ بقيمة النص التي يعطيها لنفسه لا من قيمة صاحبه، وهذا هو سر الخلود الذي حظي به شعر المعلقات والحكم ونثر المقامات، وحكايات السمر كألف ليلة وليلة.

فالخلود يبنى على قيمة النص التي تبنى هي بدورها على ضرورة انفتاحه بوعي تام وإجراء عملي عادل، فالانفتاح نهايته الخلود، والنص المنفتح هو النص الخالد الذي يتجدد نقده، وتتجدد قراءته كلما تجددت الحياة، وتبدلت المفاهيم.

نستطيع القول بعد هذا الطرح: إن القراءة الحرة والشمولية تمثل رؤية جديدة في عالم المناهج النقدية، وإن كنا لم نوضحها جيداً في مجال العمل / الممارسة، إلا أننا بيناها بوضوح من خلال مجالها الفلسفي، ونحن نعقد عليها آمال الأجيال الجديدة المؤمنة بالتغيير وتطلعاتها انطلاقاً من خصوصيات أمتنا وثقافتنا، معتقدين أن قيمة المنهج مستمدة من فلسفة القراءة.

من أعلام الإسلام في نيجيريا

آصف فولارن أحمد
إبادان . نيجيريا

يُعدُّ عصر الجهاد في التاريخ النيجيري (عام ١٨٠٤ـ١٩٠٦م) بقيادة الشيخ عثمان بن فودي الملقب بنور الزمان ومجدد الإسلام، نقطة انطلاق مريح لدراسة حركة اللغة العربية والدراسات الإسلامية في نيجيريا، ومن البديهي أن هناك ما فيه الكفاية من بحوث مطبوعة ونتائج مؤتمرات منشورة من رسائل الدكتوراه وأطروحات الماجستير في الجامعات النيجيرية وغيرها، جعلت مساهمات علماء عصر الجهاد في هذا الميدان عناوين لها. أما البحوث المتعلقة بالأعلام الناشرين للغة العربية والدراسات الإسلامية قبل عصر الجهاد فقليلة جداً وهي في غالب الأحيان إشارة عابرة، وليست دراسة وافية.

فهذه النبذة محاولة لسد الثغرة والفراغ، ونتمنى أن تكون ذات أثر قيم للبحوث المتعلقة بالمجال للباحثين والأساتذة والدارسين على السواء.

والجدير بالتأكيد من البداية أن الجدل المشهور الذي يتهم فيه السادة البرناويون أتباع عثمان بن فودي المجاهدين بتدمير الكتب العربية في المدن التي احتلوها في حروب الجهاد(١) يجب ألا يخوِّف الدارسين لحركات الدراسات العربية والإسلامية قبل الجهاد، فإن المطالبة بإثبات التهمة مشهورة، كما اشتهر عدم ورود أي إثبات مقنع من مدّعي التهمة. إلا أنه من المهم جداً أن نتذكر أن التوغل التاريخي قد يشكل خطراً جسيماً لبقاء المخطوطات أكبر مما تشكله عملية همجية عابرة. وكثرة النمل والدود كانت كذلك عدواً لدوداً أشد تدميراً لكتب المراجع في المناطق الاستوائية. قد يتحمل الإهمال مسؤولية انقراضها.

وعلى الرغم من ذلك كله، وحسب تجاربنا الخاصة في ميدان العمل الدراسي، فإن العدد الغفير من المخطوطات المتصلة بالدراسات العربية والإسلامية ودور قادتها فيها قبل الجهاد لا يزال متوافراً حتى اليوم، وإن كان العدد المتوافر لدينا عند كتابة هذا البحث قليلاً بالموازنة بالمخطوطات التي تحتفظ بها مكاتب جامعاتنا ومتاحفنا الوطنية. ومع ذلك فإن البحث يشكل نقطة انطلاق لمزيد من الدراسات.

ومن الفروض المشتهرة أنه دخلت الثقافة العربية والإسلامية غرب إفريقية بدخول الإسلام عن طريق التجارة خلال عصر المرابطين، وعند توغل المرابط أبي بكر عمر في إقليم نيجر بين عامي «٤٧١ـ٤٧٥هـ» (١٠٧٨ـ١٠٨٢م)، فالنقوش المكتشفة في منطقة غاو بدولة النيجر الفرنسية دليل قوي على وجود مراسلات بين الأندلس وإقليم النيجر عام ١٠٦١م / ٤٥٣هـ(٢).

وعلى أية حال، فإننا نجد فترة مئتي عام بين نقوش غاو والمصادر الباقية لآثار الناشرين للثقافة العربية والإسلامية في إقليم النيجر الذي نحن بصدد سوق الحديث عنه.

أما الأجيال المتعاقبة بعد تلك الحقبة فالمعلومات عنها متوافرة لأحمد بابا التمبكتي مصنف كتاب «نيل الابتهاج بتطريز الديباج»(٣) ويعدّ كتابه الأساس الذي بنى عليه الكتّاب الآخرون الذين كتبوا في الموضوع نفسه، أمثال عبدالرحمن السعدي صاحب تاريخ السودان، ومحمد بللو مؤلف كتاب «أنفاق الميسور».

أعلام القرن الخامس عشر

الشيخ عبدالكريم المغيلي

هو الفقيه محمد بن عبدالكريم المغيلي، المنسوب إلى قبيلة مغيلة إحدى قبائل البربر من تلمسان جنوب صحراء الجزائر حالياً؛ ويعدّ طليعة أعلام غرب إفريقية عامة والمناطق النيجيرية خاصة،

وصفه أحمد بابا في «نيل الابتهاج» بأنه خاتمة المحققين، وأحد الأذكياء الذين أوتوا بسطة في العلم والتقدم في الفهم. توفي عام ٩٠٩هـ-١٥٠٤م، ولم يذكر له تاريخ ميلاد(٤).

أخذ العلم عن أعلام كثيرين من علماء المغرب منهم الشيخ عبدالرحمن الثعالبي علامة المغرب المشهور(٥)، ومن معاصريه المشهورين الإمام الحافظ السيوطي المتوفى في سنة ١٥٠٥م، واعترف جميع معاصريه بعلمه وفضله وأمانته وغيرته على الإسلام، وأخذ عنه العلم كثيرون من المغاربة والسودانيين(٦).

كان عالمًا صوفيًا على الطريقة القادرية، ويقال: إنه أول من نشر الطريقة في غرب إفريقية، ووجدنا في المخطوطات المحفوظة بجامعة أبادن سلسلة قادرية للشيخ عثمان بن فودي تتصل بالشيخ عبدالقادر الجيلاني

العربية وآدابها والدين الإسلامي، حتى كثر فيها العلماء وبلغوا رقمًا خياليًا ذكره السعدي حيث: قال: إن ملك مدينة جيني قد جمع يوم إسلامه أربعة آلاف ومئتين من العلماء والفقهاء ليعلن إسلامه أمامهم سنة ٤٠٠هـ، ولم يخلّد التاريخ أثرًا لعالم عربي، غربي أو شرقي مثل ما خلده للإمام المغيلي في غرب إفريقية عمومًا وفي نيجيريا خصوصًا(١٠).

فلما وصل المغيلي إلى السودان الغربي استقبله الملوك والعلماء استقبالاً رائعًا كعادتهم في الاستضافة، وجعلوه من المقربين، فتأثر به جميع العلماء الذين اجتمعوا به أو الذين أخذوا عنه العلوم، أو أخذوا عن تلاميذه، حتى امتازوا عند علمائنا بمعاصري المغيلي، وامتاز عصرهم بعصر المغيلي(١١).

فمن العلماء البارزين الذين تأثروا بفتاوى المغيلي وسيرته وغيرته على

على الإسلام والدفاع عنه باللسان ثم باليد ثم بالسلاح واستعمال القوة، تأثر به حتى صار ينقل من كتبه كأنما ينقل عنه مشافهة. ففي كتابه «حصن الأفهام» عزا النقل إلى المغيلي، ونسب نفسه إليه كالتلميذ الذي سمع وأخذ عن المغيلي مباشرة مع ما بينهما من بعد العهد الذي لايقل عن ثلاثة قرون(١٣).

ومؤلفاته كثيرة، تم تحقيق بعضها وطبعه، وصارت متداولة، وذكر صاحب «نيل الابتهاج» في ترجمته عددًا كبيرًا من مؤلفاته(١٤) منها:

تعريف فيما يجب على الملوك، ومختصر فيما يجوز للحكام في ردّ الناس عن الحرام، وأجوبة على أسئلة أسكيا محمد، سلطان سنغاي، وتأليف فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار، وأحكام أهل الذمة، وورقة في عمل اليوم والليلة، والبدر المنير في علم التفسير، ومصباح الأرواح وأصول الفلاح، والمغني النبيل في شرح مختصر الخليل، وإكليل المغني - وهومجموع تقييداته على شرح المختصر، وشرح بيوع الآجال، وتلخيص المفتاح للقزويني، وتأليف في المنهيات، ومفتاح النظر في علم الأثر، وشرح الجمل للخونجي، والمقدمة في علم المنطق، ومنح الوهاب، وهومنظومة المغيلي في المنطق، وشروح النفحة والمنح والمنظومة، وتنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين.«في التصوف»، وشرح خطبة المختصر، والمقدمة في العربية، والفتح المبين، إلى جانب مجموعة قصائد.

ويمكن الوقوف على مقدار مساهمة المغيلي في نشر دراسات اللغة العربية والدين الإسلامي بالبحث عن هذه المؤلفات وتحقيقها وتحليلها، وعن المجهولين من تلاميذه الذين أخذوا عنه

النقوش المكتشفة في منطقة غاو بدولة النيجر دليل قوي على وجود مراسلات بين الأندلس وإقليم النيجر عام ١٠٦١م / ٤٥٣هـ

البغدادي من ضمن رجالها القادرية الشيخ عبدالكريم المغيلي(٧).

ويقرأ من عنوان كتابه «تنبيه الغافلين»(٨) ما يدل على نقاء تصوفه وتجرده من البدع والخرافات.

خرج المغيلي إلى بلاد السودان، وقضى معظم حياته في أهر وتكده بدولة نيجر الفرنسية وكانو وكتشنته بنيجيريا معلمًا وواعظًا ومؤلفًا، خلف آثارًا قيّمة وذرية مشهورين في مدينة كانو(٩).

لقد دخل عدد من أعلام الإسلام المغاربة إلى بلاد السودان منذ فجر الإسلام، وعملوا فيها على نشر اللغة

الإسلام الشيخ البكري «البروناوي» الذي أخذ عن تلاميذ المغيلي.

كان المغيلي يكفّر من صدر عنه ما لا يصدر إلا عن كافر، ولولم يعتقد الكفر؛ ولذلك يكفر البكري بعض الفلانيين من أجل المادة التي رواها عنهم محمد بللو في «إنفاق الميسور» والتي صارت موضوع جدال بين البكري وعبدالله ثقة الكتشنوي الذي كان تلميذًا له(١٢).

انحاز عثمان بن فودي إلى ناحية البكري وأيد فتوى المغيلي، وتأثر بسيرته وفتاواه ورسائله ووصاياه التي ورثها من علماء بلاد هوسا، وفي غيرته

الطريق المباشر وغير المباشر، وكل من تأثروا به من أصحابه ومعاصريه.

الشيخ أحمد بن عمر أقيت

يفيدنا المصدر السابق الذي استقينا منه المعلومات عن نشاطات الشيخ عبدالكريم المغيلي أعني كتاب «نيل الابتهاج» لأحمد بابا أن الشيخ أحمد بن عمر أقيت المشهور بالحاج أحمد كان من علماء تمبكتو الذين زاروا مدينة كانو ضمن المدن السودانية الغربية الأخرى(١٥).

وأورد الشيخ أحمد بابا الخبر نفسه في كتاب آخر له بعنوان «كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج»، وهو مخطوط رقم ٤٠٢٨، من قائمة الكتب بالمكتب الوطني المغربي(١٦). وأورده الشيخ السعدي في تاريخ السودان(١٧)، وأورده الشيخ محمد بللو في ترجمته لعلماء بلاد تكرور، ويستفاد من المصدر أن الشيخ هو جد والد أحمد بابا وأكبر الإخوة الثلاثة الذين اشتهروا علماً وديناً في قطرهم، وأنه كان من أهل الخير والفضل، حافظاً على المنة والمروءة، محباً للنبي صلى الله عليه وسلم، ملازماً لقصائد مدحه ولكتاب الشفا في حقوق المصطفى للقاضي عياض. ويقال إنه كان فقيهاً لغوياً نحوياً عروضياً محصلاً، اعتنى بالعلم على طول عمره، وله كتب عدة كتبها بخطه مع فوائد كثيرة(١٨).

ويقال أيضاً إن زيارته لكانو والمدن السودانية الأخرى كانت عند استشراقه وحجه، وأنه اجتهد في تدريس العلم وإفادته. وانتفع به جمع كثير في التحصيل حتى توفي عام ثلاثة وأربعين وتسعمئة عن نحو ثمانين سنة (٩٠٣-١٤٩٧م)(١٩).

والشخصية الأخرى التي ذكرها أحمد بابا التمبكتي هي الشيخ عبدالرحمن بن علي بن محمدالقصري. لكنه رجع إلى فاس وتولى الإفتاء هناك نحو عام (١٥١٨م / ٩٢٤هـ)(٢٠).

المساجد والمراكز الإسلامية شاهدة على رسوخ الإسلام في إفريقية

أعلام القرن السادس عشر

محمد أيد أحمد التاذختي

ومن خلفاء الشيخ عبدالكريم المغيلي المشهورين بنشر العلوم العربية والإسلامية بالتدريس والتأليف والدعوة في ولايات هوسا: القاضي محمد بن أحمد التاذختي. ذكر أحمد بابا أنه اشتهر بلقب أيد أحمد، أي ابن أحمد، وأنه كان فقيهاً عالماً متفنناً كثير المنازعة. قرأ على جده الفقيه الحاج أحمد بن عمر، وعلى خاله الفقيه الصالح علي. ولقي الإمام المغيلي بتكده وحضر دروسه، ثم رحل للشرق بصحبة الفقيه محمود. فلقي العلماء الأجلاء مثل شيخ الإسلام زكريا وبرهان الدين القلقشندي، وابن أبي شريف، وعبدالحق السنباطي وجماعته. وحضر دروس الأخوين

اللقانين، وأجازه من مكة أبو البركات النويري، وابن عمه عبدالقادر، وعلي ناصر الحجازي، وأبو الطيب البستي وغيرهم(٢١).

وعند عودته إلى السودان توطن في كاتشنة فأكرمه صاحبها وولاه القضاء، وتوفي عام (٩٣٦هـ-١٥٢٩م) عن نيف وستين سنة من العمر(٢٢).

وورد في المصدر نفسه أن له تقييدات وشروحاً على مختصر الخليل مما يدل على أنه استقبل التلاميذ وقام بالتدريس إلى جانب توليه القضاء.

مخلوف بن علي بن صالح البلبالي

من جيل أيد أحمد التاذختي الذي انتشرت الدراسات العربية والإسلامية على يديه في كانو وكاتشنة والمدن

الكبيرة الأخرى في شمال ما يعرف الآن بنيجيريا.

وكان تلميذاً لعم أحمد بن بابا الكبير عبدالله بن عمر بن محمد أقيت بو الاتا، وكان تاجراً، ثم هجر الحياة التجارية للحياة العلمية، ورحل إلى المغرب، وأخذ عن ابن الطازي وعلماء آخرين أجلاء، ويقال: إنه حافظ لصحيح البخاري، وكانت زيارته للاستيطان في نيجيريا بعد ذلك، ورجع إلى تمبكتو في آخر أيام حياته، ثم إلى المغرب بعد ذلك، حيث يقال: إنه رجع إلى بلاده، وتوفي هناك مسموما نحو سنة (١٥٣٢م /٩٤٠هـ)(٢٣).

ومصدرنا الوحيد لترجمة الشيخ مخلوف البلبالي، شيخ أحمد بابا، ولم يذكر شيئاً عن مؤلفاته. ويقال: إن له رسالة جدلية حول مسألة الغسل الشرعي والموقف الشرعي للأرقاء السودانيين المجلوبين من بلاد هوسا(٢٤). وعلى أية حال، فإن إلمامنا التام بالأعمال التي ساهمت بها هذه الشخصية في مجال الدراسات العربية والإسلامية عن استيطانه الأجزاء النيجيرية يتوقف على تحصيل المزيد من الأدلة التي توافينا من البحوث التي تجري على مؤلفات أحمد بابا، والتي لا تزال مستمرة في الأوساط العلمية.

الإمام أحمد بن فرتو البرناوي

هذه الشخصية من الذين ذكر أحمد بابا تاريخهم من علماء الجيل الخلف للمغيلي، ولكنه ينتمي إلى مدرسة علمية غير مدرسة تمبكتو أو الإفريقية الغربية. فقد قام بتحقيق مؤلفاته الرحالة الإنجليزي السيد رتشموند بالما SIR RICHMOND PALMER، وصار مشهوراً في الأوساط العلمية، ومصدراً قيماً للمؤرخين(٢٥). ويبدو أن دائرة نشاطه قد اتسعت في الربع الأخير من القرن السادس عشر، فقد شغل منصب كاتب الدولة لمي إدريس ألومة نحو عام ١٥٧٥م، وسجل لنا تاريخ الغزوات التي شهدها مع الملك البرناوي «إدريس ألومة» وعلى الرغم من أن الكثير من نشاطاته الأخرى لا تزال غامضة، فإنه يعدّ من رعيل العلماء الأولين الذين ساهموا في نشر اللغة العربية والعلوم الإسلامية في نيجيريا؛ فقد نجح بوصفه إمام الدولة في حمل سلطان إدريس بن علي ألومة الذي ملك برنو بين عام ٩٧٠ وعام ١١١٢هـ، / ١٥٦٢ - ١٦٠٣م، على التمسك بالكتاب والسنة، والتغليظ على أهل البدع والمحدثات، وتطبيق الشريعة، والسير على نهج إسلامي خالص، والاعتناء بالمساجد والأرامل والأيتام والضعفاء والمساكين(٢٦).

دخل عدد من أعلام الإسلام المغاربة إلى بلاد السودان منذ فجر الإسلام ونشروا الدين الإسلامي واللغة العربية وآدابها فيها

أعلام القرن السابع عشر

وبانتهاء القرن السادس عشر انقطعت أخبار الأعلام الذين سجل لنا أحمد بابا تراجمهم لوفاته، وغدونا نرتضي بالأخبار والآثار الباقية عنهم في كتاب «إنفاق الميسور». وإن لم يكن من المحتمل أن تمثل البحوث الموجزة التي بين أيدينا كل مساهماتهم في ميدان نشر الإسلام واللغة العربية، فما لايدرك كله لا يترك كله.

الشيخ البكري

ولعل أول شخصية لهذا العصر هو الشيخ البكري، وصفه محمد بللو بأنه العالم العلامة المتفنن الفهامة، وأنه شيخ الشيوخ، ذو الفهم والرسوخ في العلم. أخذ العربية والبلاغة في جاندوت «في إمارة كتشنا القديمة» وتلمذ للشيخ النجيب التكداوي الأنصوني الذي كان على قيد الحياة عندما ألف أحمد بابا كتابه «نيل الابتهاج» وتخرج البكري فيه عالماً متفنناً، فرجع إلى بلاده وتصدر للتدريس حتى توفي(٢٧).

وسبق أن قلنا: إنه ممن تأثروا بفتاوى المغيلي وسيرته وغيرته على الإسلام، فهو من التلاميذ غير المباشرين للمغيلي.

ومن تلاميذه البارزين العالم العلامة الفقيه أبو بكر الباركوم المعروف بابن آجروم، له تآليف تدل على وفور علمه، منها: «العقيدة المعروفة بشرب الزلال»(٢٨)، ولعل هذا التأليف نثر وليس بالنظم الآتي للشيخ عبدالرحمن

البرناوي، هذا وإن الإعلان الذي كتب عن مدينة غسر غمو عام ١٦٥٨م يفيد بأن المدينة بلغت آنذاك الذروة من الرقي والتقدم والازدهار، ففيها أربعة من المساجد التي تقام بها الجمعة، تتسع لعدد ضخم من المسلمين عرف المسجد الأول باسم غريبايا وإمامه هو الشيخ محمد أجرمي أي ابن بنت الحاج، مؤلف كتاب «شرب الزلال»(٢٩).

ومن هؤلاء الشيخ محمد الكنشناوي المعروف بابن الصباغ وهو عالم ومعلّم وأستاذ جليل مكاشف كما ذكره محمد بللو في «إنفاق الميسور»، ومن تلاميذه ابن مسنة ويقال: إنه توفي عام ١٦٥٥م، ومن آثاره الباقية «شرح على عشرينيات الفازازي» وصفه محمد بللو بأنه لم يشتهر(٣٠).

وله أرجوزة للفتيان، نشرنا مقالة عنها، وهي قصيدة فيها تشجيع للصبيان، وحثّ لهم على طلب العلم لأن ثمرته دنيوية وأخروية(٣١).

ومن تلاميذه الشيخ العلامة عبدالله محمد مسنة بن محمد بن عبدالله نوح البرناوي الكنشناوي، يقول محمد بللو: له تواليف تدل على وفور علمه، منها: «النفحة العنبرية في شرح العشرينيات»، و«البزوغ الشمسية في شرح العشماوية»، و«أزهار الربا في أخبار يربى»، و«الخطبة الافتتاحية للنفحة العنبرية»، تعطي نبذة عن ترجمته، توفي نحو عام ١٦٦٧م وله من العمر ٧٥سنة.

ومما يدل على أنه ساهم في نشر دراسات اللغة العربية أن له مؤلفات أخرى لها صلة بالمادة منها(٣٢):

- جزء لطيف ليس فيه حرف منقوط فوقانية ولا تحتانية.
- عين الخلاص في تلاوة سورة الإخلاص.
- نبذة يسيرة على معرفة ما يقبل الصرف وعدمها. وهي منظومة.

وله مؤلفات أخرى بقي بعضها واندثر بعضها الآخر.

ومن القائمين بأعمال نشر العلم والدين في القرن السابع عشر الشيخ الإمام العلامة عبدالله بن محمد بن عبدالسلام ثقة الكنشناري، وقد قمنا بدراسة مستفيضة عن حياته ونشاطاته في مقالة منشورة(٣٣).

والذي تجدر الإشارة إليه هنا أنه، كما يشير إليه محمد بللو في كتابه: «إنفاق الميسور»، اتبع طريقة تحصيل العلم التقليدية التنقلية، فرحل إلى اغدس في فزان، وأخذ عن ابن غانم، ثم انتقل إلى الشيخ البكري، فأخذ عنه محمد البغاوي والقاضي موسى غبر السوداني(٣٤)، وكما في تاريخ أرباب هذا البلد المسمى كنو، يبدو أن الكثير اعترف له بالفضل والعلم، وتمتع بتبجيله وإجلاله لما يمتاز به من ثقافة دينية، والتف حوله عدد من الناس للتعليم والتثقيف، وكما أضاف الكتاب في وصفه، له صوت جذاب عند ترتيله للقرآن، يعقد حلقة وعظ وإرشاد كل يوم بعد صلاة العصر، ويحضر جلسته الأمير بالليل، ويفسر القرآن له ليالي شهور رمضان، وهو نائب إمام الجامعة في المدينة(٣٥).

ويقال أيضاً: إنه أول من حفظ الصحاح الستة، وإن كان في هذا القول شيء من المبالغة المراد بها إظهار علمه وفضله، ويشبه هذا القول في المبالغة قول الآخر عنه في شعر:

مدينة العلم عبدالله ذاك ثقه

وفي التعدد خذ من بعده عمرا (٣٦)

هذا والأثر الوحيد الباقي لعبدالله ثقة مشهور لكنه لا يزال مخطوطاً عنوانه «عطية المعطي» وهو مجموعة مقطوعات شعرية على شكل ديوان تحتوي على الموضوعات الدينية التي أراد تدريسها لطلابه، وهي ميمية على البحر البسيط.

ويقال: إنه أول من أدخل ورد أهل البيت للطريقة القادرية في مدينة كانو، ومنها انتشر إلى بقية أنحاء نيجيريا، وتوفي في منتصف القرن السابع عشر الميلادي(٣٧).

تأثر بالمغيلي جميع العلماء الذين اجتمعوا به، وكان البرناوي من رعيل العلماء الأولين الذين نشروا الدين الإسلامي واللغة العربية

القرن الثامن عشر ورواد عصر الجهاد

هذا آخر القرون التي حددنا دراستها في هذا البحث، وهو حافل بالعلماء البارزين في مجال نشر اللغة العربية، ويشكل بعضهم طليعة لحركة الجهاد الذي قام في المنطقة ورواد الإصلاح الذي قاده الشيخ عثمان بن فودي، والدعوة إلى الإسلام خصوصاً في مملكة برنو وولاية هوسا.

محمد بن الحاج البرناوي

فمن علماء القرن الإمام محمد بن الحاج عبدالرحمن البرناوي المتوفى عام ١٧٥٥م، له قصيدة مشهورة باسم شرب الزلال، وهي ١٣٣ بيت شعر في الحلال والحرام(٣٨).

وله كتاب آخر باسم «الكوكب الدّري

في نظم ما جاء في الأخضري» ذكره كانسديل KANSDALE بأنه كتاب مدرسي في برنو في أوائل القرن الثامن عشر(٣٩).

ومحمد بن محمد الفلاني الكاشناوي توفي في القاهرة عند عودته من الأراضي المقدسة، آثاره باقية هناك حتى اليوم(٤٠).

ومن المحتمل أن ما ذكره محمد بللو عنه مستفاد مما كتبه عنه الشيخ الجبرتي، واهتمامنا به أنه أول من له آثار باقية في علم الحساب والنجوم، ودرس له الجبرتي.

قال الجبرتي: له يد طولى، وباع واسع في جميع العلوم، ومعرفة بدقائق الأسرار والأنوار. تلقى العلوم والمعارف

الحروف والأوقاف، و«منح القدوس في المنطق»، و«شرح منح القدوس»، و«بلوغ الأرب من كلام العرب»، و«شرح كتاب الدر والترياق في علم الأوقاف».

الشيخ إبراهيم طاهر الفلاني

عاش في عصر نضج الثقافة العربية في إمبراطورية برنو في عصر مي علي بن دأونامة في عصر السيفاويين وله منافسون وحساد ووشاة(٤٣).

آثاره الثقافية الباقية أكثر من آثار غيره من جيل عصره تناول معظم مجالات الموضوعات. يعرف أيضاً بالشيخ فيراما، وهذه صفة كانورية تنسبه إلى مكان ولادته «ذات بقر»(٤٤).

- نظمه على الكبرى السنوسية وشرحه.
- ونظمه للدرر اللوامع.
- «منار الجامع في علم التصريف».
- نظمه على الحكم ولعل هذا «الحكم العلوية المشهورة».
- وقصيدة في مدح دأونامة.
- وقصيدة البواب في الهجاء(٤٧).
- وقصيدة فاني فاني «النميمة» في الهجاء(٤٨).
- وقصيدة خبر الباسورة(٤٩).

محمد مودي بن صلا ح الفلاتي الكشنوي

من أعلام هذا العصر، وهو مجهول تاريخ الولادة والوفاة. واشتهر بمنظومته المسماة صرف العنان عن طريق النيران إلى طريق الجنة وتبلغ «٢١٠»بيت، أشار في مقدمة النظم النثرية إلى أن الانتهاء منها كان في عام ١١٨٦هـ - ١٧٧٢م، وموضوع المنظومة الأخلاق الصوفية، فهي إدانة شديدة للمهلكات الموبقات من الأخلاق والدعوة إلى التمسك بمذهب النجاة.

اشتهر الشيخ محمد بن عثمان بن صالح بلقب فودي الفلاتي الذي يعني العالم، ولكننا لم نعثر على أي تأليف منسوب إليه غير قصيدة هائية

ببلاده عن الشيخ الإمام محمد بندو والشيخ الكامل هاشم والشيخ محمد فودي الكبير.

اجتمع في غاو بيرن الشيخ محمد كرعك، وأخذ عنه أشياء كثيرة من علوم الأسرار والرمل، وأقام هناك خمسة أشهر(٤١)، حج في عام ١٧٣٠م وتاريخ مؤلفاته يعود إلى ذلك الحين.

وهي في الطلاسم والنجوم والحروف والأوقاف والمنطق والنحو(٤٢) منها:

- «الدر المنظوم وخلاصة السر المكتوم في علم الطلاسم والنجوم»، انتهى من تأليفه بالقاهرة في رجب ١١٤٦هـ ، السادس من يناير/كانون الثاني ١٧٣٤م، و«بهجة الآفاق وإيضاح اللبس والإغلاق» في علم

ذكر محمد بللو أنه من تلاميذ الشيخ البكري، ولعله من التلاميذ غير المباشرين لبعد الشقة بين عصريهما، فقد توفي البكري أوائل القرن السابع عشر الميلادي، وتوفي الفلاتي نحو ١٧٢٩م، أي في آخر العقد الثالث من القرن الثامن عشر، ويذكر مخطوط بمتحف جوس الوطني النيجيري - كما ذكره يحيى - أنه من أحفاد الشيخ البكري - فهو ابن إبراهيم بن بويا بن ماسراته بن الشيخ البكري البرناوي(٤٥).

ووصفه محمد بللو بأنه كان عالماً فقيهاً فهاماً صالحاً تقياً بارعاً، حمله السلطان إلى حصن برنو، وأسكنه فيها، وابتنى له داراً وولاه(٤٦)، تصدر للتدريس والنصح والإرشاد، له تآليف وأشعار منها:

فالمهلكات الموبقات: الحقد والخيانة والنفاق والغيبة والنميمة والكبر والكذب والزنا والإعراض عن طلب العلم والميل إلى طلب المال وحب الدنيا ومخالطة السلاطين.

ومذهب النجاة: التسبيح والتلاوة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وإقامة الصلاة والصبر على جفاء الناس والعمل لنيل الرزق ... إلخ.

وعلى العموم فالمنظومة سهلة الألفاظ جميلة الأسلوب، وهذا ما جلب لها الشهرة عبر العصور(٥٠).

وقد اشتهر الشيخ محمد بن عثمان بن صالح بلقب فودي الفلاتي والذي يعني العالم، ولكننا لم نعثر على أي تأليف منسوب إليه غير قصيدة هائية

بعنوان «الله لي عدة» وهي دينية محتوية على مفردات زهدية مثل التوكل والتوبة والقدر والصفات الإلهية مثل: العلم والقدرة:

ودان الشيخ الإصرار على الذنب والانغماس في اللهو واللعب، كما دعا إلى الثقة بالله والرضا ببلائه، وبشر بالخير وتفريج الكرب لكل مؤمن واثق بالله، والقصيدة على البحر البسيط، سهلة المفردات، جميلة النظم لتحقيق الغرض المنشود، وبما أن الناظم والد الشيخ عثمان بن فودي، فأغلب الظن أن نظم القصيدة كان في منتصف القرن الثامن عشر قبيل قيام الجهاد.

علم الشيخ ابنيه عثمان وعبدالله القرآن، وشهد بداية الجهاد؛ لأنه توفي في دغل على مقربة من مدينة سوكوتو، وقبره يزار هناك(٥١).

والعالمان الآخران المشهوران في هذا العصر هما: الشيخ رمضان بن أحمد، وأصله من فزان في صحراء ليبيا، واستوطن زنفر بأرض هوسا، وذكر له محمد بللو قصائد وتواليف منها:

نظمه على رواة البخاري،ومنها: الجوهرة في ذم علم النجوم(٥٢) والشيخ عمر بن محمد أبي بكر الترودي وأصله من كب له بها آثار، كان فقيهاً جليلاً شهيراً من بيت علم ودين، ومن آثاره أنه كتب بياناً لما لايعتمد عليه من الكتب نصحاً لهم.

وزعم أن كثيراً من الكتب التي ذكرها موضوع فهي قليلة التداول، وفي حاجة إلى اهتمام من الباحثين للدراسة والتحليل(٥٣) ومن آثاره تقييدات وأشعار وتخميس على الكواكب الدرية للبوصيري وبردة كعب بن زهير بن أبي سلمى التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ....

في مدح النبي صلى الله عليه وسلم.

رحل إلى شرق لأداء مناسك الحج، لكن الأعذار حبسته فرجع إلى بلاده، وأغلب الظن أن نشاطاته كانت في منتصف القرن الثامن عشر، وقبره يزار في برايا زاكي بمنطقة ورنو(٥٤).

ومن تلاميذه المشهورين الشيخ علي جب، ينسب إليه كتاب الشرح على البكري، وشرح على لامية الأفعال في النحو، كان مجتهداً في الدعوة إلى الله، محترماً عند الخاصة والعامة، أخذ عنه جلة من العلماء، وقبره يزار بمارنو، عصر الجهاد(٥٥).

والشخصية الأخيرة من الذين ترجم

جولاته، فمن هناك توجه إلى الأراضي المقدسة، ولما لم يستطع الشيخ عثمان بن فودي صحبته لحاجته إلى طلب إذن من والده، خلّد ذكرى الرحلة والفراق والحنين إلى الأرض المقدسة في قصيدته المشهورة(٥٧) التي مطلعها:

هل لي مسير نحو طيبة مسرعًا

لأزور قبر الهاشمي محمدا

توفي العلامة جبريل بن عمر عهد السلطان باوا الذي حكم من ١١٨٢هـ / ١٧٦٨م حتى ١٢٠٦هـ ـ ١٧٩١م في كانو.

من آثاره الباقية تلاميذه الكثيرون



التجارة كانت مدخل الإسلام إلى إفريقية

لهم محمد بللو هو: الأستاذ جبريل بن عمر، معلم الشيخين عثمان بن فودي وأخيه عبدالله. كان حامل لواء العلم في زمانه، وتشرف بزيارة بيت الله الحرام ومسجد نبيه مرتين، وقضى في الحجاز أعواماً عدة(٥٦). وبلغ الغاية في الاشتغال بالكتاب والسنة وحض الناس عليهما، كان مسؤولاً عن حركة الإصلاح السابق لجهاد عثمان بن فودي في الإمارات الهوساوية والبلدان المجاورة له، فكان أستاذاً متجولاً تبعه عثمان بن فودي إلى أغدس في إحدى

الذين ورد ذكرهم في «إنفاق الميسور»(٥٨)، منهم الشيخ عثمان بن فودي وأخوه العلامة عبدالله بن فودي والمصطفى بن الحاج عثمان المشهور بالتفنن في العلم، والعلامة الفريري، وله مساهمات جذرية في مجال الأدب الإسلامي، إذ أشار الشيخ عثمان بن فودي في كتاب نصائح الأمة المحمدية إلى مؤلفاته في مناسبات عدة نثراً ونظماً.

وذكر الشيخ أيضاً أن أفكاره واسعة الانتشار عبر بلدان هوسا.(٥٩) وللأستاذين بيفار وهسكت ترجمة

وتعليق على قصيدته التي أوردها محمد بللو في «إنفاق الميسور»(٦٠).

وآخر من ذكرهم محمد بللو شيخ الشيوخ الفقيه محمد المنقوري، نقل مختصر خليل ومهر فيه جداً، وتصدر للتدريس، فأخذ عنه جماعة، وظهر في طلبته البركة الكثيرة، منهم قاضي القضاة شعيب وقاضي القضاة عمر ثنب، وقاضي القضاة أبو بكر(٦١).

هذا ما توصلنا إليه من تراجم العلماء الذين لهم مساهمات في حمل الدراسات العربية والإسلامية إلى الديار النيجيرية قبل عصر جهاد عثمان بن فودي، العصر الذي استغرق قرناً كاملاً شهد بطولات في ميدان النضال بالسلاح، وإنتاجات ثقافية في ميادين اللغة العربية وآدابها والمواد الإسلامية بمختلف فنونها.

وقد شهد العصر ظهور أعلام دفعوا عجلة العلم إلى الأمام، وخطوا بها خطوات جبارة لاتزال آثارها تلقى على بساط البحث والدراسة والنقاش في ندوات جامعية، ومؤتمرات دولية.

المراجع

١. انظر محمد بللو، «إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور» القاهرة١٩٦٤م، ص١٥٩،١٦٥.

٢. انظر توفاجي في مقالته الفرنسية ترجمة عنوانها، «نقوش ممالك غاو» مجلة الأندلس، المجلد ١٩، عام ١٩٤٩م، ص١٣٣.

٣. هذا الكتاب مطبوع على هامش «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» للإمام القاضي برهان الدين بن فرحون.

٤. التمبكتي، أحمد بابا، «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» القاهرة، ١٣٥١، ص٣٣٠.

٥. المرجع نفسه، ص٣٣١.

٦. المرجع نفسه، والصفحة ذاتها.

٧. انظر ابن فودي عثمان، تعليم الإخوان، مخطوط رقم ٨٢/٢٥٧ مكتبة جامعة أيادن، ص٧١.

٨. انظر رقم ١٩ من قائمة مؤلفاته المذكورة أدناه.

٩. «نيل الابتهاج»، ص٣٣١، وانظر الألوري، آدم عبدالله، الإمام المغيلي، القاهرة، ١٩٧٤م، ص٣١.

١٠. الإمام المغيلي، ص٣١، وانظر عبدالرحمن السعدي، تاريخ السودان، حققه الأستاذ هودس، باريس، ١٨٩٨م، ص١٢١.

١١. الإمام المغيلي للألوري، ص٣٢.

١٢. المرجع نفسه، ص٢٠.

١٣. انظر ابن فودي عثمان، «حصن الأفهام من جيوش الأوهام»، مخطوطة رقم ٨٢/٥٤ في مكتبة جامعة أيادن، ص٨٩.

١٤. ورد ذكر هذه الكتب في «نيل الابتهاج»، ص٣٣١، ومقالة بيفار وهسكت، ص٦٠٣، والإمام المغيلي، ص١٢.

١٥. انظر «نيل الابتهاج»، ص٨٨ ـ ٨٩.

١٦. بيفار وهسكت في مقالتيهما المنشورتين في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية التي تصدرها جامعة لندن باللغة الإنجليزية، انظر المجلد٣٥، لعام ١٩٦٢م، ص١٠٩.

١٧. انظر «تاريخ السودان»، ص٣٧.

١٨. انظر «إنفاق الميسور»، ص٢١٦،٢١٧.

١٩. المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

٢٠. «نيل الابتهاج»، ص١٧٦.

٢١. «نيل الابتهاج»، ص٣٣٥.

٢٢. المرجع والصفحة نفساهما.

٢٣. المرجع نفسه، ص٣٤٤.

٢٤. المرجع نفسه.

٢٥. انظر تاريخ مي إدريس وغزواته، طبعة كانو ١٩٣٢م، والترجمة الإنجليزية للسيد/ ريتشموند بالما، ترجمة عنوانها مي إدريس البرناوي، طبعة لاجوس ١٩٢٦م، والجزء الثاني في المذكرات السودانية عام ١٩٢٨م ، صفحات ١٥،٧٢.

٢٦. انظر إبراهيم صالح، «تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم برنو»، القاهرة، ١٩٧١م ، ص١٠٢.

٢٧. «إنفاق الميسور»، ص٣٧.

٢٨. المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

٢٩. «الإسلام في إمبراطورية كانم برنو»، ص٩٦.

٣٠. «إنفاق الميسور»، ص٥٢.

٣١. انظر مجلة البحوث التي يصدرها قسم تقييد المخطوطات العربية بمعهد الدراسات الإفريقية، جامعة أيادن، المجلد ١٤،١٧، عام ١٩٨٣م ـ ١٩٨٩م، صفحات٥٩ ـ ٦٨.

٣٢. «إنفاق الميسور»، ص٥٢.

٣٣. نشرتها مجلة الفكر، وهي سنوية يصدرها قسم الدراسات العربية والإسلامية بجامعة أيادن النيجيرية، انظر المجلد٣ رقم١، صفحات ٦٠ ـ ٦٨.

٣٤. بيفار وهسكت في المقالة، ص١١٦.

٣٥. مؤلف هذا الكتاب مجهول، وقد قام رتشارد بالما بترجمته إلى اللغة الإنجليزية، وتمّ نشره في مجلة المعهد الملكي للدراسات الأنثروبولوجيا المجلد رقم ٣٨ عام ١٩٨٠م، صفحات ٥٨ ـ ٥٩ والترجمة منشورة كذلك في مجلة الجمعية الملكية الأسيوية، ١٩٥٧م صفحة ٧٩.

٣٦. «إنفاق الميسور»، صفحات ٥ ـ ٥١.

٣٧. انظر المقالة: الشيخ عبدالله ثقة، مجلة الفكر،المجلد والعدد والصفحة عينها.

٣٨. الدراسة الوافية لهذه الشخصية وتحقيق قصيدته، موضوع فصل من مقالة بيفار وهسكت، ص١١٨ ـ ١٣٢.

٣٩. انظر قائمة المخطوطات العربية المحفوظة بمكتبة جامعة أيادن، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٨م، تأليف و.كنسديل، ص١٨، وقد حقق الكتيب باللغة الإنجليزية السيد/ سميت تحت عنوان كتاب مقرر مدرسي في برنو أوائل القرن الثامن عشر، وتم نشره في مجلة الجمعية التاريخية، المجلد رقم ٤، ١٩٦٠م، ص٣.

٤٠. انظر «إنفاق الميسور»، ص٥١، وانظر بيفار وهسكت في مقالتيهما ص١٣٤.

٤١. الجبرتي، عبدالرحمن، «عجائب الآثار في التراجم والأخبار، القاهرة، صفحات ١٥٩،١٦٠.

٤٢. انظر بيفار وهسكت في مقالتيهما، ص١٣٥، وتراجع المقالة كذلك لمؤلفاته المذكورة أدناه.

٤٣. انظر يحيى، مصلح تايو، الاختراعات التركيبية والموضوعية في الشعر العربي بكانم برنو، رسالة غير مطبوعة لنيل درجة دكتوراه بجامعة أيادن عام ١٩٨٦م، صفحات ٣٤،٣٥.

٤٤. «إنفاق الميسور»، ص٣٧.

٤٥. يحيى مصلح، ص٣٧.

٤٦. «إنفاق الميسور»، ص٣٧.

٤٧. راجع النص الكامل للقصيدة في رسالة يحيى مصلح، صفحات ٣٦٧،٣٧٥.

٤٨. المرجع نفسه، صفحات ٣٧٦ ـ ٣٨٠.

٤٩. المرجع نفسه، صفحات٣٨١ ـ ٣٨٤.

٥٠. للدراسة الموجزة عن حياة الشيخ محمد مودي، راجع مقالتنا ترجمة عنوانها دراسات لبعض القصائد نظمت ببلاد هوسا بين عامي ١٦٥٠و١٧٥٠م، في مجلة الفكر، مجلد٥، رقم١، عام١٩٨٤م، صفحات٤١،٤٢.

٥١. المرجع والصفحة نفساهما.

٥٢. انظر «إنفاق الميسور»، ص٥٢، وبيفار وهسكت في مقالتيهما ١٣٩.

٥٣. «إنفاق الميسور»، صفحات ٥٢ ـ ٥٣، ويبلغ عدد الكتب المذكورة ٤٨.

٥٤. وذكر محمد بللو أنه زار قبر الشيخ مراراً، انظر ص٥٤.

٥٥. المرجع والصفحة نفساهما.

٥٦. المرجع نفسه والصفحة عينها.

٥٧. للنص الكامل للقصيدة الإنجليزية والدراسة التحليلية له انظر أطروحتنا الماجستيرية المحفوظة بمكتبة جامعة أيادن، ترجمة عنوانه الأدب العربي الموفي في شمال نيجيريا، ١٩٨١م، صفحات ٢٦،٤٢.

٥٨. «إنفاق الميسور»، ص٥٦.

٥٩. المرجع نفسه.

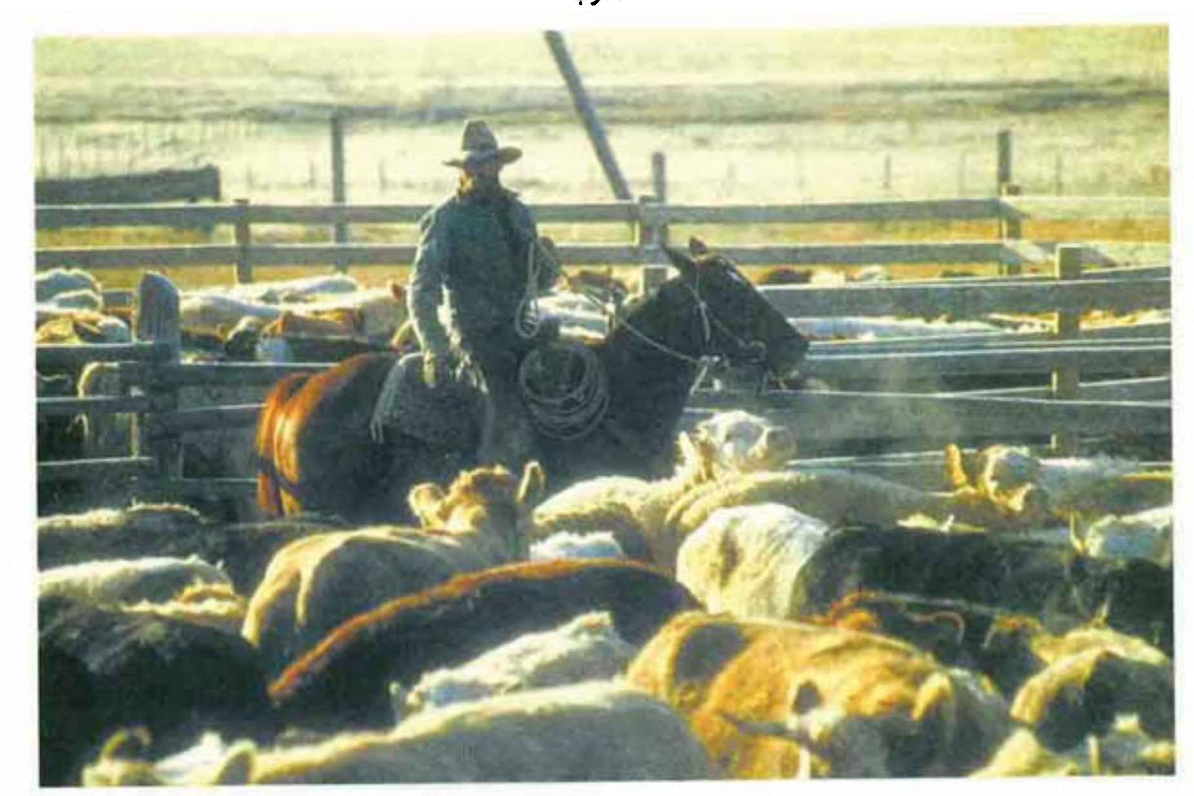
٦٠. انظر مقالتيهما، صفحات ١٤١، ١٤٣.

٦١. «إنفاق الميسور»، ص٥٦.

رعاة البقر في عصرهم الذهبي

عبدالإله بو بكر السويلمي

المغرب



رعاة البقر ليسوا أسطورة من الأساطير التي صنعتها هوليود.. بل حقيقة تاريخية، بدليل أن الكثير مازال يعيش في الغرب الأمريكي إلى اليوم(١) غير أن عصرهم الذهبي قد مضى بلا رجعة.

ومع أن هذا العصر الذهبي كان قصيراً، إذ لم يتجاوز ربع قرن ١٨٦٦ - ١٨٩٠م إلا أن تأثيره في المجتمع والثقافة الأمريكيين كان، ومازال، هائلا.

فمن كان راعي البقر هذا؟ وكيف عاش عصره الذهبي؟ بل متى وكيف بدأ هذا «العصر»؟ ومتى وكيف انتهى؟

هذه الأسئلة وغيرها سنجيب عنها من خلال هذا العرض بعيداً عن الصورة التقليدية التي عممتها هوليود.

تكساس - المهد

لقد عرف رعاة البقر أول ما عرفوا في تكساس نحو سنة ١٨٢٠م، ولكن

من المرجح أن المصطلح «كاوبويز» فتيان البقر COW BOYS، لم يستخدم إلا عندما تدفق المستوطنون «الأنجلو - أمريكان» على تكساس، خصوصاً بعد انفصالها عن المكسيك سنة (١٨٣٦م).. فورثوا كل ما خلفه المكسيكيون المنهزمون من أراضٍ وأبقار طويلة القرون LONG-HORNS(٢) وطرائق تربية هذه المواشي ومناهجها، بل اقتبسوا عن الرعاة المكسيكيين VAQUEROS، حتى معدات العمل وطرائقه.

وهكذا، وفي عام ١٨٤٥م، عندما انضمت جمهورية تكساس إلى الاتحاد الفيدرالي الأمريكي، كان راعي البقر الأمريكي قد أصبح حقيقة معروفة بملامحه، وثيابه، ومعداته، وحصانه، وسلاحه.

راعي البقر الأصيل

صورت لنا هوليود، ومازالت تفعل، راعي البقر في صورة الشاب الجميل، الناعم، الرقيق، الأنيق والمتمتع بالحياة.. غير أن راعي البقر الأصيل لم يكن يوماً على هذه الصورة الرومانسية.. كانت النيران التي تشتعل في البراري، وكانت الأنهار التي تفيض، والزوابع، وعواصف الجليد، والخيول والأبقار المتوحشة، والحيوانات المفترسة، وقطاع الطرق.. وكثير غيرها جزءاً من حياة كل يوم يحياه راعي البقر(٣).

كان راعي البقر يعاني، في أغلب الأوقات، من الجوع، والبرد، والخوف، والملل، والوحدة.. وقد تحمل كل ذلك من أجل أجرٍ هزيل لا يتعدى عشرة إلى عشرين دولاراً في الشهر (١٨٥٠م). ومن ثم، فلم يتطوع بهذه الحرفة إلا الشبان (في العشرينيات من العمر) الأقوياء، والفقراء، والعزاب، والأميون في الغالب. ولكن من الذين يجيدون ركوب الخيل، واستعمال الحبال، واستخدام السلاح عند الضرورة.. بالإضافة إلى الإلمام ببعض المعلومات الطبية والبيطرية.

غير أنه مهما تعددت مهارات راعي البقر، فإذا لم يكن أميناً



تطعيم الأبقار ضد الأمراض من مهام راعي البقر



راعي بقر يعدّ العلف

ومخلصا في عمله فإنه لا يتم الاحتفاظ به، والإخلاص في العمل هو إحدى الميزات الضرورية في الراعي، لأن طبيعة عمله تستلزم الثقة به، إذ ليس هناك من سبيل سهل لمراقبته في تلك الفلاة الشاسعة.

وبخلاف ما توحي به أفلام هوليود، فإن القليل من البيض كانوا يقبلون حرفة رعي البقر. فحتى بداية الحرب الأهلية (١٨٦٠م)، كان جل رعاة البقر من المكسيكيين، والسود (العبيد)، والهنود الحمر، ثم انضم إليهم، لاحقا، بعض سكان ولايات الجنوب والشرق نتيجة الظروف القاهرة التي خلفتها الحرب الأهلية.

كان العمل الأساسي الذي يقوم به الراعي، في بداية الحرفة، ويعدّ جديرا به، هو حماية المواشي من اللصوص و الحيوانات المفترسة، وكذا جمعها في موسم الربيع لوسمها وإحصائها. أما في باقي الأوقات فكان يقوم بأعمال روتينية داخل المزرعة، مثل تقطيع الأخشاب، وحلب البقرات، والحرث، وإصلاح العربات.. وغيرها.

وكان صاحب المزرعة RANCH-MAN يوفر للرعاة المسكن، وهو كوخ خشبي، والمأكل والمشرب (خبز الذرة، ولحم الخنزير المقدد، واللوبياء، والكثير من القهوة..).

ومن أجل إنجاز أعمالهم، كان مالك الماشية يضع رهن إشارتهم عددا من الخيول، وبعض معدات العمل مثل الميسم BRAND(٤)، والحبال، وبعض البنادق. على أساس أن يوفر الراعي باقي معدات العمل وأدواته (مثل السرج وثياب العمل، والمسدس).

ثم جاء الراعي البطل

في الفقرات السابقة حاولنا أن نرسم صورة تاريخية أمينة لراعي البقر الأمريكي، حتى نهاية العقد الخامس من القرن الماضي، وهي مرحلة مهمة في تاريخ الحرفة وتاريخ راعي البقر نفسه، غير أن المرحلة الأهم هي التي ستبدأ بعد نهاية الحرب الأهلية ١٨٦٥م: إذ خلالها ستنتقل حرفة رعي البقر من طور الطفولة إلى طور الشباب، دفعة واحدة.

باختصار انقلبت حياة الرعاة ومربي الأبقار، وخرجوا من ظل التهميش إلى نور الاهتمام والتقدير.. لماذا؟

الجواب نجده في كلمة واحدة: السوق.. نعم السوق أو بالأحرى الأسواق: فقد تمكن التكساسيون، أخيراً، من بيع مواشيهم وبأسعار مناسبة جداً، لا بل لم يتوقعوها أبداً.

راعي البقر التاريخ من أوسع أبوابه، ليرسم لنفسه في عقول الأجيال اللاحقة تلك الصورة الملحمية - الرومانسية بل الأسطورية التي نعرفها اليوم. فكيف حدث هذا؟ ولماذا حدث في ذلك الظرف بالذات؟

الطلب المتزايد على اللحم

بعد انتهاء الحرب الأهلية، كانت تكساس، كباقي ولايات

LONGHORNS، ولكن حتى هذه لا تساوي قيمة كبيرة إذا قومت بأسعار تكساس مع أن قيمتها في الشمال كانت أكبر.

وبالفعل، ففي تكساس كان الثور يباع بثلاثة إلى أربعة دولارات، في حين كان سعره في ولايات الشمال يصل إلى الأربعين أو الخمسين دولارا، نتيجة الطلب على اللحوم المحفوظة.



ازدياد الطلب على اللحوم غيّر حياة رعاة البقر

وبفضل هذه الأسواق تحول راعي البقر إلى بطل وطني، وعلى مدى عدة سنوات ستعيش أمريكا على إيقاع خطوات جواده وهو يقود الأبقار إلى السوق ليحولها إلى دولارات، وبهذا العمل الجديد، سوق الأبقار إلى السوق THE DRIVE TO MARKET، سيدخل

الجنوب المنهزمة، قد خربت. واكتشف المحاربون التكساسيون «القدامى»، عند عودتهم إلى بلادهم، أن الحرب قد حرقت كل ثرواتهم. والثروة الوحيدة المتبقية لهم هي ذلك القطيع الكبير المكون من خمسة أو ستة ملايين رأس من الأبقار ذات القرون الطويلة

كان التكساسيون يعرفون هذه التطورات، وكانوا يعرفون أن تغلبهم على الأزمة الاقتصادية التي خلفتها الحرب، لن يتحقق إلا إذا أخرجوا مواشيهم من تكساس وساقوها إلى أسواق الشمال. لقد فهموا بأن السوق لن تسعى إليهم، بل عليهم أن يسعوا إليها. ولكن

كـيف؟ ومن يـتـجـرأ على سـوق الأبقار عبر أراضٍ كلها مخاطر، وهي على كل حـال «بلاد» أعداء الأمس القريب؟؟

المنقذ.. ماك كوي

ولد جوزيف ماك كوي JOSEPH MC COY (١٨٣٧ - ١٩١٥م)، بولاية إلينوي. وبعد الحرب الأهلية استـثمر أمواله، هو وإخوته، في شركة صغيرة، ولكنها ناجحة، يسهل الوصول إليها، وتكون سوقًا أو مستودعا يجمع فيه مربو الماشية والرعـاة مـواشـيـهـم الآتيـة من تكسـاس، في انتظار بيعها لتجار الشمال أو نقلها بعربات القطار إلى أي سوق يريدونه.

وبعد تمحيص كل الاقتراحات، وفحص الخـرائط ومعاينة عدة مناطق، وللتشجيع الذي حظي به مـاك من حـاكم كنسـاس CRAW-



عدّ الأبقار للاطمئنان على اكتمال عددها

FORD، قـــرر أن تكون «نـقطـة اللقاء» في قرية صغيـرة تدعى «أبـلـين» ABILENE (في وسـط كنساس)، اختارها لأنها قريبة من الجنوب من جـهـة، ولأنـها غنيـة بالكلأ وغـزيرة المياه من جـهـة أخرى.

واشــتـرى مـاك كـوي جل الأراضي في هذه القـرية وحـولها إلى حظائر ضخـمة، كما بنى فندقا من ثلاث طبقات لاستقبال الزوار المرتقبين.. وفي نـهاية شهر يوليو/ تموز ١٨٦٧م، كـانت «أبـلين» قـد أكملت الاسـتـعـدادات للتـرحـاب بضيوفها.. ولكن هل سيأتون؟

لم يكن ماك كـوي على استـعداد لأن يسـمـع إجابة سلبيـة عن هذا الســؤال، ولذلك وبالموازنة مـع أعمـال البناء نظم حملة دعـائيـة لإخبـار مـربي الماشيـة والرعـاة، وتجار اللحوم وسماسرة الماشيـة، بميلاد مدينـة البقـر COWTOWN الجديدة.

ومـا هي إلا أسـابيـع حـتى بدأت الأبقار تصل إلى حيث أريد لها أن تصل. وفي ٥ سبتمبر/ أيلول عام لنقل المواشي. ودخل مـاك كـوي التـاريخ، لأنه أدرك قبل غيره، أن أهل تكسـاس في حاجـة إلى: مكان (سوق) آمن لبيع مواشيهم، بعيدا عن المضايقات والأخطار.

ولهذا، وبحس تجاري مرهف، بدأ يدرس إمكان تحـقـيق المشـروع التــالي: إنشــاء «نقطة جـديدة»

١٨٦٧م، انطلقت أول شحنة قطار من «أبلين» إلى مجازر شيكاغو. كان هذا أول الغيث، ثم تدفقت قطعان الأبقار. وبلغ عدد الأبقار التي صدرت من هذه النقطة، إلى مدن الشرق في هذه السنة، نحو ٣٥٠٠٠ رأس، وارتفع العدد إلى ٧٥٠٠٠ رأس في عام ١٨٦٨م، ثم وصل إلى ٣٥٠٠٠٠ رأس سنة ١٨٦٩م، واستمر في التزايد.

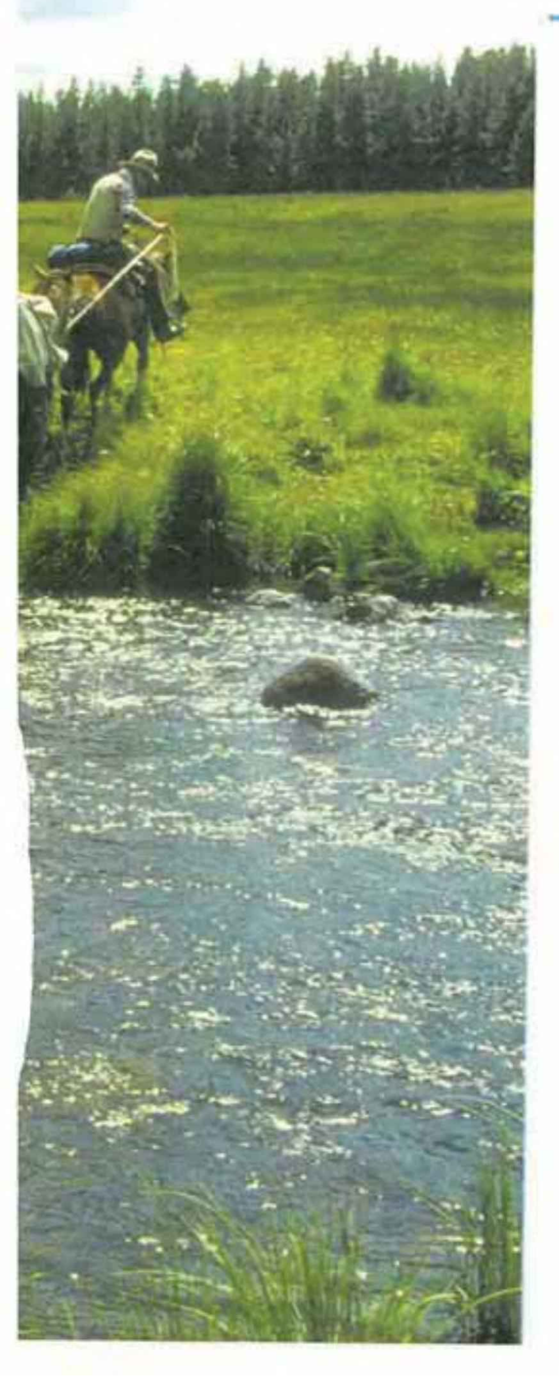
واستمرت مدينة «آبلين» بالازدهار عدة سنوات أخرى، إلى أن نافستها مدن جديدة أقرب إلى الجنوب والغرب، إذ ارتفع عدد السكان وامتدت خطوط السكك الحديدية.. مثل DODGECITY، وWICHITA، في ولاية كانساس، وOGALLALA (نبراسا)، و FORT SUMNER (كولورودو)، CHEY-ENNE (وايومينغ)، وCALDWELL (أوكلاهوما).

بفضل هذه المدن - الأسواق، وصل رعاة البقر إلى قمة مجدهم. وأصبحت حرفتهم دقيقة التنظيم واضحة الهدف، تعمل وفق دورة سنوية تبدأ بإحصاء الأبقار، وفرزها، ووسمها، وهذه هي المرحلة الأولى، ثم سوقها في رحلة الشمال الطويلة إلى الأسواق، وهذه هي المرحلة الثانية. أما باقي السنة فيخصص للتهيؤ لهذه الرحلة.

موسم الحصاد

تسمى المرحلة الأولى، بجمع المحصول، أو الطواف ROUND UP. وفي الحقيقة كان هناك طوافان في السنة: واحد في الربيع، ويسمى طواف العجول، فيكون الغرض منه وشم العجول الوليدة. ويبدأ هذا الطواف حين يظهر العشب في الربيع.. وغالبًا ما كان يبدأ في مايو/ أيار؛ وهو نشاط كبير يتطلب التعاون بين مربي الماشية المتجاورين. ذلك أن المراعي كانت في العهود الأولى من ملحمة رعاة البقر، مفتوحة بعضها على بعض، بغير سياج ولا حدود، وكانت مواشي الجيران تختلط وليس هناك من سبيل لتمييزها إلا بالعلامة BRAND الموسومة على جلدها (بالكي).

وهكذا، وفي ربيع كل عام كان مربو الماشية يجتمعون، وينسقون بينهم عملية واسعة لإحصاء الماشية، ويختارون من بينهم أو من بين الرعاة، رجلاً يعهد إليه بإدارة الطواف وتنظيمه، يسمونه «رئيس الطواف» ROUND UP BOSS، ويتم اختياره لما عرف عنه من أمانة وخبرة بالمواشي والعلامات، وتمنح له صلاحيات واسعة، وتكون قراراته نافذة على الجميع، حتى إن كان لا يملك رأسًا واحدًا، ويعاونه في عمله «محاسب»، ثم تُجمع الحيوانات من كل صوب في نقطة واحدة محددة سلفًا تحت إشراف الرئيس، وهناك يكون «الوشّام» الذي يقوم بأعمال الوسم، بحضور المحاسب وبعض الرعاة ومُلاّك الماشية. وكلما تجمع عدد من المواشي، يتم فرزها حسب السن، ثم يشرع في عملية الوسم، ويسجل «المحاسب» في سجله كل عجل عندما تتم المناداة عليه بالعلامة المنموغة على أمه. بعد



ذلك توسم الحيوانات الكبيرة. وفي النهاية، عندما يغلق المحاسب كتابه، يكون كل مالك مشارك في عملية الطواف قد عرف الزيادة في قطيعه، وعدد الرؤوس التي كانت له وجمعت من فحص الفلاة.

الطباخ والروديو

وقد تمضي الأيام الأولى من



اجتياز الأنهار من أصعب المشكلات التي تواجه رعاة البقر

الطواف في انتظار تجمع المشاركين.. وهي فرصة يستغلها الرعاة للاجتماع بأصدقاء قدامى أو لتكوين صداقات جديدة، ولتنظيم ألعاب متنوعة للترفيه عن النفس: كالتسابق بالخيول، ومطاردة العجول، ومباريات الحبال، أو ترويض الخيول المتمردة وغيرها، وهي التي تطورت لاحقًا لتصبح مسابقات «الروديو» RODEO(٥).

وفي أثناء تناول الطعام، وفي المساء، يتجمع الرعاة حول عربة الطبخ، للاستمتاع برفقة الطباخ(٦) الذي هو في الغالب راعٍ متقاعد له خبرة واسعة بالحياة، وحديثه قد يكون مجموعة «حكم» والحق أن هذه العربة كانت أكثر من مجرد مطبخ متنقل، بل هي منزل، وهي مقر رئيس متنقل يجتمع حولها الرعاة (للدردشة)، وتبادل النكات، والاستماع إلى الموسيقى، وللتشاور حول متاعب العمل. ثم يتمددون حولها وتحتها عندما يحين موعد النوم. وفي

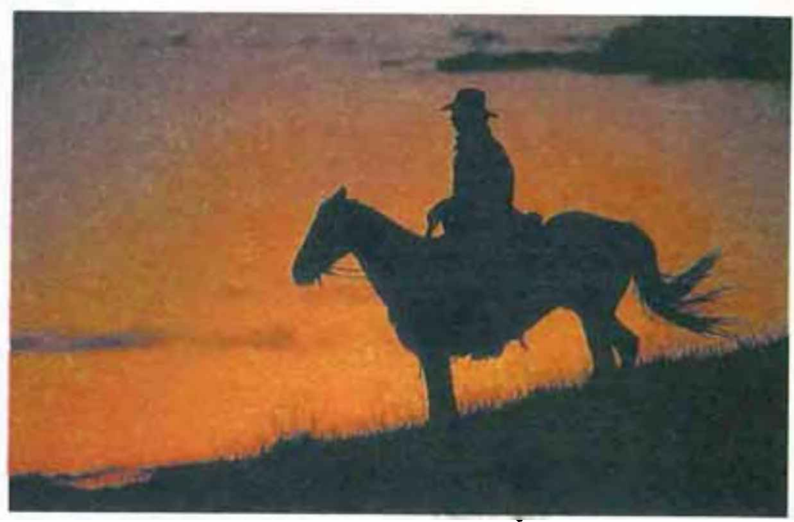
صباح اليوم التالي يضعون فيها أغطيتهم والثياب الفائضة عن حاجتهم، في عهدة الطاهي.

رئيس الطريق

لقد سبق القول إن الطواف، هو في الحقيقة، طوافان: أولهما في الربيع، وهو الذي تعرضنا له أعلاه. أما الطواف الثاني، فهو طواف الخريف، وكان الغرض منه إتمام عملية الوسم: بوسم العجول التي ولدت بعد طواف الربيع، أو الأبقار الكبيرة التي أغفل وسمها لسبب من الأسباب.

بعد طواف الخريف.

وبعد عزل الماشية المعدة للشحن، ثم وسمها بعلامة الطريق ROADBRAND... يعهد بها إلى فريق آخر من الرعاة (عندما يوجد في المزرعة عدد كبير منهم) يسمون «رعاة البقر»، على رأسهم «رئيس الطريق» TRAIL CAPTAIN، وهو مالك المواشي أو أحد مساعديه، وقد يكون راعي بقر مستقلاً يعمل لحسابه الخاص DROVER، يعقد اتفاقا مع ملاك الأبقار، لسوق ماشيتهم إلى السوق



الجفلة تسبب الاضطراب لراعي البقر الذي قد يدفع حياته ثمنا لمطاردة الأبقار الجافلة

والعمل فيه يسير على أسلوب طواف الربيع نفسه، غير أن الطواف هنا يتم في تأن وروية، لأن الحيوانات تكون قد اكتنز لحمها.

وقد جرت العادة أن يتم سوق الأبقار إلى الأسواق بعد طواف الربيع، في تكساس؛ أما في ولايات الشمال التي ازدهرت فيها تربية الماشية في الثمانينيات، فأصبحت تنظم رحلات السوق، مقابل أجر معلوم أو نسبة من الأرباح.

وكان فريق الطريق المكلف بسوق الماشية، أو بالأحرى تعقبها (لأنها يجب أن ترعى في أثناء الرحلة)، يشمل بالإضافة إلى الرئيس والطاهي ومساعده (وهو السائس نفسه)، والدليل، وهو راع يسبق القافلة للبحث عن العشب والماء، ومخاضات الأنهار، واحتمالات الفيضان وأي أخطار أخرى.. وكان هو رئيس الطريق عادة.. يشمل (أيضا) الرعاة الذين يشرفون على القطيع (الذي يراوح عدد الماشية فيه بين ألفين وخمسة آلاف رأس) بمعدل راع لكل مئة وخمسين إلى ثلاثمئة رأس.

عمل على مدار الساعة

يستيقظ الرعاة، أو بالأحرى النائمون منهم، كل يوم على صوت الطاهي، نحو الثالثة أو الرابعة صباحا. وبعد تناول الفطور (خبز أو بسكويت ولحم وقهوة مركزة جدا)، يوقظون الماشية لتبدأ الرعي، ثم يدفعونها إلى الطريق عند شروق الشمس، لتسرع في السير (بسرعة ٢٤ كيلو مترا في اليوم)، إلى حدود منتصف النهار، ثم تبتعد عن الطريق مرة أخرى لترعى حتى ساعة الرقاد، إذ يجب تجنب السير بعد الظهر توقيا للحرارة. غير أنه عندما يكون الطقس يسمح، فإنها تساق بعد الظهر أيضا.

وعندما تبدأ الشمس بالمغيب تجمع الماشية في مكان محدد للرقاد. ويتم اختيار هذا الموقع بعناية كبيرة، حتى يتم تجنب كل ما قد يجفل الماشية.

وعمل الراعي لا ينتهي بغروب الشمس، بل يستمر بالليل أيضا، حيث يشارك الجميع (ما عدا الرئيس والطاهي والسائس)، في التناوب على الحراسة الليلية، أو فترة «الغناء للأبقار»، كما كانوا يسمونها ، إذ إن الأبقار تستأنس بالأصوات البشرية، كما أن الغناء يكون وسيلة غير مزعجة تمكن

الرعاة من الاهتداء بعضهم إلى بعض عندما يكون الظلام دامساً.

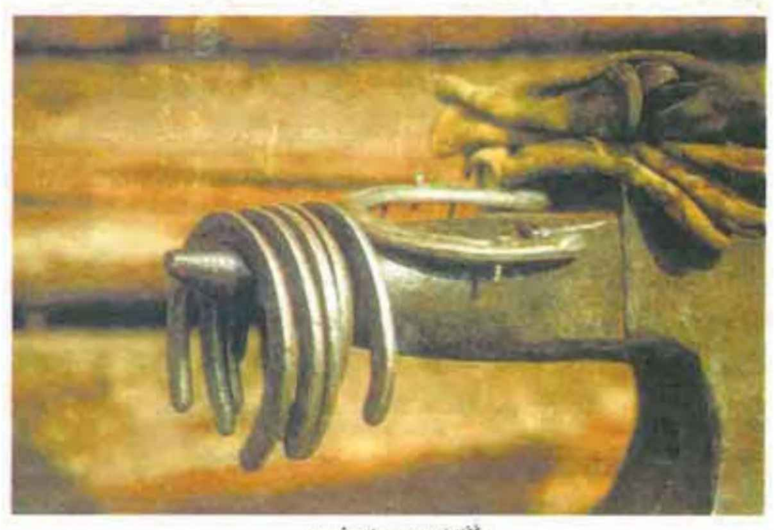
وفي صباح اليوم التالي، وبعد تناول الفطور، يتجه الدليل (أو الرئيس) بحثاً عن الماء، أو لاستكشاف مخاطر الطريق، ولتحديد المكان الذي ستستقر فيه القافلة في الظهيرة. بينما يقوم الرعاة بعد القطيع، وفور التأكد من تمام العدد، يعطي الرئيس أو مساعده (في حالة تغيب الأول)، الإشارة لتستأنف القافلة سيرها من جديد؛ تاركة وراءها عربة الطاهي لإزالة المخيم.

وعندما يعود الرئيس (أو الدليل) من رحلة الاستكشاف اليومية، وبعد أن يكون قد اختار المكان المناسب للمحطة المقبلة، يعتلي هضبة أو أي مرتفع، بحيث يصبح على مرأى النظر، ويلوح بقبعته للرعاة الذين عند رأس القطيع، ناقلاً لهم بعض المعلومات أو الأوامر: بأن الماء هنا أو هناك، أو أن ينحرفوا في هذا الاتجاه أو ذاك مثلاً. ثم يشير إلى الطاهي بأن يتبعه، فيسرع هذا، بعربته، إلى اللحاق به.

وفور الوصول إلى المكان المحدد، يشرع الطباخ ومساعده، في إقامة المخيم. ثم تبدأ عملية الطهو الروتينية. وفي أثناء الأكل في الظهيرة يترك القطيع لينتشر في المراعي، ويستريح حتى موعد متابعة السير، بعد الظهر، أو موعد الرقاد إذا لم تكن الظروف تسمح بمسيرة أخرى في النصف الثاني من النهار. ثم تتكرر العملية نفسها في اليوم التالي.. وفي كل يوم إلى أن تنتهي الرحلة.

وبالمناسبة، قد يكون عمل الطاهي في أثناء الرحلة هو الأكثر إزعاجاً: فهو مضطر إلى إقامة المخيم (المعسكر) وإزالته مرتين في اليوم، بالإضافة إلى ذلك يطبخ ثلاث وجبات، ثم عليه أن يسرع إلى مقدمة القافلة دائماً.

وكانت عملية الطهو في الطريق، وخصوصاً بعد الظهر وفي الليل، تنحصر في تحمير بعض اللحم، وطبخ اللوبيا، وإعداد

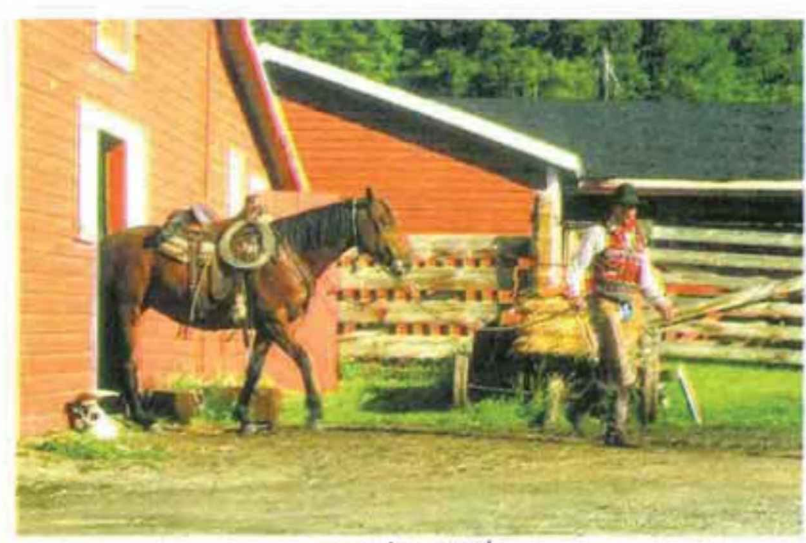


قفازات وحدوات فرس

بعض الفطائر من الدقيق (تضاف إليه الفاكهة أحياناً)، وعمل القهوة. وقد يضاف إلى هذه القائمة البصل والبطاطس، وبعض لحوم الطرائد، أو الأغذية المعلبة. حيث كانت ظروف الرحلة الطويلة كانت تفرض ألا يتم التزود إلا بالمواد الغذائية التي لا تفسد في الطريق، ومن هنا نفهم لماذا لا يذبح الرعاة أبقاراً في أثناء رحلتهم، إذ إن ٤٠٠ دم يكون يكون قليلاً نسبياً مما لا يساعد على استهلاك كل اللحم قبل فساده.

طريق الخوف

ينتاب الرعاة الكثير من العواطف والأحاسيس في حياتهم المملوءة بالأحداث، ولكنها تكون مركزة أكثر خلال رحلتهم إلى السوق. ولعل أقوى هذه الأحاسيس جميعها هو الخوف والقلق، اللذان يتضاعفان بفعل التأثير المعنوي للبراري الموحشة الشاسعة، الممتدة على مدّ البصر، وهو أفق يرافق الراعي طيلة أسابيع غير أن أخوف ما يخافه الرعاة في الطريق إلى السوق، هو الجفلة STAMPEDE، ولاسيما الجفلة الليلية، فهي شديدة الخطر على الماشية، وعلى الرعاة: فالركوب بسرعة جنونية في سواد الليل لمطاردة الأبقار المنطلقة بأقصى ما تملك من قوة، هو أخطر أعمال الراعي على الإطلاق، فهناك دائماً احتمال الموت أو الإصابة بعاهة دائمة.



تأهب ليوم حافل بالعمل

ويخشى الرعاة أيضاً، ولكن بشكل أقل حدة، أن تصادفهم في طريقهم: الحرائق، والصواعق، والأراضي الخالية من العشب أو المياه، والزوابع الرملية والثلجية.

ويشكل اجتياز الأنهار تجربة صعبة للرعاة، فقد يقف القطيع متردداً أمام النهر، يوماً أو يومين أو أكثر، قبل أن يقتنع الثور الزعيم بالعبور. وتكون العملية خطيرة عندما تكون الأنهار في حالة مد وفيضان، فعندها يضطر الرعاة أن يسبحوا أمام خيولهم لتشجيعها على العبور، فإذا عبرت لحق بها باقي الماشية. وإذا حدث وفزعت في أثناء ذلك، فإن الكثير من المواشي، بل حتى الرعاة، يجرفهم السيل ويغرقون.

المدينة أخيرا

كما يقول المثل العربي «لابد من صنعا وإن طال السفر». فبعد شهرين أو ثلاثة أشهر، وبعد قطع مئات الكيلومترات، تصل الماشية إلى السوق أو بالأحرى إلى مدينة البقر.

وراعي البقر الذي عاش في البراري، في أثناء رحلة الشمال، كل ألوان المغامرات، وربما واجه الموت عدة مرات، يكون مصمماً في قرارة نفسه على أن ينال نصيبه من الدنيا في أقرب فرصة ممكنة، أو على الأقل قبل أن ينضم إلى أي رحلة أخرى.

وهكذا، وبمجرد أن يتسلم أجره (٣٠ - ٥٠ دولاراً للشهر)، يذهب إلى الحلاق، ثم يستحم بماء ساخن، وصابون معطر، ويشتري ملابس جديدة، ثم يبدأ الاستمتاع بالحياة. وكان يعتقد بأن فرحته لا تكتمل إلا إذا ركب حصانه وانطلق به مسرعاً في شوارع المدينة، يطلق الرصاص هنا وهناك.

وليس القمار هو الموبقة الوحيدة التي يقترفها الراعي حين يعود إلى المدينة؛ فهو قد ينغمس في كل إثارة ومتعة تقدم له. ولا غرابة في أنه في الأيام القليلة التي يمضيها هناك، ينفق أو يبدد في اللهو والخمر كل أمواله، بل قد يخسر على مائدة القمار، وفي جلسة واحدة، ما كسبه خلال عدة شهور من العمل الشاق.

انتصار الأبقار الأمريكية

إن السكك الحديدية التي ساهمت في ازدهار حرفة رعاة البقر، هي نفسها ساهمت في التعجيل بانتهاء عصرهم الذهبي. فقد امتدت في كل اتجاه، واستطاعت أن تغطي بشبكتها العنكبوتية جل مناطق تربية الأبقار من داكوتا شمالاً إلى تكساس جنوباً، وذلك حتى قبل نهاية العقد الثامن. وانطلاقاً من هذا التاريخ لم يعد هناك مسوغ للقيام بتلك الرحلات الطويلة إلى السوق، أو بالأحرى إلى أقرب محطة شحن، فهذه أصبحت أمام باب المزرعة(٧). بل تطورت عربات النقل المبردة، التي كان قد اخترعها سويفت GUSTAVUS F. SWIFT (١٨٣٩ - ١٩٠٩م)، في بداية السبعينيات، وأصبح ذبح الأبقار في مدن الغرب، ومن ثم توزيعها محلياً، بل نقل الفائض إلى الشرق، أصبح يمثل اقتصاداً في النفقات جديراً بالاهتمام.

وبانتهاء الرحلات الطويلة إلى أسواق الشمال، التي كانت، قبل توسع الخطوط الحديدية، توجد على بعد مئات الكيلومترات من مراعي تربية الماشية، انتهى عصر الرعاة وعصر الأبقار

«ذات القــــرون الـطـويـلـة»، إذ إن مـيـزتـهـا الأسـاسـيـة كـانـت قـدراتـهـا العجيبة على تحمل متاعب السفر الطويل، فيما عدا ذلك، ولاسيما فيما يتعلق بإنتاج اللحوم، فلم تكن قـادرة على منافـسـة السـلالات «الأمـريـكـيـة»(٨) من أمـثـال: SHORTHORN، HEREFORD، و DEVON، وANGUS، ذات اللحـوم الجـيــدة المفـضـلـة حـتـى عـند التكساسيين. بل تفوقت هذه الأبقار بميزة أخرى، وهي أنها، تبلغ سن النضج في نحـو السـادسـة من عـمـرهـا، بينمـا لا تـنضج «ذات القرون الطويلة» إلا في العـاشرة من عـمـرهـا، فـضـلاً عن أن الأمريكية ثقيلة الوزن، وهذا هو المطلوب في سوق أصبحت تباع فيه الأبقار بالرطل بدلاً من الرأس.



المنافسات من مظاهر استمتاع رعاة البقر بالحياة

إن الضربة التي وجهتها السكك الحديدية للرعاة، لم تكمن فقط في تقريب مراكز الشحن من المراعي، بل تجلت أيضاً في حركة تعمير الغرب بالمستوطنين، الذين اشتغلوا بالزراعة، واقتسموا البراري الشاسعة فيما بينهم، وحولوها إلى مزارع تحرسها الأسلاك الشائكة ١٨٧٤، مما أدى إلى إغلاق المراعي الكبرى، التي كانت دائماً مفتوحة.. فأغلقت بذلك المنافذ القليلة الباقية في عالم رعاة البقر الذهبي.

الهوامش والمراجع

١. مازال راعي البقر، حتى يوم الناس هذا، يمارس عمله في الغرب الأمريكي (تكساس، نيومكسيكو، أريزونا، داكوتا، مونتانا، وايومينغ..) ومع أنه يقوم ببعض الأعمال الشاقة، كوسم الأبقار وجمعها (ولكن في حظائر)، إلا أن حياته فقدت أهميتها، كما أنها باتت أسهل بكثير من حياة سلفه: فهو يستعمل السيارات السريعة في تنقله، بل بعض المزارع الكبرى (مساحتها عشرات بل مئات الكيلومترات المربعة) تستعمل طائرات الهليوكوبتر، وهو يستعمل الهاتف الجوال.. كما أنه من جهة أخرى يتمتع بالضمان الاجتماعي ونظام التقاعد، ويتلقى أجراً متواضعاً (٦٠٠ ـ ٨٠٠ دولار للشهر)، إلا أنه مقابل ذلك يتمتع بالمزيد من أوقات الفراغ، إذ لا يعمل إلا في الربيع والصيف، وهو اليوم، في الغالب متزوج، والكثير من المزارع توفر للمتزوجين السكن، ثم هو، لكل ذلك، أكبر سناً من سلفه، فهو في المتوسط في الثلاثين، إلا أنه مع ذلك يشعر بأنه ليس إلا صورة شاحبة لراعي البقر الحقيقي.. الأصيل.

٢. هي أبقار ذات أصول إسبانية، انحدرت من الأبقار التي وفد بها المكتشفون الإسبان إلى المكسيك، ثم فرت منهم، وكونت قطعاناً برية، وطورت قدرات كبيرة على التكيف مع الظروف القاسية: فاستطالت قرونها حتى بلغت عند بعض الذكور نحو ٢٥٠ سنتيمتراً، كما اكتسبت قدرات كبيرة على تحمل التعب ومشاق السفر.

٣. رايمون أدامز ADAMS: رعاة البقر ـ ترجمة عمر القباني ـ القاهرة: دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع ١٩٦٥م، ص١٢.

٤. الميسم، حديدة تكون على شكل حرف أو مجموعة حروف، أو أرقام أو أشكال، يعرف بها أصحاب الماشية ماشيتهم، بطبعها (دمغها) حامية على جزء من جسم الحيوان، ومنذ عام١٨٤٨م أصبحت أعمال الوسم تخضع لإجراءات التسجيل: فيتم تسجيل العلامات في سجل خاص، يحفظ في مكتب خاص بالمنطقة أو الولاية، ويتسلم صاحب العلامة شهادة تخوله الحق في طبع العلامة (بالنار) على الحيوانات المملوكة له، في أجزاء محددة بدقة.

٥. أول مسابقة رسمية للروديو، وزعت فيها الجوائز، نظمت في مدينة PRESCOTT بأريزونا في ٤ يوليو / تموز١٨٨٨م.

٦. وكان يمنع عليهم في أثناء هذه الاجتماعات القيام بأي شيء قد يضر بالعمل أو قد يفسد العلاقات بين الرعاة، كألعاب القمار، كما أن شرب الخمر كان ممنوعاً عليهم طوال مدة العمل.. باستثناء الطاهي.

٧. ومع ذلك فقد استمر سوق الماشية لبعض الوقت، بالضبط إلى عام ١٨٩٢م، لأن بعض مربي الماشية كانوا يرون أن السير إلى السوق هو أضمن لسلامة الماشية، كما تخوفوا من تآمر شركات السكك مع المجازر، بالعمل على تنظيم توريد الماشية للسوق ومن ثم التحكم في الأسعار.

٨. سميت كذلك تمييزاً لها من اللونجهورن ذات الأصول المكسيكية ـ الإسبانية.

- رايمون أدامز ـ رعاة البقر ـ ترجمة، عمر القباني ـ دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع ـ القاهرة: ١٩٦٥م.
- VINCENT PAUL RENNERT - LE COW BOY - COLL NOUVEAUX HORIZONS - EDITIONS - SEGHERS - PARIS 1968.
- JEAN - LOUIS RIEUPEYROUT - HISTOIRE DU FAR WEST - TCHOU EDITEUR - PARIS 1967.
- KENNETH ULYATT - LA VIE D,UN COW BOY DANS L OUEST AMERICAIN VERS 1870 - EDITIONS DU CHAT PERCHE FLAMMARION - PARIS 1977.
- C.CHILTON - L'EPOPEE DU FAR WEST - TRADUIT DE L ANGLAIS PAR N. CHASSERIAU - LIBRAIRIE LAROUSSE - PARIS 1970.
- HOWARD R. LAMAR - THE READER'S ENCYCLOPEDIA OF AMERICAN WEST - THOMAS Y. CROWELL COMPANY, N.Y. N.Y 1977.
- WILLIAM W. SAVAGE, JR - THE COW BOY HERO, HIS IMAGE IN AMERICAN HISTORY AND CULTURE
- UNIVERSITY OF OKLAHOMA PRESS, SECOND PRINTING 1980.

لاندسات - ٧ يعيد الحيوية لنظام لاندسات

سليمان قيس القرطاس
الجبيل - السعودية

تم بنجاح في ١٥ إبريل/ نيسان عام ١٩٩٩م إطلاق القمر الصناعي لاندسات - ٧ بواسطة صاروخ دلتا الأمريكي.
وتأتي عملية الانطلاق هذه بعد خمسة عشر عاماً من آخر عملية إطلاق ناجحة لأحد أقمار لاندسات الأمريكية.



صورة تخيلية للقمر الصناعي لاندسات - ٧ في الفضاء (المصدر: NASA)

ما هي لاندسات؟

لاندسات هي نظام أقمار صناعية أمريكي للاستشعار عن بعد لاكتساب المزيد من المعلومات عن الأرض. ويغطي مصطلح الاستشعار عن بعد REMOTE SENSING جميع التقنيات المتعلقة بالتقاط هذه المعلومات ومعالجتها، واستنباط المعلومات المفيدة منها، وليس من المشروط أن يتم الحصول على هذه المعلومات من الأقمار الصناعية، بل إن الطائرات والمناطيد قامت وتقوم بهذه المهمة أيضاً، لكن المعلومات الحاصلة من الأقمار الصناعية أصبحت الغالبة في المجالات البيئية.

البدايات

بدأ نظام لاندسات تحت إشراف الإدارة الوطنية للفضاء والطيران الأمريكية NASA في عام ١٩٧٢م بإطلاق أول الأقمار الصناعية لمراقبة موارد الأرض، وتوسيع المعلومات عن البيئة. وتم إطلاق ثلاثة أقمار صناعية من هذا التصميم باسم لاندسات ٢و٣ عامي ١٩٧٥م و ١٩٧٨م، تلا ذلك إطلاق القمر لاندسات ٤ عام ١٩٨٢م، وهو بمواصفات أكثر دقة في التقاط الصور، وأعقبه القمر لاندسات ٥ المماثل في عام ١٩٨٤م، ولايزال هذا القمر الصناعي عاملاً حتى الآن.

المدار

تطلق الأقمار الصناعية للاستشعار عن بعد إلى مدار يختلف عن المدار الذي تتخذه الأقمار الصناعية للاتصالات، فبينما تستخدم معظم الأقمار الصناعية للاتصالات المدار الثابت (متعامد على خط الاستواء

يدور بسرعة مساوية لسرعة دوران الأرض حول محورها ليكون موقعه نقطة ثابتة في السماء مما يسهل توجيه هوائيات المحطات الأرضية للاتصالات، وعدم الحاجة إلى متابعة دورانه) فإن الأقمار الصناعية للاستشعار عن بعد تتخذ مداراً قطبياً متزامناً مع الشمس للحاجة إلى التقاط صور لجميع مناطق العالم في أوقات متشابهة من ناحية زاوية سقوط أشعة الشمس.

يدور القمر الصناعي من هذا النوع بارتفاع ٧٠٥ كم، ويكمل دورة كاملة حول الأرض كل ٩٩ دقيقة، ويعود فوق الرقعة الجغرافية نفسها كل ١٦ يوماً تقريباً.

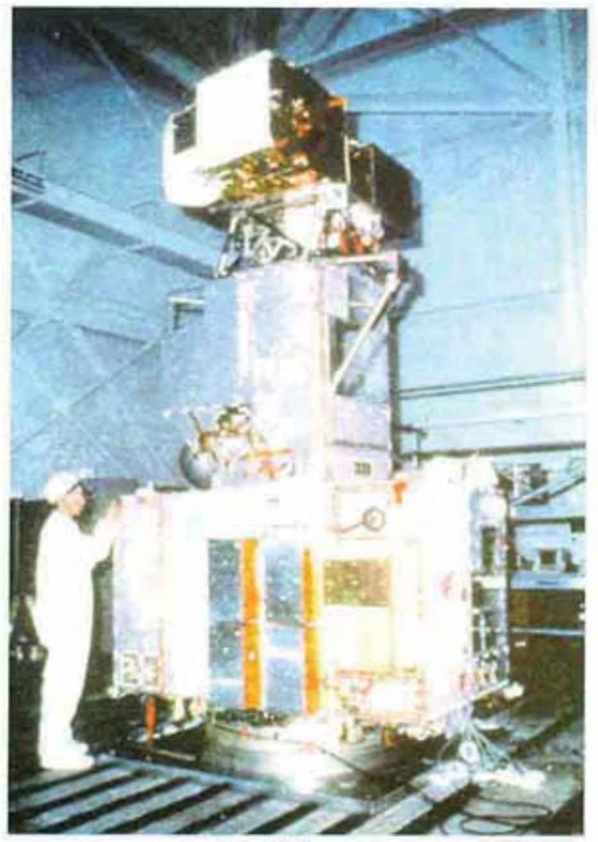
وتقوم الأجهزة المحمولة في هذه الأقمار الصناعية بقياس الطاقة المنعكسة والمنبعثة من الأرض، وعند قياس هذه الطاقة من خلال شدة الضوء في حزم معينة بالنسبة إلى هذه الأقمار يتم تسجيلها في مسجل معلومات على القمر الصناعي ليتم بثها باتجاه الأرض إلى المحطة الأرضية الرئيسة، أو إلى المحطات الأخرى التي حصلت على اتفاق مع المؤسسة المسؤولة عن تشغيل هذا القمر الصناعي ليتم تصحيح أخطاء الصورة الناتجة من الإرسال أو لأسباب أخرى.

فوائد صور الأقمار الصناعية بصورة عامة ولاندسات بصورة خاصة

يتم استخدام صور الأقمار الصناعية في استخدامات واسعة ومتعددة في العالم؛ وفي المملكة العربية السعودية هناك مؤسستان تستخدمان صور الأقمار الصناعية بدرجة كبيرة هما مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية التي تملك محطة أرضية لاستلام معلومات الأقمار الصناعية، ووزارة البترول والثروة المعدنية.

ولم تكن هاتان الجهتان الوحيدتين، بل استخدمت عدة جهات صور الأقمار الصناعية في استخدامات التخطيط العمراني، ورسم الخرائط السكنية والتضاريسية، واستخدمت في دراسات المقارنة الزمنية في اتساع رقعة العمران والأراضي الزراعية والشواطئ.

واستخدمت أقمار لاندسات وغيرها من الأقمار



القمر الصناعي لاندسات - ٧ في أثناء الفحص (المصدر EOSAT)



جهاز رسم الخرائط المحسن في أثناء الفحص (المصدر: EOSAT)

الصناعية في مكافحة التلوث الناتج من جنوح ناقلة الزيت أكسون فالديز على شواطئ ألاسكا، والكشف عن مدينة أثرية جنوب الربع الخالي، وكشف حالات إصابة المحاصيل الزراعية بالآفات الزراعية، واستغلال الغابات، وتخطيط الطرق، وكشف الموارد المعدنية وغيرها.

استخدامات نظام لاندسات في المملكة العربية السعودية

تعد مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية من الجهات الرائدة في مجال الاستشعار عن بعد في المملكة والشرق الأوسط.

وللمدينة مركز خاص لاستقبال الصور الفضائية من الأقمار الصناعية هو المركز السعودي للاستشعار عن بعد، يتضمن عدة هوائيات لاستقبال المعلومات، ومركزاً للحفظ والطبع ومعالجة الصور وتحليلها للاستفادة منها في المجالات العلمية المختلفة.

ويرجع تاريخ استقبال صور أقمار لاندسات إلى عام ١٩٨٧م بعد اتفاق أبرم بين مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية وشركة EOSAT الأمريكية، وهي الجهة المسؤولة عن تسويق خدمات لاندسات وصورها.

واستخدمت معلومات لاندسات من قبل عدة جهات حكومية، مثل: وزارة البترول والثروة المعدنية، ووزارة الزراعة والمياه، ووزارة المواصلات، ووزارة الأشغال العامة والإسكان، ووزارة الشؤون البلدية والقروية، والجامعات، ومراكز البحوث.



صورة لتكوينات جيولوجية في وسط الجزيرة العربية ملتقطة من القمر لاندسات ـ ٥ (المصدر: المركز السعودي للاستشعار عن بعد و EOSAT)

أما صور لاندسات فقد استخدمت في عدد من المشاريع التي نفذها المركز السعودي للاستشعار عن بعد، وهي على سبيل المثال لا الحصر:

- مشروع الأطلس الوطني بالتعاون مع المساحة العسكرية بوزارة الدفاع والطيران.
- دراسة تقويم الموارد الأرضية لمنطقة حائل.
- دراسات مستمرة لموارد المياه والمراعي لخدمة وزارة الزراعة والمياه.
- دراسة الموارد المعدنية في منطقة الدرع العربي.
- دراسة مشكلة التلوث النفطي في الخليج العربي، ومن خلال الصور التي تولى المركز تحليلها، تم تعرُّف حجم التلوث وتركيزه، مما سهل عمل الجهات المختصة بتنظيف الشواطئ السعودية منه.

محاسن نظام لاندسات

تكون الصورة الملتقطة بواسطة هذا النظام أكثر اقتصادية من الأقمار الأخرى بالنسبة إلى المناطق الواسعة حيث إن الصورة الواحدة من صور هذا النظام هي بأبعاد ١٨٥×١٧٠ كم. تقدم هذه الأقمار الصناعية مستوى أكبر من المعلومات الطيفية المستخلصة من ٧ حزم طيفية، تشمل الطيف المرئي، والأشعة تحت الحمراء القصيرة والحرارية، وتحقق معلومات مفيدة عن حالة المحاصيل وكشف المركبات المعدنية.

كما يستطيع المهتمون بدراسة التغيرات الزمنية المقارنة الاستفادة من الصور الملتقطة والمحفوظة من أقمار لاندسات منذ بداية هذا النظام قبل ما يزيد على سبعة وعشرين عاماً. وعلى الرغم من الاختلاف في إمكانية الأجهزة المستخدمة في لاندسات ـ ١ ودقتها موازنة بـ لاندسات ـ ٥ حالياً إلا أنها تفيد في تعرف التغيرات البطيئة وغير المحسوسة.

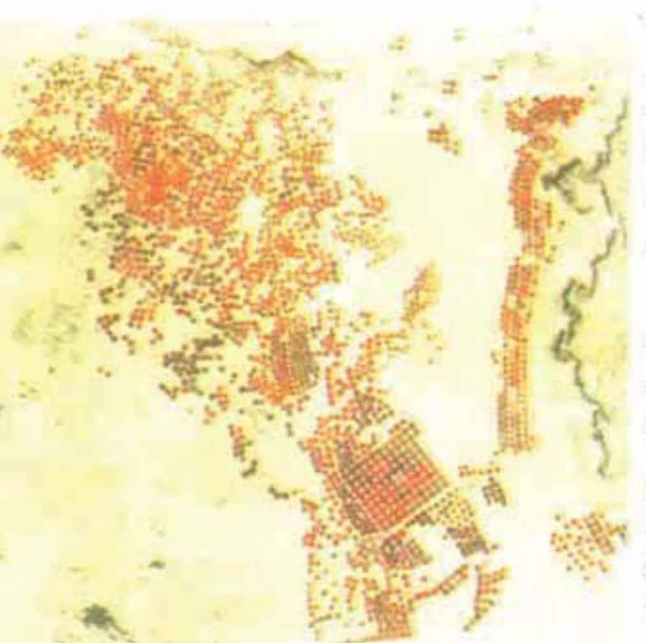
ويمكن تمييز أبعاد بمقدار ٣٠ م من الصور الملتقطة بالحزمة اللونية في لاندسات ٥ و ٤، بينما يمكن تمييز أبعاد بطول ٨٠ م من صور لاندسات ١ و ٢ و ٣. إلا أن بعض الأقمار الأخرى تتفوق على لاندسات في بعض المزايا، مثل: القدرة على التمييز، فتصل قدرتها إلى تمييز أبعاد بطول ١٠م؛ وبذلك فإنها تصبح أكثر

كفاءة في التخطيط العمراني، وهي كذلك أكثر اقتصادية في المساحات الصغيرة، بينما تمتاز الأقمار الصناعية الرادارية بقدرة التقاط الصور بغض النظر عن الظروف الجوية، وتكون قادرة على اختراق السحب، وهي ذات قدرة أفضل في تمييز التضاريس.

لاندسات ٦

وجاء دور لاندسات ٦ الذي يحتوي آخر ما توصلت إليه الصناعات الأمريكية في مجال الاستشعار والذي أطلق في ٥ أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٩٣م.

وحمل هذا القمر جهاز رسم خرائط محسّنًا له الحزم السبع نفسها، وقدرة أكبر على فرز الحزم الطيفية، وتمت إضافة حزمة لونية إضافية يمكن تمييز أبعاد بطول ١٥م من خلال الصور الملتقطة بها.



صورة لمناطق زراعية في وادي الدواسر ملتقطة من القمر لاندسات ـ ٥
(المصدر: المركز السعودي للاستشعار عن بعد و EOSAT)

وبعد عملية إطلاق جرت فيها الأمور بشكل جيد تمامًا خابت محاولات الاتصال بالقمر الصناعي، وأضحى جليًا أن هذا القمر الصناعي واجهه التحطم أو العطل، أو أنه دخل مدارًا آخر غير المدار المطلوب. وأدى ذلك إلى خسارة الشركة المسؤولة عن خدمات هذا القمر الصناعي، وخسارة الإدارة الأمريكية للأجواء والمحيطات NOAA، لمعلومات مهمة في مجال الاستشعار عن بعد.

وأشارت النتائج التي أعلنتها اللجنة المشكلة لتقصي أسباب الإخفاق، أن سبب الإخفاق هو دخول القمر الصناعي إلى مدار مخالف للمدار المطلوب.

ما بعد لاندسات ـ ٦

أدى إخفاق عملية إطلاق القمر الصناعي لاندسات ـ ٦ إلى افتقاد برنامج الاستشعار عن بعد الأمريكي لقمر صناعي جديد بإمكانات متقدمة، بينما كان القمر السابق قد تجاوز عمره الافتراضي بعدد من السنوات أدت إلى انحدار أدائه مما يتطلب عملية تصحيح كبيرة لمعلوماته عند إعداد الصور.

وأدت هذه النتيجة إلى فقدان الجهات الحكومية والعسكرية لمورد مهم للمعلومات، وفتح المجال أمام المعلومات التي تقدمها الجهات الأخرى ولاسيما برنامج الاستشعار عن بعد الهندي، وخصوصًا قمره IRS - IC الذي أطلق في عام ١٩٩٤م. وقدم خدمات مقاربة لـ لاندسات من الناحية الطيفية.

وكان موضوع التكاليف الكبيرة لبرنامج لاندسات والفارق الكبير بين تكاليف تصنيع القمر الصناعي وإطلاقه وتشغيله من جهة والموارد المستخلصة من بيع الصور الفضائية، أو الترخيص باستخدامها من جهة أخرى من الأمور التي تعرقل المشروع.

لحل هذه المشكلة وافق الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش على اعتماد المخصصات المالية اللازمة لتصنيع القمر الصناعي لاندسات ٧ وإطلاقه؛ وذلك بجعل مشروع لاندسات مشتركًا بين الإدارة الوطنية للطيران والفضاء الأمريكية NASA والقوة الجوية الأمريكية.

ويذكر أن وزارة الدفاع الأمريكية من أكثر زبائن نظام لاندسات، فقد استخدمت صور لاندسات على نطاق واسع في حرب الخليج من قبل القوات الأمريكية.

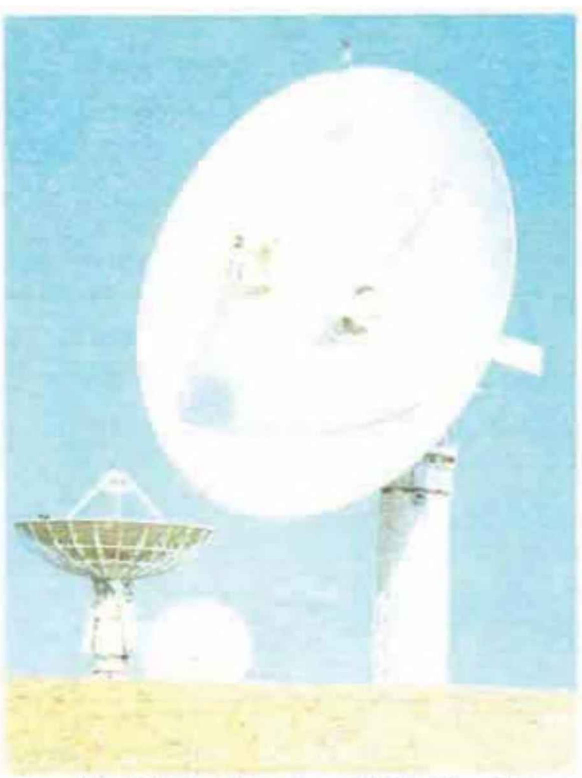
لكن هذا الترتيب تم التخلي عنه بقرار رئاسي آخر من الرئيس كلينتون الذي جعل المشروع مسؤولية

مشتركة بين ناسا والإدارة الوطنية للأجواء والمحيطات الأمريكية NOAA، وإدارة المسح الجغرافي الأمريكية.

لاندسات ـ ٧

كلفت عملية تطوير هذا القمر الصناعي وتصنيعه ٦٥٠ مليون دولار، بينما تكلف عملية إطلاقه وتشغيله للسنوات الخمس القادمة نحو ١٥٠ مليون دولار.

وتم بنجاح إطلاق هذا القمر الصناعي بواسطة صاروخ دلتا ـ ٢ في ١٥ إبريل/ نيسان ١٩٩٩م من قاعدة سلاح الجو في فاندنبرج، ووصل إلى مداره على ارتفاع ٧٠٥ كم في مدار متزامن مع الشمس.



هوائيات محطة مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية لاستقبال صور الأقمار الصناعية للاستشعار عن بعد (المصدر: المركز السعودي للاستشعار عن بعد)

يزن هذا القمر الصناعي نحو ٢٢٠٠ كغ وهو بطول ٣ر٤م، وبقطر ٨ر٢م، ويتكون القمر الصناعي من ثلاثة أجزاء، هي الهيكل، والحمولة المساندة، والحمولة المفيدة.

صنع الهيكل من مادة ألياف الكربون المدعمة بالأبوكسي، وهو مجهز بجناح واحد مكون من أربعة ألواح بطول ٩م مكسوة بالخلايا الشمسية تزوده بطاقة تزيد على ١٦٠٠ وات يرتبط بالجسم المركزي بذراع تكون مطوية عند إطلاق القمر الصناعي.

أما الحمولة المساندة فتتضمن نظام توزيع الطاقة الكهربائية ونظام الدفع المسؤول عن حفظ ارتفاع المدار للقمر الصناعي، وحفظ الاتزان، ونظام التحكم، وإرسال معلومات أداء القمر الصناعي، وإرسال المعلومات العلمية.

أما الحمولة المفيدة فتتكون من الجهاز الخاص بالاستشعار عن بعد، والمسمى براسم الخرائط المحسّن.

يعمل هذا الجهاز بثماني حزم طيفية ليقدم معلومات صورية بتميّز عال تغطي المدى المرئي والقريب من الأشعة تحت الحمراء، والأشعة تحت الحمراء القصيرة، والأشعة تحت الحمراء الحرارية، وتمسح شريطاً أرضياً بعرض ١٨٥كم من ارتفاع ٧٠٥كم.

والصور الملتقطة بهذا الجهاز تراوح بين ما يمكن تمييز ١٥م من صورها كما في الصور باللونين الأبيض والأسود، أو ما يدعى بالنمط البانكروماتي، وما يمكن تمييز أبعاده بطول ٣٠م للصور الملتقطة بحزم طيفية بالمدى المرئي والمدى القريب من الأشعة تحت الحمراء، والأشعة تحت الحمراء القصيرة و ٦٠م بالنسبة إلى الأشعة تحت الحمراء الحرارية.

ويحمل هذا القمر الصناعي جهاز تسجيل للمعلومات والصورة من أحدث أجهزة التسجيل، والمكون من دوائر متكاملة من أشباه الموصلات فقط بدلاً من جهاز التسجيل بالشريط المغناطيسي المستخدم سابقاً، وتبلغ سعة الجهاز الجديد ٣٨٠ جيجابت أي ١٠٠ صورة فضائية.

المراجع

١. نشرة متخصصة بعنوان [illegible] صادرة بمناسبة مرور ٢٠ عاما على إنشاء برنامج لاندسات.
٢. نشرة بعنوان NASA FACTS LANDSAT صادرة عن NASA بتاريخ نهاية ١٩٩٧م.
٣. أعداد من مجلة AVIATION WEEK & SPACE TECHNOLOGY لشهر ابريل/ نيسان ١٩٩٩م.

فقدان الذاكرة «الزهايمر».. أعراضه وأسبابه وعلاجه

عبدالرحمن العيسوي
الإسكندرية - مصر

قد يتعرض الإنسان للمعاناة من الأمراض الجسمية أو العقلية أو النفسجسميّة في أي مرحلة من مراحل حياته، وإن كان أخطرها تلك الأمراض التي تصيب عقل الإنسان، لكونه أغلى ما يملكه الإنسان وأثمنه، وما يميزه من سائر الكائنات الحية الأخرى، إلى جانب أن المريض العقلي لا يعاني، وحده، من آلام المرض، ولكن تعاني معه أسرته، بل مجتمعه كله(١).

ولذلك فإن من الأهمية بمكان حماية أفراد المجتمع ووقايتهم من التعرض للأمراض العقلية، وعلى أسوأ الفروض إذا حدثت الإصابة فعلاً، فلابد من توفير الرعاية والعناية الطبية والنفسية والاجتماعية، ذلك لأن توفير الرعاية والإشراف والعناية يخفف من حدة آلام المريض حتى في الحالات التي لا تعرف أسبابها حتى الآن.

بل إن الوعي الصحي ضرورة ملحة لما له من أثر طيب في سلامة بنيان الشخصية وصحتها واتزانها(٢). ذلك لأن خطورة الأعراض العقلية حين يهاجم المرض الفرد، تتوقف حدتها على مدى سلامة الشخصية قبل الإصابة. فمن كانت شخصيته سوية قوية متكيفة كانت حدة إصابته أقل وطأة. ومرض فقدان الذاكرة (الزهايمر) أحد الأمراض العقلية التي تنطبق عليها هذه الظروف، بمعنى أن أسبابه غير معروفة حتى الآن، فهي تغيرات مخية لا نعرف سبب حدوثها، ولكن الرعاية تساعد على التخفيف من وطأتها(٣).

مدى خطورة مرض الزهايمر

بتاريخ أكتوبر/ تشرين الأول نشرت جريدة الأهرام القاهرية خبراً يقول: ريجان ينسى أنه كان رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية، حيث اشتدت أعراض مرض الزهايمر على الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان إلى حد أنه لم يعد يذكر أنه كان رئيساً للولايات المتحدة، ولكنه مايزال يلعب الجولف ويؤدي بعض التمارين الرياضية البسيطة، ويذهب إلى مكتبة في لوس أنجلوس، ولكن أصدقاءه لم يعودوا يلمسون فيه ما عرفوه عن حبه للحياة الاجتماعية، ويبدو ريجان البالغ من العمر ٨٦ عاماً في حالة جيدة، لكنه لم يعد يشعر بالعالم من حوله عدا زوجته نانسي. وهو يرد على تحية الناس في الطريق، لكنه لا يفهم لماذا يحييه كل هذا العدد من الناس، لقد نسي أنه كان طوال ثماني سنوات أقوى رجل في العالم. وكان مرض فقدان الذاكرة «الزهايمر»، قد أصابه عام ١٩٩٤م أي منذ خمس سنوات(٤)، فما هذا المرض الخطير وما أسبابه، وما السن التي ينتشر فيها؟



فروق بين مرض الزهايمر ومرض الشيخوخة

طبيعة مرض الزهايمر

يقول إنجلش وانجلش: إن مرض الزهايمر ALZHEIMER'S DISEASE أحدالأمراض العقلية التي تصيب الإنسان قبل الشيخوخة PRESENILE وهو تدهور في المخ،

ذلك التدهور الذي يسبب DETERIORATION OF THE BRAIN معاناة المريض من الصعوبات في الكلام، ويؤدي إلى الإصابة بالشيخوخة المبكرة(٥) EARLY SENILITY.

ومؤدى هذا الرأي أنه لا يحدث في الشيخوخة، وإنما هو يعجل فيها ويسبقها. ويطلق على هذا المرض أسماء أخرى، فيقال له: «عته الزهايمر» أو «تصلب الزهايمر»، أو «خلايا أو أسباب الزهايمر»، وهذا الاسم نسبة إلى مكتشفه، وهو طبيب أعصاب ألماني اسمه ألواس الزهايمر، عاش بين عامي ١٨٦٤ و ١٩١٥م. ولقد تم اكتشاف هذا المرض عن طريق علاج حالة لسيدة في الواحدة والخمسين من عمرها. وكانت تشكو من حالة عته تشبه حالات عته الشيخوخة.

ويمرّ هذا المرض بعدة مراحل، تتميز المرحلة الأولى بوجود تدهور عقلي، واضطرابات في التفكير والاستيعاب والإدراك، والتناسق الحركي، والعجز عن تذكر الأحداث القريبة، والعجز عن استخدام المفردات اللغوية المناسبة للتعبير، والعجز عن فهم ما يقال أمام المريض، وفي المرحلة الثانية من تطور هذا المرض يعاني المريض من الهُذاءات أو الضلالات DELUSIONS وهي أفكار زائفة وغير حقيقية، كما يعاني المريض من الخلط والتزييف في الذاكرة. ويعتريه نوبات من الضحك والبكاء، والقلق وشرود الذهن، وتكرار الحركات، وخلو حركات المريض من الهدف. وفي المرحلة الثالثة تزيد وطأة المرض، ويصاب المريض بالعته الحاد. ولذلك فإن هذا المرض هو أحد أمراض العته العقلي.

وحيث إنه بصورة عامة، يصيب المرضى في السن ما بين ٤٠ و ٦٠ عاماً، فإنه يُصنَّف على أنه أحد أمراض ما قبل الشيخوخة، أو أنه مرض الشيخوخة المبكرة.

ولمرض الزهايمر أسس تشريحية تشبه تلك الخاصة بأمراض الشيخوخة، حيث توجد تغيرات في خلايا المخ لها شكل الخيوط المتشابكة أو «الأسيتة». ولذلك أطلق عليها خلايا الزهايمر السبتية ALZHEIMER'S BASKET CELLS.

ومن حيث الأسباب التي يرجع إليها هذا المرض، فللوراثة HEREDITRY أو الاستعداد أو البناء الوراثي أثر في الإصابة بهذا المرض، حيث يتأثر بالجينات أو ناقلات الوراثة GENES التي تنتقل من الآباء والأمهات والأجداد إلى الأبناء. وينتشر هذا المرض بين النساء عنه بين الرجال بنسبة ٥ر٢ - ١.

وليس هناك علاج معروف لهذا المرض، ولكن قد يعيش المريض به مدة تصل إلى عشر سنوات(٦).

فهذا المرض يتسم بتدهور الذاكرة الشديد، وفقدان الإحساس بالزمان، وعدم التعرف إلى المكان، مع وجود الهلاوس HALLUCINATIONS وتدهور الصحة، وتقلص الأطراف، وتحلل الخلايا العصبية مع الإصابة بنوبة صرعية(٧).

الزهايمر مرض عضوي النشأة وليس وظيفياً

ويصنف مرض الزهايمر ضمن الأمراض العقلية العضوية أي ذات النشأة العضوية أي الناجمة عن أسباب عضوية ORGANIC CAUSES وذلك على حد قول مارتن(٨) MARTIN (P.515)؛ وبذلك يختلف عن طائفة أخرى من الاضطرابات أو الأمراض العقلية الوظيفية FUNCTIONAL، أي تلك التي تنشأ عن أسباب نفسية كالضغوط والأزمات، والتوترات والصراعات، والمشكلات الاجتماعية، ومشكلات الإخفاق والإحباط والحرمان والقسوة والصد والزجر. وفي حالة الأمراض الوظيفية يصيب العطب فيها «وظيفة» العضو، كالتفكير بالنسبة إلى الدماغ، بينما يكون العضو نفسه، أي المخ سليماً. ويقع ضمن الأسباب العضوية الأورام الدماغية، واستسقاءالدماغ والإصابات والجروح الدماغية والأخرجة، وتلف الخلايا الدماغية، والزهري والتسمم، والإشعاعات، والغازات السامة.

> يتسم هذا المرض بتدهور الذاكرة الشديد، وفقدان الإحساس بالزمان، وعدم التعرف إلى المكان، مع وجود الهلاوس

تأثير الظروف النفسية والاجتماعية

من بين الأمراض الجسمية أو العضوية النشأة مرض الشيخوخة SENILE DEMENTIA، ومرض الشيخوخة المبكر PRESENILE DEMENTIA. وأعراضهما متشابهة، ولكن الاختلاف يكمن في سن بداية المرض. فعته الشيخوخة يطلق على حالة المريض إذا عانى من الأعراض بعد سن ٦٥ عاماً. وعته ما قبل الشيخوخة إذا حدثت الإصابة قبل سن الخامسة والستين عاماً.

ويدل فحص دماغ المريض الشيخ على وجود تدمير أو

تلف كبير في عضو المخ، أو في نسيج المخ العصبي NERVOUS TISSUES إذ يلاحظ أن المخ ينكمش في حجمه، وتقل تقلصات لحاء المخ أو تضيق. ومع ذلك فإن سبب عته الشيخوخة غير معروف تماماً. والحقيقة الواضحة في هذا الموضوع أن درجة العته، وكذلك الاضطرابات السلوكية، لا تتمشى دائماً مع درجة تدهور الدماغ. فقد يكون التدهور الدماغي كبيراً ودرجة العته صغيرة، وقد يكون العكس صحيحاً. ومؤدى ذلك أن هناك أثراً يرجع إلى بناء شخصية المريض والظروف الاجتماعية الراهنة. ومؤدى ذلك أن شخصية المريض وظروفه الاجتماعية تتفاعلان مع حجم التدهور أو التدمير الدماغي(٩).

ويتأثر العجز الدماغي BRAIN IMPAIRMENT بالظروف الاجتماعية للمريض، فعلى الرغم من تصنيف هذا المرض على أنه مرض عضوي النشأة، فإن العوامل النفسية والاجتماعية تؤدي دوراً في تحديد حجم الأعراض وشدتها؛ وذلك يجعلنا نوجه الاهتمام البالغ لظروف المريض الاجتماعية ونعمل على تحسينها، وفي الوقت نفسه نحرص على سلامة بناء الشخصية منذ الصغر.

هل في الإمكان حدوث المرض بعد سن الخامسة والستين؟

مرض الزهايمر من أكثر أمراض المخ التدهورية DEGENERATIVE، وكان ينظر إلى هذا الاضطراب حتى وقت قريب على أنه أحد اضطرابات ما قبل الشيخوخة أو العته قبل الشيخوخة PRESENILE DEMENTIA، ولكن الدراسات الحديثة، أظهرت أنه من الممكن أن يحدث بعد سن الخامسة والستين. فالتدهور ينمو ببطء، وينتشر خلال المخ، مع احتمال موت المريض بعد نحو خمس سنوات. وإن كان هذاالتقدير يختلف من مصدر إلى آخر ولكن فترة معاناة المريض تمتد من سنتين إلى عشر سنوات ثم يتوفى. ويعتري المخ عند المريض نوعان من التدهور: أحدهما كتلة متشابكة الخيوط أو الخطوط، أو تعقد من الألياف العصبية NEUROFIBILLARY TANGELES AND SENILE PLAQUES، وبروزات الشيخوخة. وتتكون هذه البروزات من مجموعة الشعيرات العصبية الشاذة، تلك المجموعات التي تعرقل نقل التيارات العصبية أو النبضات العصبية أو انتقالها. أما كتلة الخيوط المتشابكة فتتكون من تجمع الألياف العصبية الرقيقة أو الصغيرة الملفوف بعضها فوق بعض؛ وهذا التشابك قد يعوق امتداد التغذية عن الوصول إلى خلايا المخ العصبية.

صعوبة تشخيص مرض الزهايمر

ويلاحظ أن مرض الزهايمر لا يمكن تشخيصه بدقة من مجرد الضعف السلوكي وحده، ولكن بعد الوفاة فقط يمكن تشريح المخ وفحصه، ومن ثم التأكد من وجود المرض.

وهناك أدلة على وجود عامل وراثي سببي في نشأة هذا المرض، حيث لوحظ انتشاره بين أفراد أسر بعينها، أو بين الأقارب المقربين أكثر من معدلات انتشاره بين أبناء المجتمع عامة. وعلى ذلك يمكن افتراض إسهام الوراثة(١٠) في الإصابة بهذا المرض. ويصاب المريض بضمور في لحاء المخ مع اتساع المسافات بين الفصوص LOBES والتجويفات الداخلية THE INTERIOR CAVITIES.

ويؤكد سترانج STRANG أن مرض الزهايمر من الأمراض التي لا تعرف أسبابها الوراثية. قد يصيب الأفراد في سن الأربعين، وأعراضه هي أعراض ذهان الشيخوخة SENILE PSYCHOSIS، ومن ذلك ضعف الذاكرة والخلط والتشويش وسوء التوجه، أو فقدان القدرة على تمييز الاتجاه. وربما يصاب المريض بفقدان القدرة على الكلام، وفقدان القدرة على ممارسة الحركات العضلية الإرادية(١١) APRAXIA ولايشعر المريض بالراحة، ويعاني من النشاط الزائد، وفي بعض الحالات قد تختفي الأعراض، ولكن في أغلبها يكون التدهور ثم الوفاة. فهذا المرض أسبابه جسمية، SOMATO - GENESIS ولكنها غير معروفة. ويشبه هذا المرض مرضا عقلياً آخر هو مرض بيك PICK'S DISEASE.

ريغان من ضحايا الزهايمر

هل هناك فرق بين مرض الزهايمر وعته الشيخوخة؟

هناك عدة فروق بين مرض الزهايمر وعته الشيخوخة، منها حدوثه في سن مبكرة نسبياً، أي: في أواخر الثلاثينيات أو الأربعينيات، وحدوث التدهور الشديد، والصدمات الدماغية في المراحل الأولى من المرض، وكذلك معاناة المريض من فقدان القدرة على الكلام، وعلى الحركة العضلية، والمعاناة من الخلط في

استخدام الكلمات، وقد يفقد المريض القدرة على ممارسة بعض المهارات البسيطة، مثل: ارتداء الملابس، أو إعداد فراشه.

ويقسم كول مان COLEMAN **رحلة المرض إلى ثلاث مراحل هي(١٢):** (P.465).

- المرحلة الأولى، تتميز بضعف الإدراك الحسي، وضعف الفهم، وضيق القدرة على ممارسة الأعمال في عدد من المجالات في وقت واحد، والتدهور العقلي، ذلك التدهور الذي يحدث أولا في العمليات الحسابية، وفي الاستدلال المنطقي، وفقدان الذاكرة حول الأحداث الحديثة. ولكن رد الفعل الانفعالي للمريض يعتمد على شخصيته قبل الإصابة بالذهان. ويغلب على مزاج هؤلاء قبل المرض المعاناة من الحزن والقلق والتوتر والتهيج، ولكن في المرحلة المبكرة من المرض لا تنتشر حالات الفرح الزائد، أو الزهو، أو البلادة.

ومن الناحية السلوكية هناك تغيرات تسير نحو السلوك المضاد للمجتمع، والسلوك غير الأخلاقي. ويظهر العجز اللغوي في هذه المرحلة المبكرة أيضا، حيث ينسى المريض الكلمات، ويصعب عليه نطق الكلام، ويخطئ المريض في فهم معنى الكلمات المنطوقة، ويرتكب الأخطاء في عملية القراءة والكتابة.

- وفي المرحلة الثانية، من نمو المرض تصبح الأعراض أكثر شدة، ويبدو العجز العقلي واضحاً في كل الوظائف العقلية مع إعاقة التذكر، ويستخدم التسامر أو المحادثات لملء الفجوات الناتجة في الذاكرة. ويغلب على مزاج المريض الحزن والاكتئاب والقلق. وقد تحدث حالات من الابتهاج الزائف أو البلادة الزائدة، ولكنها نادرة الحدوث. وقد يبكي المريض أو يضحك بصورة قهرية مع زيادة الحركة عن الحد، كما تبدو في عدم السكون إلى الراحة والتجول دون هدف، وتكرار الأعمال والحركات العديمة الغاية مثل حك الأنف. ويزداد التدهور اللغوي بما في ذلك خلط الأسماء مع الأخطاء في القواعد النحوية وتكرار الكلمات.

وفي المرحلة الثالثة تشبه أعراض المريض حالة المريض في المرحلة الأخيرة من الاضطرابات الدماغية العضوية الأخرى.

وصف حالة مريض بالزهايمر

ويستعرض كول مان حالةً لمريض توضح نسق أعراض هذه الحالة SYMPTOMATOLOGY فقد كان هذا المريض رجلا سعيداً واجتماعياً، وكان يقضي معظم لياليه مع أسرته، ويميل إلى الحديث كثيراً، ويغنّي وينخرط في كثير من السلوك الترفيهي. وفي سن ٤٥ عاماً تغير سلوكه تغيراً كبيراً حيث أصبح يشعر بالنعاس معظم الوقت، وأخذ عند العودة من العمل يجلس في كرسي ثم يغط في النوم. وفي الوقت نفسه لاحظ صاحب العمل الذي يعمل به أنه لم يعد كفئاً EFFCIENT كما كان من قبل، وفقد الاهتمام أو الميل نحو عمله، وبدا مشوشاً CONFUSED أو مختلطاً وهادئاً، ولم يعد يعير زملاء العمل الذين كان صديقاً لهم أي انتباه، وكان كلما أمسك بعمل ما تركه دون أن ينتهي منه. وأبقته الشركة نحو عام كامل على أمل أن تتحسن حالته، ولكنهم اضطروا لفصله من العمل. وما إن ترك العمل حتى ازداد استغراقا في النوم، وكان يشعر بالدوار أو الدوخة والنعاس جالساً على كرسيه. ولسوء الحظ توفيت زوجته وأصبح مضطرباً ومشوشاً أو مختلطاً لدرجة أنه عجز عن إعداد مراسم جنازة زوجته.

هناك أدلة على وجود عامل وراثي سببي في نشأة هذا المرض، حيث لوحظ انتشاره بين أفراد أسر بعينها

وقبل ثلاث سنوات من دخوله المستشفى، أخذه والده كي يعيش معه وكي يقوم بأعمال منزلية بسيطة(١٣) ولكن هذه الخطة لم تفلح؛ لأن المريض لم يعد قادراً على القيام بأي عمل مهما كان بسيطاً، حيث أصبح معتمداً اعتماداً كلياً على أبيه، ولم يكن قادراً حتى على ارتداء ملابسه وإذا حاول ذلك كان (يكرمش) ملابسه MESS، وبدلا من أن يصلحها كان يغط في النوم. وعندما كان الأب يعود من عمله إلى منزله كان يجد المريض مرتدياً ملابسه الداخلية. وكان كثير النسيان بحيث لم يتمكن من تذكر أي شيء يخبره به والده. وفي ذات مرة عاد الوالد من عمله، وعلى الفور شم رائحة غاز. وبعدها عرف أن المريض فتح صنبور الغاز، ونسي أن يشعل الموقد. وكان المريض يشكو من كونه مريضاً، وكان يدرك أن هناك شيئاً ما خطأ معه، وكان يعتقد أن هناك فتاة صغيرة تخطط للقبض عليه. واستمر تدهور الحالة حتى دخل المستشفى العقلي. ولقد بدا المريض أصغر سناً من عمره

الحقيقي بنحو عشر سنوات. وعندما كانت توجه إليه الأسئلة كان لا ينطق سوى كلمات متفرقة، وكان يكرر بسرعة مقاطع وأجزاء من الكلمات. وعندما كان يجلس فوق كرسي كان يقوم بعمل حركات عديمة الهدف، ويقوم بأعمال غريبة.. يمضغ ويمتص الهواء، ويحرك راحتيه.. يلوي عضلاته، وغير ذلك من السلوكيات المتطرفة. وكان يسود مزاجه المرح، وخصوصاً عندما كان يحادثه أحد. وقد ينفجر ضاحكاً، وقد يقلد صوتاً، ويكرر السؤال نفسه الذي سمعه بدلاً من الإجابة.

ولذلك يحبط المعالج أو المحلل في التعامل معه. ومن الصعب تحديد قدرته العقلانية ووظائفه العقلية. ولكن تتضح الحالة بسرعة أن المريض يعاني من عته شديد PROFOUND DEMENTIA، ولكن على كل حال أسباب هذا الانحطاط أو التدهور العصبي NEURAL DEGENERATION غير معروفة. ومن الواقع أن عامل العمر أو السن ما هو إلا عامل واحد. وتكمن المعالجة في التحفظ على المريض داخل المستشفى.

أوجه الرعاية الممكنة لمرضى الزهايمر

تقيم المجتمعات المتقدمة كثيراً من أوجه الرعاية المتخصصة للعجزة عقلياً. ولاشك أن تقديم مستويات مختلفة من الرعاية لكبار السن يقلل من مشكلاتهم(١٤). ولحسن الحظ أن غالبية كبار السن لا يعانون من التدهور العقلي، أو العجز أو الإعاقة العقلية. فلقد تبين أن هناك فقط ٥٪ - ١٠٪ ممن بلغوا سن الخامسة والستين هم الذين يعانون من مرض الزهايمر، ويعد هذا المرض السبب الرابع في حدوث الوفاة في الولايات المتحدة الأمريكية، ويصيب نحو ثلاثة ملايين أمريكي. والمصابون به يمثلون نصف الذين يحتاجون إلى رعاية تمريضية في المنازل، حيث يحتاج المريض إلى إقامة ممرضة معه في المنزل. ويمثل هذا المرض نصف مرضى العته الآخرين.

وهناك وحدات خاصة لإيواء مرضى الزهايمر. ومن السهل أن يضل المريض طريقه في أثناء تجواله؛ ولذلك يلزم حمايتهم من التجوال، ومن الأعمال الخطيرة. وتعد الوحدة المخصصة للتقليل من القيود وفي الوقت نفسه حماية المريض من الأخطار، ومن إيذاء غيره من ذلك غلق باب الوحدة، وإن كان ذلك قد يبدو قاسياً، وذلك للتقليل من فرض القيود على سلوك المريض. ويستطيع المريض أن يتجول داخل الوحدة ما شاء له التجول دون أن يؤذي نفسه أو غيره. ومثل هذه الوحدات تحتاج إلى التدعيم بمزيد من الموظفين الذين ينبغي أن يتلقوا تدريبات دقيقة جداً في إدارة السلوك. ويتعين تخطيط الأنشطة التي تشغل المرضى باستمرار. كما تحتاج هذه الوحدات إلى تصميم خاص، من ذلك عدم تعرض المريض للضوء الشديد أو الزغللة، فالأرضية والحوائط ينبغي ألا تكون براقة؛ لأن ذلك يزيد من الخلط والخطأ في الاتجاه. ويجب تزويد الوحدة بمزيد من إشارات التوجيه أو اللوحات الإرشادية، مع تثبيت الصور جيداً فوق الحوائط حتى لا تسقط عندما يجذبها المريض حباً في الاستطلاع، ومنع الزينة التي تزيد من الخلط والتشويش. ويلاحظ أن المريض قد يقلب ليله نهاراً ونهاره ليلاً. ولذلك يجب حماية المرضى الآخرين في أثناء نومهم حتى لا يزعجهم. ويجب أن يسمح باب الغرفة للمشرف برؤية المرضى في الداخل في أثناء النوم.

المراجع

١. عبدالرحمن العيسوي، العلاج النفسي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان ١٩٨٦م.
٢. عبدالرحمن العيسوي، الوعي السيكولوجي، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان ١٩٩٦م.
٣. عبدالرحمن العيسوي، علم النفس الطبي، منشأة المعارف بالاسكندرية، ١٩٨٩م.
٤. جريدة الأهرام القاهرية ٦/١٠/١٩٩٧م

5 - ENGLISH, H.B. AND ENGLISH, A.C., A COMPREHENSIVE DICTIONARY OF PSYCHOLOGICAL AND PSYCHOANALYTICAL TERMS. LONGMANS, LONDON, 1958, P. 24.

٦. عبدالمنعم الحفني، موسوعة الطب النفسي، مكتبة مدبولي - القاهرة، ص١٢٤٧.
٧. عبدالمنعم الحفني، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، مكتبة مدبولي، القاهرة ص٤٠.

8 - MARTIN, B., ABNORMAL PSYCHOLOGY HO It, RINEHART AND WINSTON, NEW YORK 1980, P. 515.

٩. عبدالرحمن العيسوي؛ باثولوجيا النفس، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية ١٩٨٩م.
١٠. مرجعه السابق ، MARTIN.

11 - STRANGE, J.R. ABNORMAL PSYCHOLOGY MC GRAW - HI11 BOOK CO. NEW YORK, 1965, P. 386.
12- COLEMAN, J.C ABNORMAL PSYCHOLOGY SCOTT, CHICAGO, 1956, P. 465.
13- OP. CIT. P. 466.
14- BELL P.A ET AL, ENVIRONMENTAL PSYCHOLOGY, 1990, P. 425 HO It, RINETHART AND WINSTON, CHIGAGO.

الكوليسترول

علي صالح الناصر

الرياض - السعودية

انطلقت التحذيرات العلمية في الغرب منذ أكثر من خمس عشرة سنة حول علاقة ارتفاع مستوى الكوليسترول في الدم بأمراض القلب. وطالب العلماء بضرورة تغيير الوجبات الغذائية الغربية. فقد لاحظ العلماء ارتفاع نسبة الأمراض المتعلقة بالقلب؛ وذلك مع انتشار الوجبات الغذائية الغربية المعروفة باسم الوجبات السريعة التي تحتوي على مواد دهنية عالية من مصدر حيواني، ومن ثم تحتوي على نسبة كوليسترول عالية. وحتى الآن ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين مازال الناس يمارسون عادات الغذاء نفسها التي تحتوي على كوليسترول أعلى مما يتطلبه الجسم.

هذه المادة التي يتأثر تركيزها على الجسم بالوجبات الغذائية اليومية، ولكن لا أحد يأخذ الأمر بجدية.

في تقرير لأحد المستشفيات الأمريكية عن مواطن أمريكي نشيط عمره ٥٠ سنة، وهو مدير لشركة صغيرة، لا يأكل البيض إلا وهو مقلي مع زبدة وشرائح لحم تحتوي على شحوم عالية، ويتناول غذاء عالي الدسم، ويدخن بشراهة، ولا يمارس الرياضة إلا في حدود حركته اليومية فقط. ومع تحذير الأطباء له من أن نسبة الكوليسترول في الدم مرتفعة بدرجة خطيرة على صحته إلا أنه تجاهل نصيحة الأطباء، واستمر يمارس عادته اليومية والغذائية. وبعد شهرين من تحذير الأطباء له، أدخل المستشفى، وأجريت له عملية جراحية في الشريان التاجي. وبعد الخروج من المستشفى قرر تغيير أسلوب حياته، فتوقف عن التدخين تماماً، وأصبح يمارس الرياضة ثلاثة أو أربعة أيام في الأسبوع، وتغيرت أنواع الوجبات الغذائية التي يتناولها، فأصبح يكثر من تناول الوجبات الغذائية التي تحتوي على ألياف غذائية منخفضة المحتوى الدهني مثل الخضراوات والسلطات التي لايضاف إليها الدهن، وأصبح يتفاخر بأن مستوى الكوليسترول في الدم في الحدود الطبيعية. عموماً يعدّ الشعب الأمريكي من أكثر شعوب العالم إصابة بأمراض القلب لاستهلاكهم كميات كبيرة من الكوليسترول في غذائهم اليومي حيث يصل إلى ٥٠٠ ملغ للرجال و ٣٥٠ ملغ للنساء فهو فوق المعدل المسموح بتناوله يوميًا الذي يعادل ٣٠٠ ملغ للرجال و ٢٥٠ ملغ للنساء. وقد لاحظ العلماء زيادة نسبة الإصابة بأمراض القلب لدى الشعوب الآسيوية بعد انتقالهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية واندماجهم مع المجتمع الأمريكي وتغير وجباتهم الغذائية وانخفاض تناولهم للوجبات الغذائية المحتوية على المنتجات الزراعية والمأكولات البحرية، وازدياد استهلاكهم للوجبات الغذائية العالية الدهن من المصدر الحيواني.



الوجبات الغذائية التي تحتوي على نسبة عالية من الدهون تساعد على زيادة معدلات الكوليسترول في الدم



الفاكهة والخضار من وسائل الحماية

الكوليسترول وأمراض القلب

أثبت العلماء منذ عدة عقود العلاقة الوثيقة بين أمراض القلب وارتفاع مستوى الكوليسترول في الدم. ولكن الكوليسترول عنصر واحد من عدة عناصر أخرى معقدة تؤدي إلى أمراض القلب، مثل: السمنة المفرطة (البدانة)، والتدخين، وارتفاع ضغط الدم، وعدم ممارسة الرياضة بشكل روتيني. كما تؤدي الصفات الوراثية دوراً مهماً ومعقداً في الإصابة بهذه الأمراض. إذ يمكن أن يصاب أي شخص بأمراض القلب، أو يموت من وجود بعض هذه الأمراض، بينما قد يعيش شخص آخر بالأمراض نفسها من دون مشكلات صحية معينة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن نسبة الكوليسترول في دم الإنسان لا علاقة لها ببدانة الجسم.

وقد استطاع الكيميائي الفرنسي بولتير دي لاسال من فصل

الكوليسترول وتنقيته أن يحصل على مادة دهنية بيضاء تميل إلى الصفرة، وكان ذلك في القرن السابع عشر الميلادي في عام ١٧٦٩م. وبدأ العلماء يشكون في علاقة الكوليسترول بأمراض القلب عندما لاحظوا وجود ترسبات من الكوليسترول على جدار الأوعية الدموية عند مرضى القلب. وبدلاً من أوعية دموية ناعمة ولينة وطرية وجدوا أوعية قاسية وخشنة مثل الأنابيب القديمة المهترئة مبطنة من الداخل بطبقات من الكوليسترول. ومع ازدياد الترسبات على الجدار الداخلي للأوعية يحدث تصلب في الشرايين وانسداد وصعوبة في مرور الدم وتزداد نسبة الإصابة بأمراض القلب، والذبحة الصدرية، وأمراض أخرى. وفي عام ١٩١٣م لاحظ العالم الروسي نيكولي انتيشكوف وجود ترسبات مشابهة وانسداد في الأوعية الدموية للأرانب عندما تتغذى بوجبات غذائية عالية الكوليسترول. ثم أثبتت الدراسات العلمية المتعددة على مدى عدة سنوات وأبحاث متواصلة بما لا يدع مجالاً للشك العلاقة الوثيقة بين أمراض القلب والوجبات الغذائية العالية الكوليسترول والعالية المواد الدهنية.

ما الكوليسترول؟

الكوليسترول مادة حيوية من المواد الدهنية الكحولية التي تسمى الاستيرويدات والاستيرويلات STEROIDS AND STEROLS، ويوجد الكوليسترول في الحيوانات ومنتجاتها (الألبان ومنتجاتها والبيض واللحوم) فقط، أما النباتات فتحتوي على استرويدات متعددة من أهمها بيتا سيتوستيرول B - SITOSTEROL. وقد حير الكوليسترول العلماء، فعلى الرغم من السمعة السيئة التي يحظى بها الكوليسترول إلاّ أنه من المركبات المهمة جداً للحياة؛ إذ يدخل في تركيب الأغشية الخارجية للخلايا الحية، ويتحكم في دخول المواد الأساسية، والعناصر المعدنية والماء إلى الخلية، كما يدخل في تركيب العصارة الصفراء المهمة التي تقوم بدور أساسي في هضم المواد الغذائية ولاسيما الدهون. كما يدخل في تركيب الغشاء الدهني المبطن، والعازل للخلايا العصبية. ويعدّ عنصراً أساسيًا في إفراز الهرمونات في الجسم، ومنها الهرمونات الجنسية. ويعدّ حافزاً لإنتاج فيتامين د في الجسم. ويتم إنتاج معظم الكوليسترول في الكبد، كما يتم الحصول على ٢٠٪ ـ ٣٠٪ من الوجبات الغذائية.

أنواع الكوليسترول

يتحد البروتين مع الدهون والكوليسترول، ويكوّن مركبات تسمى ليبوبروتين LIPOPROTEINS تساعد على انتقال الكوليسترول في الدم. وتوجد ثلاثة أنواع من الليبوبروتين حسب نسبة البروتين فيها. ليبوبروتين منخفض الكثافة جداً VERY LOW (VLDL) DENSITY LIPOPROTEIN، ويحتوي

النوع	النسبة الطبيعية لا يتطلب علاج مليجرام/١٠٠مل دم (ملي مول/لتر)	معدل عالي خطر لا يحتاج علاج مليجرام/١٠٠مل دم (ملي مول/لتر)	معدل عالي يحتاج لعلاج فوري مليجرام/١٠٠مل دم (ملي مول/لتر)
كوليسترول	٢٥٠>	٢٥٠-٣٠٠	٣٠٠<
	(٦,٥>)	(٦,٥-٧,٨)	(٧,٨<)
VLDL	١٣٠>	١٣٠-٣٠٠	٣٠٠<
	(٣,٤>)	(٢,٩-٣,٤)	(٤,٩<)
LDL	١٦٠>	١٦٠-١٨٠	١٨٠<
	(٣,٩>)	(٣,٨-٤,٦)	(٤,٦<)

جدول يبين معدل نسبة الكوليسترول والليبوبروتين المنخفض الكثافة جداً (VLDL) والليبوبروتين المنخفض الكثافة في الدم (LDL)

الجنس	المعدل الطبيعية مليجرام/١٠٠مل دم (ملي مول/لتر)	لاحتمال الإصابة بالأمراض مليجرام/١٠٠مل دم (ملي مول/لتر)	لازدياد احتمال الإصابة مليجرام/١٠٠مل دم (ملي مول/لتر)
ذكر	٤٥<	٣٥-٤٥	٣٥>
	(١,٢<)	(٠,٩-١,٢)	(٠,٩>)
أنثى	٥٥<	٤٥-٥٥	٤٥>
	(١,٧<)	(١,٢-١,٧)	(١,٢>)

جدول يبين حدود الكوليسترول - الليبوبروتين العالي الكثافة (HDL)

على ١٠٪ بروتين فقط. ليبوبروتين منخفض الكثافة LOW DENSITY LIPOPROTEIN (LDL)، ويحتوي على ٢٣٪ بروتين. ليبوبروتين العالي الكثافة HIGH DENSITY LIPOPROTEIN (HDL)، ويحتوي على ٥٥٪ بروتين. وقد أوضحت الدراسات أن ارتفاع مستوى الليبوبروتين المنخفض الكثافة جداً (VLDL) والليبوبروتين المنخفض الكثافة (LDL) في الدم يزيد من احتمالات الإصابة بأمراض القلب والشرايين، وتسمى بالكوليسترول الخطير أو السيئ. وعلى العكس من ذلك يعمل الليبوبروتين العالي الكثافة (HDL) على إزالة الكوليسترول من الدم، ويخفف من مخاطر الإصابة بأمراض القلب والشرايين، ويسمى الكوليسترول الجيد أو الصحي. ويوضح الجدولان معدل نسبة الكوليسترول والليبوبروتين المنخفض الكثافة جداً (VLDL) والليبوبروتين المنخفض الكثافة (LDL) والليبوبروتين العالي الكثافة (HDL). وتحاول جمعية القلب الأمريكية AMERICAN HEART ASSOCIATION خفض المعدل المقبول لنسبة الكوليسترول في الدم إلى ١٥٠ـ ٢٠٠ ملغ/١٠٠مل دم. كما تشير الجمعية إلى أن قياس نسبة الكوليسترول في الدم من دون تحديد نسبة الليبوبروتين العالي الكثافة (HDL) لا يفيد في شيء. وتوصي الجمعية بحساب نسبة الكوليسترول الكلي TOTAL CHOLESTEROL (TC) إلى الليبوبروتين العالي الكثافة (HDL) (TC/ HDL) حيث تكون النسبة المقبولة أقل من ٠ر٤.

المادة الغذائية	الكمية	كمية الكوليسترول مليجرام (mg)
زيت زيتون	ملعقة طعام	٠
زبده الفول السوداني	ملعقة طعام	٠
زيت ذرة	ملعقة طعام	٠
حليب منزوع الدسم (٠,٣٪ دهن)	كوب	٤
زبادي	كوب	١٤
إصبع شوكولاتة	٨٥ جرام	١٨
زبده	ملعقة طعام	٣١
حليب كامل الدسم	كوب	٣٣
سمك السلمون	٨٥ جرام	٤٠
محار	٨٥ جرام	٤٠
تونة	٨٥ جرام	٥٥
دجاج بدون جلد*	٨٥ جرام	٥٩
دجاج مع الجلد*	٨٥ جرام	٧٥
لحم بقر*	٨٥ جرام	٧٥
لحم غنم*	٨٥ جرام	٨٥
ربيان	٨٥ جرام	١٣٠
قلب غنم أو بقر*	٨٥ جرام	٢٣٠
بيضه	حجم وسط	٢٧٥
كبده غنم أو بقر*	٨٥ جرام	٣٧٠
كليه غنم أو بقر*	٨٥ جرام	٦٨٠
مخ غنم أو بقر*	٨٥ جرام	أكثر من ١٧٠٠

*قد تقل كمية الكوليسترول أو تزيد حسب كمية الشحوم المرتبطة باللحم.

جدول يوضح مستويات الكوليسترول في بعض المواد الغذائية

العوامل التي تساعد على خفض الكوليسترول

تساعد الوجبات الغذائية التي تحتوي على نسب عالية من المواد الدهنية على زيادة معدلات الكوليسترول في الدم. ولاسيما الزيوت والدهون المشبعة التي توجد في الزبد، وشحوم الحيوانات والدواجن، والبيض، وزيت جوز الهند، وزيت النخيل. وعلى العكس منها تساعد الزيوت والدهون غير المشبعة المتعددة على خفض معدل الكوليسترول في الدم (زيادة نسبة HDL). وتوجد الزيوت غير المشبعة الكثيرة في الزيوت النباتية، مثل: زيت الذرة وزيت دوار الشمس وزيت الصويا وزيت السمسم وزيوت المأكولات البحرية. وفي الوسط بين هذين النوعين تقع الدهون غير المشبعة الكثيرة، مثل زيت الزيتون وزيت الفول السوداني. كما تعمل الألياف الغذائية النباتية (مواد نباتية لا يتم هضمها في جسم الإنسان تدخل في تركيب الغذاء) على خفض مستويات الكوليسترول (زيادة نسبة HDL)؛ إذ تساعد على عدم امتصاص الكوليسترول في الجهاز الهضمي لجسم الإنسان. وتوجد الألياف الغذائية في الخضار والفواكه والنخالة والدقيق والشوفان وغيرها.

تعدّ الرياضة الحافز الأكثر تأثيرًا في خفض مستويات الكوليسترول الضارة والخطيرة وترفع من معدل الليبوبروتين العالي الكثافة (HDL) الكوليسترول الجيد. وقد وجد أن نسبة الليبوبروتين العالي الكثافة (HDL) مرتفعة لدى الأشخاص النشيطين الذين يمارسون الرياضة بشكل روتيني (مثل الجري والركض والسباحة ولعب الكرة والمشي وغيرها) موازنة بالأشخاص غير النشيطين الذين لا يمارسون الرياضة. كما تساعد الاستروئيدات والاستروئيلات النباتية على خفض مستوى الكوليسترول في الدم إذ تعمل على الحيلولة دون امتصاص الكوليسترول من الأمعاء في أثناء الهضم. كما توجد بعض الأدوية التي تساعد على خفض مستويات الكوليسترول في الدم، ولكنها تستخدم تحت إشراف الطبيب في الحالات التي تكون فيها مستويات الكوليسترول في الدم عالية جدًا، وتتطلب تدخلاً طبيًا.

وقد أدى تغير نمط الحياة في المملكة العربية السعودية، وتغير العادات الغذائية، وانتشار المطاعم السريعة، ومطاعم المندي والمثلوثة، والمطابخ العامة (المفاطيح)، وغيرها إلى ارتفاع استهلاك الدهون في الوجبات الغذائية. كما أن الوجبات الغذائية التقليدية تحتوي على نسبة عالية من الدهون ولاسيما الشحوم الحيوانية، والسمن البلدي. بالإضافة إلى عدم ممارسة النشاط الرياضي الروتيني؛ مما قد يؤدي إلى احتمال الإصابة بأمراض القلب والشرايين. وللوقاية يجب مراجعة الطبيب لمراقبة وفحص الكوليسترول والدهون في الدم خصوصا بعد سن الأربعين، وبشكل دوري (كل ستة شهور أو كل سنة).

أود الإفادة هنا بأنه ليس المقصود من هذه المعلومات هو إشاعة الذعر لدى القارئ، أو الإيحاء بترك اللحوم الحيوانية وعدم تناولها قطعيًا ومقاطعة المطاعم الشعبية أو السريعة. بل المقصود هو الاستفادة قدر الإمكان من هذه المعلومات وتطبيقها في حياتنا اليومية. أما فيما يتعلق بالوجبات الغذائية فالأفضل تناول ما يحلو للشخص من الطعام، لكن الاعتدال والتنويع مطلوب في الشكل والنوع مع ممارسة بعض النشاطات الرياضية مرتين أو أكثر في الأسبوع. فمثلاً المشي لمدة نصف ساعة يوميا يعود على الجسم بفوائد كثيرة، ويمكن ممارسته في جميع الأوقات والأماكن.

المراجع

1 - NUTRITION AN INTEGRATED APPROACH. RUTH PIKE. 3rd ED. JOHN WILY & SONS. NEW YORK 1984.
2 - NUTRITION WEIGHT CONTROL, AND EXERCISE. FRANK KATCH. 3rd ED. LEA & FEBIGER. PHILADELPHIA. 1988.
3 - MODERN MEDICINE VOL. 14 NO. 4 APRIL 1977.

د. عالم الغذاء العدد ٩ ذو القعدة ١٤١٩هـ - مارس/آذار ١٩٩٩م.



محمد الثبيتي
مكة المكرمة - السعودية

لي ولك
نجمتان وبرجان في شرفات
الفلكْ
ولنا مطر واحدٌ
كلما بلّ ناصيتي بلّلكْ
سادران على الرمس نبكي
ونندب شمسًا تهاوت
وبدرًا هلكْ
وكلانا تغشّته حمى الرّمال
فلم يدر أيّ رياح تلقّى
وأي طريقٍ سلكْ

ooo

فرّقتنا النوى زمنًا
ثم لمت شتات نوانا على بقعة
من حلكْ
قلت لي:
هيتَ لكْ
هيتَ لكْ
سرْتُ خلف خطاك أجرِّرُ خطو المساكين
لم أسألكْ

ooo

في الصباح وقفت مليًا
فألفيت صومعتي منزلكْ
فاستشاطت عُرى القلب
لكنني حين أبصرت عينيك رددتُ
لله ما أجملكْ



راضي صدوق
الرياض - السعودية

عـــينـاك من ليلٍ ومن أحـــزانِ..
أفــديك فــابْتـســمي.. أحـبَك طفلةً
وأراك في روحي ارْتعــاشــةَ عــاشقٍ
لأكــادُ ألمحُ في العــيــونِ حكايتي
أنا أنت في الأحــزانِ، فـــانتظري دمي
قـــولي لثــغـــرك إنني بك هائمٌ
ويزقُني قُـــبـــلاً وأنهلَ لاهفـــا
ولعلَّ قلبك أنْ يرقَّ ويَنْتَــــخي
وأغـــيبُ في بُرْديْك غَـــيْـبـةَ ذاهلٍ

•••

يا أنتِ يا سِـــرَّ العـــواصفِ في دمـيـة
يا روحَ أحـــلامي وسِـــحْـر قـصــائدي
إنـي أفـــقْتُ على يديك، فــعـــانقي
وترشّــفي شــفـتي فـــإنَّ منابعي
هاتي أضـمّكِ، تشــتـعلُ كـبـدي لظىً
أيقـــالُ هـانيـــةٌ وقلبي نازفٌ
عــيناكِ أحـزاني وأسكُنُ فـيـهـمـا
لا تُرهقي الأهدابَ، إنَّ قـــصــــائدي
الحـلـمُ دارتُــنـا ونـحــن بـلابـلٌ..
وأنا وأنت مـعًـا.. ومـا يدري الهـوى
وأكـــادُ أشـــعُـــرُ أنَّ قلبي عــاشقٌ..
إن تُمطري دمـــعًـا أخــافُ من اللّظى
أنا ســـرُّك الأزليُّ فـــانسكبي شـــذىً
فلعلّنا نصْـــحـــو على ألَق الهـــوى

طوبى لـهـــذا الحـــزْنِ من إنســـانِ!
كـــالظلِّ، كـــالأحـــلام، كـــالألوانِ..
وأحسُّ أنكِ عـــالمي وكـــيـــاني
وأكـــادُ أقـــرأ في الشّـــفـــاه بيـــاني!
يَحْــتَـــدُّ في شــفــتـيـكِ كـالبُـركـانِ
فلعلّهُ يَحْنو على الظمـــآنِ
مـــا شـــئتَ من عـــسلٍ ومن نيـــرانِ
ويضـــمُّني بالحبِّ والتَّـــحنانِ..
يَغْـفـو ويَصْـحـو في ذُرا الأحـضـانِ

•••

يا فــــتنةَ التّـــاريخِ والأزْمـــانِ
وعـــبـيـــرَ أيّامي ولُغْـــزَ كـيـــاني
مـــا انْجابَ من غَـيـبي ومن نسْيـاني
الحبُّ عَـــتَّـــقَـــهـــا بكلِّ دنانِ..
وأحسُّ أنّي فـي الخُلودِ الثّـــاني
ومـــدامـــعي حَـــرّى ولستُ بهـــاني؟
فـــتَـــرفّـــقي يا روحُ في أحـــزاني!
في الهُـــدْبِ عنقُـــودٌ من الرّيحـــانِ
نَحـــيـــا على التّـــغـــريدِ والألحـــانِ
مـــاذا يُذيعُ القلبُ من كـــتْـــمـــانِ
وأكـــادُ أحْـــدسُ أنَّ قلبكِ جـــانِ
أنْ يحـــرقَ الأحـــلامَ في أجـــفـــاني
وتَهـدّلي مـــا شـئتِ في أحـضـــاني..
ونُعـــيـــدُ مـــجْـــدَ الحبِّ للإنســـانِ!

(روما - ١٩٨١م)

تداعيات

سهام عبدالله
الحسكة - سورية

عندما قبّل أهله
وجميع الأصدقاءْ
كان في يسراه وردهْ
وعلى فيه الطفوليّ رفيفٌ
لانتشار الابتسامهْ
يقظًا كان ولم تنقذه نأمهْ
خاف خوفَ النور من مكر المساءْ

قال: بعد الصبح آتيكم
فيا أمي افرشي السجادة الجذلي
أغلق الباب بيمناه وشدّه
غير أنّ الشمس لم تلثم جبينه
وقبيل الفجر جاءْ
لم يكن ينضح ماءً
كان تابوتًا وريحْ..



في شعاع التراني

جميل مفرح
صنعاء - اليمن



كم تطاولتَ يا خـيـال المُعنّى
ظلّ يحـسـوكَ لم يذق مـا تمنّى
المواقـيتُ أصـبـحت من نشيج
تَعِبَ الحـدْسُ في الـنواقـيس رنّا
لو أمـاسيكَ كالصّبـايا.. لماذا
كَـبُـرتَ كلُّ لحظة فـيكَ سِنّا

قـدْ تدلّيتَ في شُعـاع التـراني
تنسجُ الوهمَ مـوعـداً ما تَسنّى
عندمـا جئتَ قـهـوةً في شتـاء
شـربَ النبضُ دِفـئَهـا مـا تأنّى
لم تكنْ غـيــرَ نزوةِ أرّقـتْنا
أو تهـاويمَ شـاعـرٍ لا تُغنّى



تشويه

عبدالله محمد حسين
الرياض - السعودية

جلست أسيل تنتظر حصة الرسم مع كراستها وعلبة الألوان الكبيرة، التي اشتراها والدها بعد أن نجحت في إقناعه بدلالها الطفولي وبقليل من المنطق:

- بابا أنا أحب الألوان. العلبة الأكبر فيها ألوان أكثر.

والمقابل كان تنازلها برضا عن الكراسة الكبيرة لاقتناعها بما قاله والدها:

- الورقة الكبيرة تحتاج إلى وقت أطول وجهد أكبر حتى تمتلئ بالألوان.

رؤية الأقلام المصفوفة بالتدرج وفق علاقتها بعضها ببعض تبهجها. بفرح برت الأقلام لتدخر كل دقيقة في الدرس للرسم والتلوين، الدقائق المعدودات تقصر دائماً. تراقصت أمامها الأقلام بتناسق ألوانها الهرموني الذي تحرص على ثباته، وتعلّم أخاها درساً كلما أربك نظامها، أن يضع الأحمر بجوار البرتقالي، والبرتقالي بجوار الأصفر.

كانت رؤوس الأقلام المبريّة بعناية تقطر ألوانها متأهبة أن تنسكب على الورقة بين كفي أسيل، وهي تنتظر مع زميلاتها حصة الرسم ببهجة غامرة، حيث يحلّقن في سمائها بأجنحة الألوان وراء أفكار نائيات حتى يثبتنها تكوينات طفولية شفافة تسبح في انعتاقات لا تحفل بفظاظة الواقع. بعفوية تنثر أسيل الألوان بقعاً فتحيل بياض الصفحة كما يحيل المطر الوسمي وجه الصحراء الكالح إلى مهرجان من الألوان.

تهلل لها المعلمة منتشية:

- يا سلام. رسمت بلوزتي يا شاطرة.

رفت الإشادة كفراشة محرضة شهية الرسم عند الطفلة التي تأخذ أبعادها تحت ظلال ابتسامة المعلمة الملازمة لوجهها وهي تشرح الدرس بهدوء لا صراخ، لا ترديد كالجوقة بأعلى الأصوات، تنزرع صداعاً في رأس أسيل، ولا تهديد بالعقاب ومصادرة الدرجات، حتى ذلك الوعيد الذي تطلقه غالبية المعلمات:

- يا ويلك إن نسيت.

لا تتذكر أسيل أنه انبعث يوماً من مدرسة الرسم. حتى لومها للمقصرات كان مجرد عتاب رقيق سرعان ما تحيله ابتسامتها إلى تذكير:

- مرة ثانية لا تنسي أدواتك.. الآن تشاركين زميلتك.

هذا الصباح استقبلت أسيل مُدرِّسة التربية الفنية مرددة مع زميلاتها التحية، التي ردت عليهن بزهاء الألوان، وهي تضع حقيبتها الكبيرة على مكتبها، أخرجت لوحات وصوراً وقلماً (فلوماستر)، فهي تحمل دائماً أقلامها الخاصة، لأنها لا تستخدم النوعية التي توفرها المدرسة. كتبت على السبورة بخطها المتميز «وسائل المواصلات» ثم توجهت إليهن:

- من تعدد وسائل المواصلات؟

نهضت أكف ذكرتها بموضوع درس الأسبوع الماضي، نقش الحناء على الأكف، امتدت نحوها كحقل دوار الشمس تتمايل بإيقاع متسارع أينما التفتت:

- أنا.. أنا يا أبلة.

تمنت لو في حوزتها أسئلة تكفي لتلك الأكف الصغيرة، كي لا ترد كفاً خالية، كيف تولد الأسئلة من هذا العنوان؟ أشارت بقلم (الفلوماستر):

- اذكري يا شاطرة وسيلة واحدة فقط.

هكذا منحت فرصة المشاركة لأكبر عدد ممكن. ثم دوّنت على السبورة، الحافلة، القطار، الطائرة، الدراجة، ثم أمرتهن:

- هيّا يا حلوات نرسم وسائل المواصلات.

مدت أسيل في رقعة الورقة الطريق الواسع الذي يربط شمال الرياض بجنوبها، وتعبره كل صباح إلى مدرستها، ثم نثرت فيه سيارات مختلفة الأحجام طيرت فوقه طائرة. عند التقاء السماء بالرمل دفعت قطاراً يمر

بين التلال متجهاً شرقاً، حيث بسطت البحر ووضعت داخله مستطيلاً ينفث دخاناً، مدخنة شامخة لباخرة راسية في الخليج.

بيد حانية داعبت المعلمة شعر أسيل الناعم:

- أريني يا شاطرة.

- ما لونتها بعد.

رفعت وجهها الطافح بالفرح فعانقته ابتسامة المعلمة العذبة، أعادت إليها الكراسة:

- ارسمي دراجة في هذا الفراغ.

لم تنس أسيل دراجتها التي تركض بها في الوقت الذي ينجو من غائلة الواجبات اليومية. أفردت لها زاوية في أسفل الورقة، وهمت برسمها، فتذكرت أن الدراجة لا تتحرك إلاّ بقوة الإنسان، والمعلمة حذرت مراراً من رسم الإنسان، وها هي ذي الآن تطلب منها رسم الدراجة. ربما نسيت المعلمة أو تغيّرت. في الأسبوع الماضي كان موضوع الدرس نقش الحناء في الكفوف. رسمت أسيل فيه عمتها العروس مغطاة الوجه وكفاها مرفوعتان بنقوش على هيئة زهرة السوسن.



بسرعة خطت دائرتين، ثم شيّدت فوقهما هيكل الدراجة، ووضعت فوقها طفلاً شعره يطير في الهواء من السرعة، بدت الدراجة أكثر سرعة من القطار المتلاشي في الأفق، ومن الطائرة الساكنة في السماء، حملتها تلك الحركة نشوى لتعرض ما رسمت على معلمتها قبل الشروع في سكب اللون الأزرق في السماء وفي البحر، وقبل أن تمد البني تضاريس في وجه الصحراء. هشّت لها مبتسمة، اتسعت ابتسامتها وهي تتأمل الكراسة:

- لوّني الباقي يا شاطرة.

بادرت في إنجاز ألوانها قبل أن يدركها الجرس معلناً نهاية الدرس. مررت الأزرق أعلى الصفحة فامتدت السماء، وانحدرت به إلى البحر فتدفقت أمواجه، أعادت القلم إلى موضعه، وتناولت البني، فإذا المعلمة تنادي:

- أسيل تعالي وأحضري كراستك معك.

قدمت أسيل كراستها تربكها ارتجافات صوت المعلمة والقلم المشهور في وجهها، الذي انقضت به كالمعول لتطمس رأس الطفل الذي يقود الدراجة حتى اختفى شعره الطائر في الهواء، وصرخت في وجه الجميع:

- انتباه.. ألف مرة قلت رسم الإنسان حرام.

بشراسة ضارية غير معهودة قذفت الكراسة في وجه أسيل، التي استقبلت الموجة العاتية بجلد أكبر من طفولتها، منع دموعها أن تتحدر وشفتيها أن ترتجفا، جلد حمل ثقل جسدها وكراستها حتى بلغت مكانها منحنية، تداعت مخفية وجهها عن ألوانها، لم تعد قادرة على رؤية رؤوسها المبرية، سقط رأسها على الكراسة، ترجف أطرافها، برودة تصعد لتلتقي بوهج يوقدهُ في الوجه صخب أقلام زميلاتها وهي تصر على الأوراق.

ظلت المعلمة تجاهد للانعتاق من انفعالها الطارئ وهي تهذي:

- الكل ينبه على تحريم رسم الإنسان. وكتاب القراءة والعلوم مملوءة بصور الإنسان.

قبل أن يتدخل الجرس ليضع حداً لألم الدرس، حملت المعلمة حقيبتها وقبل أن تفر إلى الممر وقفت بقرب أسيل يثقلها حزن. مسدت على شعر أسيل الناعم وفي انكسار بعد المسد:

- أريني.. هل لونت رسمتك يا حلوة؟

رفعت أسيل وجهها المشروخ ومسحت بكُمّ مريولها الأزرق دمعات لم تقو على إخفائها وبصوت واهن يقطّعه نشيج:

- خلاص الرسمة تشوهت.

وُصْلةُ حبل

جي دي موباسان

ترجمة: إبراهيم أحمد الشُنْطي

عمان ـ الأردن

كان الفلاحون وزوجاتهم يغذون السير في ذلك الصباح الرطب، متجهين نحو مدينة كودرفيل، حيث تقام السوق الأسبوعية العامة في تلك المنطقة. كان الرجال يسيرون بخطى ثقيلة متعبة. الجزء الأعلى من أجسادهم يمتد إلى الأمام سابقًا الساقين المقوستين نتيجة الأعمال المرهقة في المزارع. وكانت الكتف اليسرى لبعضهم تعلو قليلاً عن مستوى اليمنى نتيجة الضغط باليمين على المحراث. كانت قمصانهم الزرق منشاة وذات ياقات بيض تحيط بالأعناق، وكذلك أطراف الأكمام عند الرسغ. كانت القمصان منتفخة وكأنها بالونات تكاد تطير وقد برز من كل منها رأس ويدان، ومن تحتها ساقان مقوستان.

بعضهم كان يسحب بقرة أو عجلا، ومن خلفه زوجته تهش على الحيوان بغصن صغير تستحثه به على السرعة. وكانت النساء يحملن سلالا بأذرعهن، ظهر من بعضها رؤوس وأعناق دجاج أو بط وهن يسرن بخطوات أسرع وأكثر حيوية من أزواجهن.

كانت قاماتهن أكثر استقامة من قاماتهم. وكانت كل منهن تلف كتفيها بشال صغير تزمه بدبوس على صدرها المنبسط، بينما تضع على رأسها منديلا أبيض تربط طرفيه حول عنقها، ومن فوقه قبعة ذات شريط مزركش.

ثم مرت فرس عجوز تجر خلفها عربة تهتز مع كل خطوة، وقد جلس في المقدمة رجلان أحدهما إلى جانب الآخر، ومن خلفهما جلست امرأة على أرض العربة وقد أمسكت بيديها جانبي العربة لتخفف من الرجرجة والاهتزاز.

في الساحة العامة، في كودرفيل، تجمع جمهور كبير من الناس على اختلاف أشكالهم ومعهم حيوانات من كل نوع، جاؤوا بها للبيع في السوق. كانت قرون الثيران والقبعات العالية، التي يلبسها أثرياء الفلاحين، وكذلك العمامات التقليدية لبعض الفلاحات، تبرز فوق هذا الجمع غير المتجانس. ومن بين هذا وذاك كانت تسمع أصوات ثغاء شاة أو مأمأة جدي أو قأقأة دجاجة أو خُوار ثور، وقد يطغى عليها جميعها قهقهة فلاح طاب مزاجه في تلك الساعة. ومن بين هذا الخليط المتناقض كانت تفوح روائح العرق واللبن ومشتقاته، والقش والروث والعشب الجاف أو الأخضر الذي جيء به علفًا للحيوانات. لكن هذه الروائح لم تكن غريبة عن أهل السوق الذين اعتادوها في حقولهم ومزارعهم.

السيد هوشكم ـ أحد أهالي قرية بروت ـ وصل لتوه إلى بلدة كودرفيل، وها هو ذا يقطع المفترق متجهًا نحو السوق، وعندها لاحظ وُصلة حبل ملقاة على الأرض، قطعة لا يتجاوز طولها ذراعين، لكنها في نظره ونظر أهل قريته المعروفين بالحرص لا يجوز أن تهمل، فانحنى يلتقطها بصعوبة إذ إنه يعاني من مرض الروماتيزم. وما إن تناول الحبل القصير من الأرض وأخذ يطويه بعناية حتى لاحظ أن السيد ملاندين، صانع أرسان الدواب، على عتبة بيته ينظر إليه. كانت هناك خصومة بين الرجلين سببها خلاف على ثمن لجام اشتراه الأول من الآخر، فقامت بينهما كراهية حادة متبادلة. خجل هوشكم جدًا حين لاحظ أن خصمه شاهده وهو يتناول وُصلة حبل تافهة من الأرض، فأسرع يخفيها تحت سترته ثم يدسها في جيب بنطاله وهو يتظاهر بأنه يبحث عن شيء سقط منه على الأرض، ثم مضى نحو السوق وقد طأطأ رأسه وتضاعف ألمه.

لحظة.. وضاع في زحمة السوق وضجيج الباعة والمشترين وجمهرة الناس. يتجول الفلاحون في هذه السوق بحذر خشية الاستغلال والابتزاز، عيونهم قلقة مخافة الغش والاحتيال في سلالة الحيوان أو في سعره، فتراهم لا يستطيعون اتخاذ قرار سريع.

النساء جالسات على الأرض وقد وضعن السلال إلى جوانبهن بعد أن أخرجن ما فيها من الدواجن، وربطن أرجل الطيور ووضعنها أمامهن تمهيدًا للمساومة والبيع. وغالبًا ما يقررن إتمام الصفقة بعد أن يهم المشتري بالذهاب أو أن يبتعد خطوات فينادينه.

وشيئًا فشيئًا بدأت الحركة تخف، ودق ناقوس الظهيرة، وأخذ الناس بالتفرق.

الساحة أمام مطعم «جوردن» مزدحمة بالعربات من كل نوع ولون: كبيرة وصغيرة، لنقل الناس أو البضائع أو الأعلاف

والمحاصيل الزراعية أو حتى المواشي. ومنها النظيفة ومنها القذرة، والجيدة والمهترئة، والصالحة والخربة ومن كل صنف.

القاعة الكبرى في المطعم مملوءة بالزبائن. الموقد في غاية الاشتعال يبعث الدفء في أرجاء المكان. ثلاثة مواقد للشواء تعج بالطيور من دجاج وحمام وآخر بلحم الغنم، وغيره بلحم العجل. التوابل والأفاوية تفوح في جو المطعم فيسيل لها لعاب الجالسين بانتظار الطعام. كبار الفلاحين وأثرياؤهم يأكلون في هذا المطعم، أصحاب الخانات وتجار المواشي والعصاة والأغنياء يأكلون هنا أيضاً.

الأطباق تأتي مترعة وتعود فارغة، وكذلك قوارير عصير التفاح. كل امرئ يتحدث عن شأنه.. عما باع وعما اشترى، وعما زرع وعما حصد، وعن حالة الجو وفائدة المطر لكل نوع من المحاصيل في هذا الوقت من العام.

فجأة قرع طبل في الساحة الأمامية.. وقف معظم الناس.. بعضهم مضوا إلى النوافذ يستطلعون الأمر ولا تزال أفواههم ممتلئة بالطعام، ومنهم من ذهب نحو الباب. ولما تجمهر الناس في الساحة وحولها توقف قارع الطبل وصاح بصوت منكر متقطع: نعلن لعموم أهالي كودرفيل، وخصوصاً أولئك الذين حضروا السوق أنه فقد هذا الصباح عند مفترق بنزفيل، بين الساعة التاسعة والعاشرة، محفظة من جلد سوداء اللون بداخلها خمسمئة فرنك وبعض الأوراق الخاصة. فعلى من وجدها أن يعيدها إلى مكتب المحافظ أو إلى السيد فورشن هوليريك من بلدة مانفيل، وله عشرون فرنكاً مكافأة.

غادر قارع الطبل الساحة، وسمع صوته وصوت طبله منادياً من بعيد. وعاد الناس إلى أماكنهم يتحدثون عن الخبر، وفرص عودة المفقودات إلى صاحبها، وبينما هم يحتسون القهوة، بعد إتمام الطعام، حضر ضابط الشرطة وصاح منادياً في مدخل القاعة: هل السيد هوشكم من قرية بروت هنا؟

- «نعم أنا هنا»، رد السيد هوشكم من الزاوية البعيدة، فتابع الضابط القول:

- «هلاّ تفضلت بمصاحبتي إلى مكتب المحافظ؟ إنه يريد التحدث إليك».

تجهم وجه هوشكم للطلب المزعج، وكرع ما في كأسه من العصير، ونهض وقد انحنى ظهره أكثر مما كان عليه في الصباح، وتقدم نحو الضابط قائلاً:

- «أنا هنا بأمرك سيدي!»

كان المحافظ ينتظره على المقعد الوثير. كان رجلاً مهيباً جاداً معروفاً في المنطقة بالجرأة والحزم.

- «سيد هوشكم» قال المحافظ «شوهدت هذا الصباح وأنت تلتقط محفظة السيد هوليريك المفقودة على مفترق بنزفيل».

نظر الرجل الريفي مذهولاً نحو المحافظ، ومرتعداً من هذه التهمة التي حطت عليه من دون سابق إنذار.

- «أنا.. أنا يا سيدي... أنا التقطت المحفظة!؟».

- «نعم... أنت... أنت نفسك».

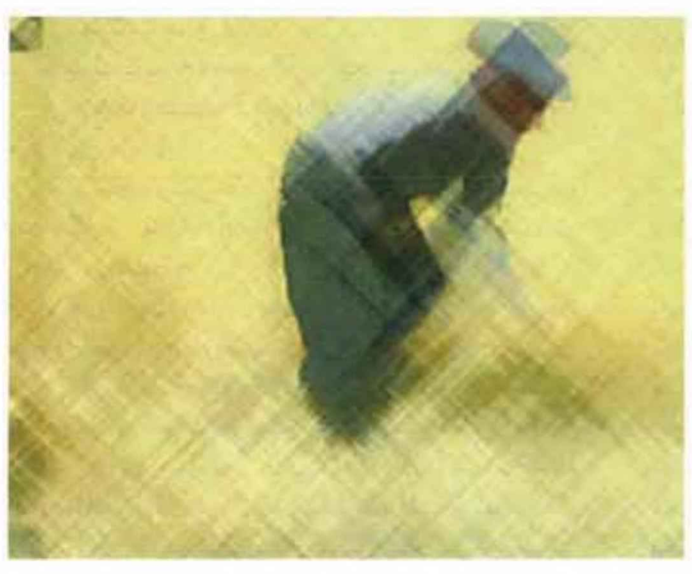
- «أقسم أنني لم أسمع بها».

- «لكنك شوهدت تفعل ذلك!».

- «أنا شوهدت!؟... من رآني؟»

- «السيد ملاندين - صانع الأرسان والسروج!»

تذكر الفلاح خصمه الذي مر به هذا الصباح فاحمر وجهه حنقاً.



- «آه... رآني هذا الأخرق القذر... رآني التقط هذا الحبل يا سيدي!».

ومد يده إلى جيبه فتناول الوصلة وعرضها أمام المحافظ.

لكن المحافظ هز رأسه ضاحكاً وهو يقول:

- «لاتستطيع إقناعي بأن السيد ملاندين، الرجل الوقور الصادق، لا يفرق بين وصلة حبل ومحفظة!»

تجهم هوشكم وانتفخت أوداجه وبصق ازدراءً إلى جانبه، مؤكداً صدقه ومعيداً قوله: «أقسم لك يا سيدي المحافظ بكل صدق أنني بريء مما يوجه إليّ، وأكرر ذلك على عنقي».

وتابع المحافظ: «بعد أن التقطت المحفظة وقفت ثابتاً تنظر في الطين بحثاً عن نقود ربما تكون قد سقطت منها».

غص الرجل المسكين بلعابه هلعاً: «كيف يستطيع أحد أن يزعم... كيف يستطيع أحد أن يزعم مثل هذه الأكاذيب ليشوه

بها سمعة رجل صادق أمين... كيف يستطيع؟»

لم تكن هناك فائدة من اعتراضه، لم يصدقه أحد. قابلوه بخصمه السيد ملاندين الذي أعاد تأكيده. قضيا نحو ساعة في الشتائم والمهاترة. وبناء على طلب من هوشكم فتشوا ملابسه ولم يجدوا شيئاً.

احتار الحافظ في الأمر، وأخيراً أطلق سراحه، ومحذراً إياه بأنه سوف يستشير المدعي العام ويتصرف حسب رأيه.

انتشر الخبر. وما إن غادر مكتب الحافظ حتى أحاطته الأسئلة الجادة والساخرة من كل جانب من دون أن تكون لها أية دلالة. وبدأ يقص حكاية وصلة الحبل، فلم يصدقه أحد بل إنهم سخروا منه.

ومضى في طريقه يستوقف معارفه ويحدثهم من دون كلل، مبدياً اعتراضه على ما يواجهه، ويقلب جيوبه أمامهم، باطنها وخارجها ليثبت صدق قوله.

كانت إجاباتهم له «عجوز قذر.. ابتعد عنا!».

ازداد حنقه وسخطه إذ لم يصدقه أحد، وصار يكرر نفسه، ولا يدري ما يفعل.

وحل المساء، وكان عليه أن يعود إلى قريته، فاتخذ طريقه مع ثلاثة من جيرانه. أراهم أين وجد وصلة الحبل، واستمر يحكي لهم مغامرته.

في قريته - بروت - دار يحدث من يلاقيه في الطريق عن ورطته التي وقع فيها، ولم يصدقه أحد أيضاً.

أوى إلى فراشه. جافاه النوم ساعات واستيقظ في الصباح محموماً. في الساعة الواحدة من بعد الظهر قام رجل يدعى موريس بوميل يعمل مزارعاً في مانفيل بإعادة المحفظة كاملة إلى صاحبها. قال الرجل إنه وجدها عند المفترق، وبما أنه لا يعرف القراءة أخذها إلى صاحب المزرعة، الذي تعرّف إلى صاحبها من الأوراق داخلها، وأعادها إليه.

انتشر الخبر وبلغ السيد هوشكم، الذي سارع بإعادة التجوال في القرية مكرراً الحكاية بنهايتها المفرحة. كان مسروراً للغاية.

أمضى سحابة يومه جوالاً في القرية. يحدث عابري الطريق عن مغامرته هذه. يقف في المقاهي والمتنزهات يحدث الجالسين بها، يوقف الغرباء القادمين إلى القرية ويحدثهم. يعترض حتى الخارجين من الكنيسة يوم الأحد التالي ويقص عليهم حكايته. إنه هادئ الآن. لكن شيئاً ما يقلقه ولا يعرف كنهه. لدى الناس رائحة سخرية منه وهم يستمعون إليه، لا يبدون مقتنعين، كان يشعر بالتعليقات من خلفه.

في يوم الثلاثاء التالي، يوم السوق، ذهب إلى كودرفيل ودافعه في ذلك بحث قضيته.

كان ملاندين، صانع الأرسان والسروج، يقف بباب منزله. ضحك، بل قهقه، إذ رآه ماراً أمامه.

استوقف هوشكم مزارعاً عابراً وأخذ يسرد عليه حكايته. لم يدعه المزارع يكمل وأشاح عنه قائلاً: «نذل كبير!» وتركه ومضى.

احتار هوشكم في واقع أمره، لماذا يصفونه بالنذل الكبير. ذهب إلى مطعم جوردن. وما إن جلس إلى الطاولة حتى بدأ قصته. جاءه أحد تجار الخيل من مونفلير:

- «هيهات... هيهات أيها المحتال، هذه حيلة قديمة، أعرفُ كل شيء عن قطعة الحبل التي تدعيها!»

- «لكنهم وجدوا المحفظة!» صاح هوشكم.

- «اخرس أيها العجوز. هناك واحد يجد وواحد يعيد. وعلى أية حال أنت متورط فيها!».

أصابت الغصة هوشكم. لقد أدرك أنهم يتهمونه بالاشتراك مع آخر حليف له، أعاد المحفظة حين وجد نفسه متورطاً فيها.

حاول الاعتراض، لكن الحاضرين بدؤوا يضحكون. لم يستطع أن يتم طعامه فغادر المكان بين تهكم القوم وسخريتهم.

عاد إلى منزله يائساً محزوناً مرتبكاً يخنقه الغضب ويعصره الألم. براءته، حتى بالنسبة إليه، أصبحت مشوشة ولا يستطيع إثباتها. لقد أصابه الشك الظالم في صميم قلبه.

وعاد من جديد للحديث عن تفاصيل مغامرته، مضيفاً شيئاً هنا وحاذفاً آخر هناك، مسهباً حيناً، ومختصراً حيناً آخر، معترضاً بقوة مرة، ومغلظاً بالإيمان أخرى. صار تفكيره كله منصباً على وصلة الحبل.

- كانوا يقولون من خلفه «هذه أعذار واهية».

شعر بالظلم، بالإهانة، بالمرارة، بالألم يعتصر قلبه ويذيب جسده، وصار يهزل ويذوي أمام أعينهم مباشرة.

صار الأنذال يطلبون أن يقص عليهم الحكاية ليتندروا به، كما لو كان جندياً يتحدث عن معاركه التي خاضها في الغربة. شعر بشخصيته تنهار أمامهم وصار يهذي، ثم اعتل جسده واشتدت عليه الحمى وسقط مريضاً في فراشه مع نهاية شهر ديسمبر، وبعد نحو أسبوعين مات. كان خلال صراعه مع المرض يهذي مؤكداً براءته مردداً قوله: «إنها وصلة حبل، وصلة حبل. انظر... ها هي يا سيدي الحافظ».

الهوامش

عنوان القصة بالإنجليزية A PIECE OF STRING

جي دي موباسان ١٨٥٠، ١٨٩٣ GUY DE MAUPASSANT من أشهر الروائيين وكتاب القصة في فرنسا. له أسلوب مميز في حبك القصة واستخراج نهايتها الممتعة للقارئ. تأثر به عدد من الروائيين والكتاب. كما أن معرفته الوثيقة بالريف الفرنسي وبأهل نورماندي، وشعوره القلق نحو الحرب البروسية - الفرنسية التي شارك فيها واهتمامه غير العادي بعلم النفس كان لها الأثر الكبير في منحه القصصي المتميز.

ما بعد المركزية الأوربية

بيتر جران
مراجعة: إسماعيل نوري الربيعي
زوارة - ليبيا

لم تتوقف فكرة كتابة تاريخ عالمي على مختلف العصور والأزمنة. مهما اختلفت التقنيات المنهجية، فإن الجميع كان يتوجه نحو غايات وأهداف محددة. الموضوع هنا يتركز حول جعل التاريخ أداة للفصل والفرز، وفي بعض الأحيان توكيد ملامح حقبة ما، وجعل «المَا قبل» أداة طيِّعة في خدمة الحاضر الذي تتعامل معه السلطة السياسية بشكل مباشر. وفي إطار سيادة مفاهيم السيطرة والهيمنة، فإن حالة «التغلّب» لا تتوقف عند فعالية الأداء، بقدر ما تستتبعها التحويلات الفكرية والثقافية، ومن هنا صار الغالب يبحث، وبكل ما أوتي من قوة، عن حشد جميع مقولات الماضي، وجعلها في خدمة الحاضر، المتفاعل مع الواقع.

فقضية بيتر جران تتركز حول موضوع الوعي وتشكلاته القائمة ضمن ثقافة محددة، والآليات التي تستتبعها محاولات الفهم لها. والقضية التي يتعامل معها المؤلف تتعلق بالمركزية الأوربية، التي يصفها في سياق «المشكلة»، وطرح الأفكار حول محاولة التغلب عليها، والمسألة الأخرى لا تتوقف عند الغايات والأهداف، بل تتعلق بقضية الانخراط في سياقات هذه المشكلة انطلاقًا من المؤثرات التي ساهمت في تكوين بنية الوعي وفق ذات النموذج الفكري، وهنا تكمن المشكلة، والسؤال الأهم، حول البنية العامة المتمثلة بالثقافة الغربية، وإفرازاتها إن كان على مستوى إنتاج المثقف الذي يحمل الوعي وله العقل المفكر، أو ما أنتجته الثقافة العامة، من حالة يصار إلى دعوتها بـ «المركزية الغربية» كمصدر ومحور، ينتج ويبدع، والجميع من حوله يتحلق، ويقلد ويتبع.

الفعل التاريخي مجاله العالم أجمع

وبالأداة ذاتها «الوعي»، صار التوقف عن النظرة السابقة غير مجدٍ، ولاسيما النظرة الجديدة التي غدت تتوجه نحو كسر العلاقات القديمة، والبحث عن إطار جديد من المضامين الفكرية، خصوصاً على يد مجموعة من الفلاسفة المحدثين الذين ولجوا بوابة الوعي، من خلال تفكيك المعاني، وكسر الجاهزية الفكرية، والانطلاق في حفريات معرفية تتعلق بالتاريخ الاجتماعي، بالإضافة إلى حالة النمو المعلوماتي المتسارع والمتصاعد، الذي يكاد لا يتوقف عند حد معين.

فالفعل التاريخي لدى المؤلف، مجاله العالم بأجمعه، فهو لا يتوقف عند هذه الجهة أو تلك، إنما النظرة الأساسية التي يتم التعامل معها تستند إلى أهمية الفعالية الاجتماعية، فحيث يوجد الإنسان يوجد التاريخ.

وهذه الحقيقة يجعلها منطلقًا منهجيًا، أما الأخرى فإنها تقوم على رأسمالية الدولة، وتطلعات الفئات الحاكمة نحو استيعاب مفهوم الحكم. لكن الأمر لا يتوقف عند هذا التوصيف العام، فبالتلاحم والتفاعل نجد ثمة تناقضات فاضحة في العلاقة القائمة بين الحقيقتين، فعلى الرغم من سيادة الطابع الرأسمالي على الحكم، فإن الأفراد أبعد ما يكونون عن الرأسمالية. أما الطابع الأشمل لتوجهات الحكم فإنه يقوم على جملة من التنويعات، التي تتخللها التطلعات المتباينة والمختلفة، اعتماداً على الوعي الموضوعي السائد في الدولة القومية، الذي يتمثل فيه تشكيل المواجهة، مع طبيعة التحدي الصادر عن الآخر.

ومن هنا، تقوم فكرة الكتاب - بالضبط - على المزج بين فهم التاريخ والحركة الاجتماعية التي ينتج منها الفعل العام والشامل، والتي تستدعي في سبيل استجلاء الصورة بشكل أوضح الانطلاق بمنهج دقيق وصارم، يقوم على خلخلة العلاقات



ما بعد المركزية الأوربية

بيتر جران
ترجمة:
عاطف أحمد، وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد.
إشراف ومراجعة:
رؤوف عباس
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨، ٦٨٩ ص من القطع الكبير.

التقليدية، والعمل بعمق على إعادة تشكيل البنى والمراتب والمواقع، عن طريق دفع ما كان قابعاً في خلفية الصورة إلى الواجهة، مع الاستيعاب الدقيق لأهمية الدولة كمرتكز وأساس تدور فيه أغلب الفعاليات، علاقة تنظر إلى مستوى عموم العلاقة من بعد اجتماعي شمولي، ولا تستبعد ألبتة أياً من العوامل السابقة، بل تجعل منها وسائل وأدوات من أجل فهم أدق وأشمل للواقع. فبدلاً من أن تكون سلطة القرار مرهونة باللحظة السياسية، نجدها في تجليات هذا المشهد قد انعقد لواؤها بيد سلطة الإقناع المستندة إلى اللحظة الاجتماعية، حيث يبرز دور المثقف «مؤيداً أو معارضاً» لتحديد تقاطيع الملامح العامة للمشهد التاريخي.

سؤال منطقي

فالمختلف الذي يجنح إليه بيترجران يقوم على فكرة قوامها أن الفهم الأفضل لأوربا يأتي من خلال دراسة النماذج المقاربة لها خارج أوربا. كيف يتم هذا؟ سؤال في غاية المنطقية، ويتوجه إليه المؤلف من دون تكلف أو تعقيد، انطلاقاً من تحديد نماذج ثقافية لها خصوصيتها ووزنها، ومن المهم هنا الإشارة إلى أن أوربا حالها، كحال باقي العالم، فيها التكوينات الطائفية والتمايز الإقليمي الثقافي والتجمعات العرقية والقبلية، بالإضافة إلى النموذج الأكثر حضوراً المتمثل بالديمقراطية؛ إذ يعمد المؤلف إلى موازنة الديمقراطية



مارست أوربا التدمير الذاتي خلال الحربين العالميتين

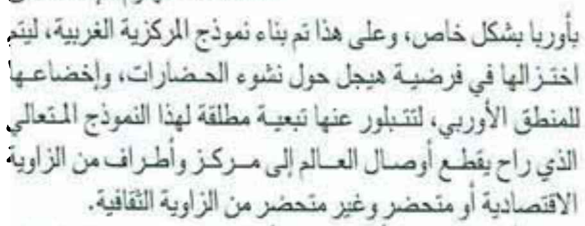


البريطانية بنظيرتها الأمريكية، وفق جملة من الخطوات تقوم على تشخيص العلاقة بين أوربا وتجليات القوة، والبحث عن مكامن التحالفات الداخلية التي جعلت من بعض الدول الأوربية تحظى بفترات نموّ ورخاء وازدهار خلال فترة معينة، ومحاولة الربط بين النظام الثقافي والعمل على استمرارية النموذج والعلاقة بدور التحديث في هذه الفعالية. ومن هنا تبرز الصورة العامة الشاملة بين الأفراد والقانون، تحت دعوى الخضوع الجمعي له، وأن حق الجميع مكفول بحكم الامتثال له والخضوع لجريانه، بينما يشير الواقع إلى جملة من الفواصل التي تسهم في تعميق الهوة بين الفئات لأمور مختلفة، لعل أهمها «الثقافي» الذي يعنى به المؤلف بشكل خاص، إذ يتوجه بشكل حاذق نحو تطبيقه على النموذج الإسرائيلي، وطبيعة تعامله مع عرب عام ١٩٤٨م، حيث عملت على احتوائهم داخل المنظومة الإسرائيلية، ولكن بتمييز عرقي وثقافي بشكل حاد.

مركزية العالم الثالث

إن ميزة هذا الكتاب تتجلى في حدة التصور الذي يقوم على الاستناد إلى التاريخ الاجتماعي، كوسيلة جديدة لدراسة تاريخ العالم، حيث التركيز التقليدي كان يتوجه نحو العناية الخاصة بالنخب، وعلى حساب الكم في التأثير في الأحداث العالمية بمجملها، فإن المؤلف يقرر حقيقة فحواها؛ «أهمية استبدال مركزية أخرى هي العالم الثالث بالمركزية الغربية» حيث يسود نظام الإنتاج الزراعي البسيط، وحزام الفقر الديني المنتشر في العالم الثالث، وانطلاقاً من سيادة هذا الواقع، فإن حالة استبدال المراكز تفرضها الوقائع والتوزيعات «باعتبار ما يكون».

فالمنطلق الذي يحفز المؤلف يبرز من واقع عملي مباشر، يستقي فروضه من طبيعة نظرة الغربي إلى مفهوم التاريخ، التي تمثل نتاجاً لفروض الواقع المعيش. والاعتراف بعسر الفكرة يجب أن يضعه المؤلف في مقدمة حساباته، على أن البحث عن النماذج



خارج الإطار التاريخي، بالإضافة إلى الهيمنة الثقافية التي مارستها المركزية الغربية. والإجراءات التي يقترحها المؤلف تتوقف عند الظروف التي أحاطت بالكتابة التاريخية، وفلسفة التاريخ، وعلاقة هذا المفهوم التاريخي بالنخب الحاكمة. والواقع أن ظروف نشأة هذه العوامل من «كتابة - فلسفة - مفهوم» إنما تتعلق بأوربا بشكل خاص، وعلى هذا تم بناء نموذج المركزية الغربية، ليتم اختزالها في فرضية هيجل حول نشوء الحضارات، وإخضاعها للمنطق الأوربي، لتتبلور عنها تبعية مطلقة لهذا النموذج المتعالي الذي راح يقطع أوصال العالم إلى مركز وأطراف من الزاوية الاقتصادية أو متحضر وغير متحضر من الزاوية الثقافية.

والأهم في كل هذا أن النظرة الأوربية بقيت على حالها، على الرغم من حالة التدمير الذاتي التي بدت عليها خلال الحربين العظميين، واستمرت نظرة المستعمر إلى باقي العالم كأنه مجرد تابع لا يستطيع المبادرة، وينتظر ما ينتج من المصدر، وإيغالاً في ترسيخ هذا الواقع، فإن الدراسات الصادرة عن الغرب، راحت تركز في دراساتها على اختيار نماذج بعينها من أجل تعميق النظرة المتخلفة إزاء العالم الثالث، كالتوجه إلى دراسة أوضاع المرأة، أو قصر الوعي على جهة معينة من القوى الفاعلة، كأن يتم ربط الفعالية الثقافية بالسلطة الحاكمة في العالم الثالث.

الإمعان في تثبيت المفاهيم

ويمعن بيتر جران في توجيه نقده إلى المركزية الأوربية، انطلاقاً من عدة معطيات، تبرز في ضعف وأحدية القوة التي تدعيها أوربا، وزعامتها للحضارة الغربية بشكل عام، وتميزها من العالم الثالث، وإخضاع الآخر للمقارنة مع الذات، مع الإقحام المباشر لمسألة النمو، والتقليل من شأن الحضارات ودمغها بالنكوصية التاريخية، وأن البديل الأهم حتى إن كان في مجال البحث عن الهوية الثقافية، لابد أن يخضع لمتطلبات الحداثة التي أفرزها العالم المعاصر، الذي يتسيد معطياته الغرب وثقافته أو حالة الاتباع المطلق الذي يدور في فلكه العالم الثالث، وأن جميع ما يجري في فلكه إنما يمثل انعكاساً، أو ردة فعل لما يصدر عن الغرب، وارتباط التغيير بحركة مصالح النخب، ولا يعتمد على النشاط الداخلي، وحالة العلاقة بالمطلق مع الحاضر، بسبب الانغماس في تراتبيات الحضارة التقانية (التكنولوجية) والمعلوماتية التي تمثل الآن حكراً على الغرب، أو الانغماس في الماضي. وعلى أساس الارتباط بعرض المفاهيم المتسيدة، فإن الغرب حاول الإبقاء على النمط التقليدي لتاريخ العالم، من أجل الإمعان في تثبيت مفاهيمه.

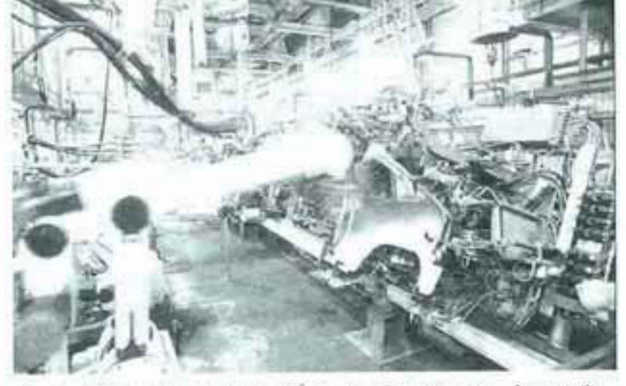
«التورخة» لا النقد والتحليل

وانطلاقاً من اعتماد المؤلف منهج التاريخ الاجتماعي، فإن تفسير الفعل التاريخي لا يمكن إسناده إلى مجرد شخصية واحدة، تتجلى فيها القيادة الملهمة «الكاريزما»، بقدر ما يقوم على التفسير الجماعي للناس الذين يؤلفون مجتمعاً ما. وبهذا، فإنه يحاول الخروج من التفسير المستند إلى «الإرادة الحرة»، بل إنه ينحو إلى الربط بين عاملي الإرادة الحرة والحتمية. وتقوم الفكرة الأهم التي تعن للمؤلف على بقاء طريقة كتابة تاريخ العالم على حالها، بالمقومات ذاتها حيث يتم التركيز كله على الغرب نخباً وثقافة وابتكاراً وإنتاجاً وصراعات، بالإضافة إلى سيادة عنصر الحوليات الذي يعمد إلى «التورخة»، أكثر مما ينحو إلى النقد والتحليل. بينما جماعة التاريخ الاجتماعي يستند وعيهم إلى أن التاريخ تصنعه الجماهير، ولا يتوقف الأمر عند لحظة بعينها، الذروة أو الحدود الفاصلة، بقدر ما يتطلع إلى الالتحام مع الواقع الحياتي والهم اليومي الذي يغرق فيه هامشيو المدن وفقراؤها، وفلاحو الكفاف في العالم الثالث.

فالمركزية الأوربية تبدو في أكثر حالات العنصرية فجاجة، حين تحاول تغريب الوقائع، وبتعبير آخر حين نعمد إلى «أوربة» النماذج البارزة خارج نطاق الخريطة الجغرافية الخاصة بها، وهكذا تعاملت مع النموذج الياباني، إذ عمدت إلى وصفه بالتغريب، انطلاقاً من موارد القوة والحداثة التي برزت فيه، ومن هنا جاءت فكرة الحشد للتراث تصميماً وبناء من أجل التغلب على مشكلة الحدود الجغرافية، ليتم ربط الحداثة المعاصرة وتراتبيات قوتها، إن كانت في اليابان الآسيوي أو الولايات المتحدة حيث يتركز الوصف الثقافي على «الأنجلوسكسونية»، أو المحاولات الحثيثة الصادرة عن بعض الجهات الأوربية في تعزيز مكانتها وشحذ الهمم والجهود نحو تعميم النموذج الفرانكوفوني «الفرنسي».

ثنائيات متبادلة

إن المسألة برمتها تقوم على تفسير القوة، انطلاقاً من التفسير الاستعماري، والعلاقات الناجمة عنه، ومن بين ثنايا هذه العلاقة تتبدى الثنائيات القائمة على محوري؛ (القوي - الضعيف)، (أوربا - العالم الثالث)، (الحداثة - البدائية). لكن الواقع يشير دائماً إلى أهمية الحاجة المتبادلة بين هاتين الثنائيتين. فكيف يتم العمل على بناء النموذج (العولمي)، والتطلع نحو تعميم «الإنترنت» و«الموبايل» و«الساتلايت»، والإشارة إلى أن العالم بات قرية كونية، بينما يبقى التركيز على أن التباين في مستوى النمو من حيث الاقتصاد يبقى قيد التداول شاخصاً، مفرداً قسماته على اللحظة التاريخية المعاصرة.



يظل التباين في مستوى النمو الاقتصادي مفرداً قسماته على اللحظة التاريخية المعاصرة

أما على صعيد تعميم النموذج الأوربي والإشارة إلى أهميته في تشكيل صورة العالم، وإهمال النماذج المحلية وجعلها قابعة في الأطراف، فإن هذا الأمر لا يخلو ألبتة من رفع العبء عن كاهل الزعامات السياسية في العالم الثالث، وتوجيه أصبع الاتهام إلى الغرب مباشرة، لأن الاستعمار هو المسؤول عن تعميق أثر هذا الخلل الموجود في بلدان العالم الثالث.

ويقوم التحديد على إبراز سياقين في التفسير التاريخي، بسبب تأثير المركزية الأوربية: الأول: يعتمد سياق الحاضر، الذي يعني بالإنجاز سبيلاً إلى التقدم، انطلاقاً من استمراريته، وبروز مظاهر تأثيره في صلب العالم وتجليات علاقاته، إنتاجاً ونمط حياة ومعلوماتية. أما الثاني فإنه يستند إلى الماضي، إذ يغرق عالمه في الرومانسية، مما يعيق حركته، ويجعل من مقولاته خارج

سياق الحاضر، لكن الولوج في الحاضر مع جميع معطيات القوة الضافية في التفسير والتحليل لا يمكن له أن يمنح الأوربيين حالة المجتمع المتكامل، الخالي من النقائص المشار إليها بكل قرف عند «العالم الثالث»، فأوربا المعاصرة بل الآنية لم تكن بمنأى عن حالة الصراع البدائي والاقتتال والصراع الديني والعنف والاغتيال السياسي والتطهير العرقي، ولعل الشاهد اليوغسلافي يعد خير دليل على ذلك.

فدعوة بيترجران تقوم على العقلانية، فالنموذج المتسيد لا يمكن له أن يبقى على حاله، انطلاقًا من جملة من التفسيرات التي يحددها منطق الكشف الذي يقدمه التاريخ الاجتماعي، وعلى هذا، فإنه يضع البديل الذي يقوم على أن الدولة القومية هي الأساس الذي يمكن من خلاله الوقوف على فهم أفضل لتاريخ العالم، فليس الأمر وقفًا على أوربا، لكون حيازتها مواطن القوة حاضرا. ومن أجل استيعاب مضامين الحداثة والتطور لضمان التقدم، فإن التنوع لابد أنْ يكون له الحضور الأهم لإيجاد أجواء من التفاهم وتركيز مجالات الوعي. وإذا ما تم الوقوف على هذا الوعي، فإن تناقضات الدولة القومية سوف تظهر للعيان في أكثر من معطى موضوعي، إن كان على صعيد الصراع الطبقي، أو تقديم ثقافة على حساب أخرى، أو سيادة عرق على آخر، أو طائفة. وهكذا تكون الحسابات التي تعنّ للحاكم الذي يضطلع بمسؤولية قيادة الدولة القومية.

النظرة الأوربية بقيت على حالها، على الرغم من حالة التدمير الذاتي التي بدت عليها خلال الحربين العظميين، واستمرت نظرة المستعمر إلى باقي العالم كأنه مجرد تابع

إغواء الجماهير

والعامل المشترك الذي تلتقي فيه مصالح الأنظمة، مهما كان نوعها، إنما يقوم على أهمية التعامل مع الجماهير، وإخضاعها لمنطقها، لا عن طريق القسر والإكراه فقط، كمظهر من أدوات القوة ووسائلها والحضور الطاغي، بل إن الإقناع يعد أحد أبرز العوامل في ذلك. وهكذا تتم عملية الإغواء لعامة الجماهير من خلال الضغط على مضامين القيم السائدة وأنطقتها المتمثلة في: الطائفة، والعرق، والثقافة، والدين، وصولا إلى النتيجة التي تكون عادة في صالح الدولة القومية، حيث الموافقة والمطابقة والتكتل مع منطق السلطة. ولعل عامل المصلحة يتبدى بشكل فاضح عندما تلتقي مصالح الأفراد مع توجهات النظام الحاكم، إن كان على مستوى التعليم، والإعلام، والدين، واللغة السائدة، والعادات الاجتماعية. ومن هنا يكون دور المؤرخ في فصل ما هو شرعي وما هو تكتيكي في النظام السياسي السائد. لكن الأهم في كل هذا يتجلى في تطابق الإرادة الحرة والحتمية لدى الجماهير في رفض سلطة القهر والهيمنة المفروضة عليها، على أن الوعي الجمعي يمثل حقيقة الإدراك، إذ لا يمكن أن تكون الحقيقة معزولة في جانب محدد، أو لدى جهة بعينها.

نماذج تحت المجهر

وتتجلى الخصائص الذاتية في النموذج الروسي في خصوصية التجربة التاريخية، حيث الهيمنة والعلاقة التي حددتها الماركسية - اللينينية في العلاقة مع الطبقة العاملة، وظهور السوفييت كقوة سياسية عظمى على المستوى العالمي، وبروز الصدع في الجهاز السياسي الذي أدى إلى الانهيار عام ١٩٩٠م. والسؤال الأهم يكمن في حالة تقبل العنصر الروسي لحالة التطلع نحو قيم الغرب وتوجهاته، بعد سبعين عاماً من حالة التعبئة ضد أفكاره، والإجابة هنا ستكون ضمن فروض منهج التاريخ الاجتماعي الذي يقوم على أن تغلغل العناصر غير الروسية، التي كان يتألف منها الاتحاد السوفييتي السابق، كان من عوامل ظهور التخمة في الجهاز السياسي الحاكم، وإبراز أثره الاجتماعي على صعيد التطلع نحو النموذج الآخر. أما بالنسبة إلى دراسة النموذج العراقي الذي يربطه المؤلف بالطريق الروسي، حيث الإشارة إلى اختلال النمو في أقسام العراق، والتوضيح يتعلق بمضامين الوعي بمدركات الاقتصاد السياسي الذي يشير إلى أن التنمية لا تثمر دائماً مجتمعاً حديثًا، بل إلى طلطلة قديمة وحديثة. والمسوغات التي يستند فيها المؤلف إلى ربط العراق بالطريق الروسي تقوم على تبني العراق لنموذج دولة العرق - القبيلة، حيث المدينة المركزية ممثلة بالعاصمة بغداد، والتعددية الطائفية والدينية واللغوية، وحالة التمايز بين الريف والمدينة، وتفاوت أوضاع المرأ في مناطق العراق المختلفة. ويشير المؤلف إلى أن الاستعمار كانت له اليد الطولى في إعاقة التنمية الصناعية، إذ لم تجد موارد النفط عناية لاستغلالها في التصنيع، مما أوجد حالة من التوتر بين السلطة والأفراد.

وفي دراسة الطريق الإيطالي يتم التركيز على اتجاه الح… في إيجاد نوع من التقاطع بين إقليمين داخل البلد الواحد في سبيل إخفاء الصراع الطبقي داخل المجتمع، حيث تأكيد الشمال الصناعي المتقدم، ذي الثقافة الحضرية البورجوازية، في مقابل

الجنوب الاقطاعي ذي الثقافة التقليدية. ومن أجل دعم مرتكزات السلطة الحاكمة فإن الاتجاه كان يصب في دعم فكرة الحزب الواحد؛ لأن وجود حزبين كبيرين قد يهدد وحدة النظام، انطلاقاً من الخشية في تركيز القوى السياسية داخل الأقاليم المختلفة، وما ينجم عنها من تقاطع في المصالح. أما على صعيد دراسة الهند فإن المؤلف يجعلها خاضعة للطريق الإيطالي، لكون اتجاه النظام الحاكم نحو تركيز التباين الإقليمي. وفي دراسته للمكسيك يحددها بالطريق الإيطالي كنموذج في أمريكا اللاتينية، حيث التنافس بين الليبراليين والماركسيين والرومانسيين «الماضويين».

فالشمال المكسيكي تبرز فيه النزعة العلمانية، أما الجنوب فإنه يعد المصدر الرئيس للعمالة الرخيصة، والشمال تبدو فيه حالة النمو الرأسمالي بشكل واضح.

وفي دراسة حالة أثيوبيا، يكون التوصيف وفقاً للنموذج القبلي - الإثني، ليتم توجيه الحقائق التاريخية الكامنة فيه، في نقد النموذج الأوربي من حيث العلمانية والديمقراطية والقبلية. وعلى الصعيد الإفريقي يتوجه الكتاب نحو دراسة الكونغو البلجيكية - زائير كنموذج للطريق القبلي الإثني، حيث البطء في التطور السياسي، وتعدد القوى الإقليمية وتحالف بعض القوى القبلية مع المستعمر مثل «النجومبي والمونجو» اللتين غدتا على رأس السلطة. وبحكم التطلع نحو كتابة تاريخ عالمي فإن المؤلف يتوجه نحو دراسة الديمقراطية البورجوازية في بريطانيا العظمى، لاستقرار نموذجها على الرغم من محاولات المقاومة خلال القرن التاسع عشر، إلا أن النهاية كانت لمصلحة النموذج المتسيد حيث النظام المعرفي والطبقي. وعلى صعيد دراسة البورجوازية الديمقراطية والتوجه نحو الولايات المتحدة الأمريكية كنموذج، حيث التحولات من الأرض الموعودة والعالم الجديد فالحرب الأهلية والتمدن الأمريكي وصولاً إلى تبني مقولات الشرعية الدولية، والنظام العالمي الجديد، والقرية الكونية، ونهاية التاريخ.

ويبرز دور الدولة الأمريكية في ضبط النشاط الداخلي ولاسيما في مجال سيطرة رأس المال الأمريكي الذي يقوم على استثمار التناقض بين نموذجين رأسماليين: الأول دولي تتركز فعاليته في الساحلين الشرقي والغربي، والثاني وطني في الجنوب والوسط.

والواقع أن تحالفات القوى اتخذت طابعاً جديداً في أعقاب الأزمة الاقتصادية العالمية، فبعد أن كانت رأسمالية الشركات أكبر بكثير من الرأسمالية الوطنية، انقلب المعادل ليتم تحالف جديد بين الرأسمالية الوطنية والطبقة المتوسطة من أجل بلوغ حالة الهيمنة والتأثير بشكل مباشر في رأسمالية الشركات، بالإضافة إلى محاولة خلخلة الرفض الذي بات يبرز في بعض مناطق الولايات المتحدة، ولاسيما في الجنوب والوسط، وفي مجال تحييد الثقافة حرصت المؤسسة الحاكمة على ابتكار أسلوب «العناصر العازلة» حيث قامت بتقديم بعض النماذج الأمريكية من الأصول الإسبانية والشرق أوسطية والآسيوية بغية قطع الطريق على العناصر الزنجية بالادعاء أن ظاهرة التمييز العنصري يتوجه نحوهم، لكون أمريكا بلد الفرص المفتوحة للجميع، ليتم من ذلك جعل التعددية الثقافية أداة لتجاوز الشعور بالذنب إزاء العناصر الزنجية.


كيف تستبدل مركزية العالم الثالث بنظامه الزراعي البسيط بالمركزية الغربية؟

ويشير المؤلف إلى أن المركزية الأوربية تمثل العائق المباشر في تطبيقات منهج التاريخ الاجتماعي، أما محاولة التملص من سيادة التحليلات التي يضعها علماء الاقتصاد السياسي حول نشاطات الرأسمالية الصناعية، والخوض في بناء النموذج وفقاً لتفسيرات وتوجهات الرأسمالية المالية، فقد سوغتها التحولات الاقتصادية التي يشهدها العالم اليوم؛ إذ جعل منها أكثر تقبلاً ويسراً. وفي سبيل الوقوف على منهج محدد، فإنه استعان بتطبيقات الفيلسوف الإيطالي الماركسي «جرامشي» حول المثقف الملتزم، وطروحات الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو حول المثقف والسلطة وتحولات المعرفة، حيث النقد الصارم والدقيق للمركزية الأوربية، بالإضافة إلى تطبيقات التاريخ الاجتماعي. وانطلاقاً من هذه الفرضيات فإن السلطة يكون تداولها داخل المجتمع الإنساني بشكل واسع وكبير. ويبقى أن نقول إن الكتاب يمثل جهداً سخياً وعالياً، استثمر فيه المؤلف تطبيقاً حاذقاً ودقيقاً لمتطلبات المنهج، إلا أن أغلب الأفكار التي يقدمها كان يسودها بعض القطع والانتقال المفاجئ الذي يذهب بروع القارئ، ويجعله يعود إلى الصفحات السابقة من أجل ربط الأفكار.

ردًا على سمير عبدالحميد إبراهيم

لم أخلط بين الصحافة العربية والأردية في الهند


الصحافة العربية في الهند

لقد قرأت تعليق الدكتور سمير عبدالحميد إبراهيم المنشور في العدد (٢٧٤) على مقالتي «الصحافة العربية في الهند» التي نشرت في العدد (٢٧٠)، وقد أحببت أن أردّ عليه وأناقشه بهدوء علّ الفائدة تعمُّ الجميع.

ـ بالنسبة إلى المراجع التي عدت إليها كان جلُّها المجلات العربية الصادرة في الهند التي وصلت إلى بعض البلدان العربية، وخصوصاً بعد عام ١٩٥٠م، وقد ألحقت بمقالي صور أغلفة منها، وقد قامت الفيصل مشكورة بنشر ست صور منها، وأغلب هذه المجلات أحتفظ بنسخ منها. أما المراجع التي أرّخت للصحافة العربية القديمة، وخصوصاً في الهند، فهي قليلة، ووجدت ضالتي في كتاب «تاريخ الصحافة العربية» لفليب دي طرّازي الصادر في بيروت عام ١٩١٤م، وكتاب «دليل الصحافة العربية» للأستاذ ناجي نعمان الصادر في يونيو/ حزيران عام ١٩٨٨م وغيرهما من المراجع التي أشارت إشارات عابرة إلى الصحافة العربية في الهند، وما ذكره الأستاذان طرّازي ونعمان ذكرته في مقالي، وما صنفاه من جرائد ومجلات صنفته.


ناجي نعمان

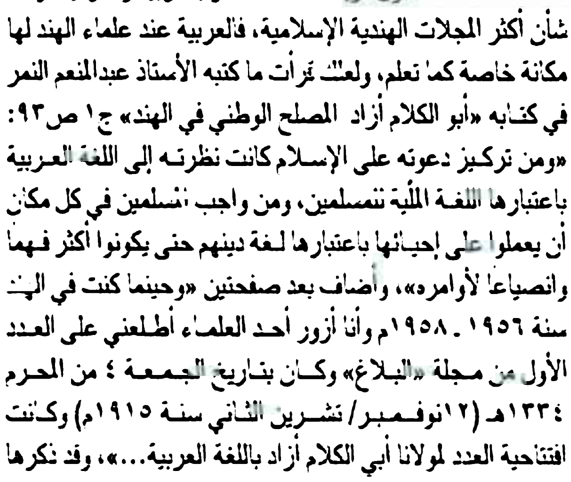
يذكر طرازي في كتابه ج٣ ص ٩٨ تحت عنوان جرائد الهند الإنجليزية «أن جريدة «نصرة الأخبار» أصدرها نصرة علي خان عام ١٨٨٠م في دلهي، وأن جريدة «الهلال» أصدرها أحمد أبو الكلام الدهلوي ـ ويقصد أبا الكلام أزاد ـ في أيلول / سبتمبر عام١٩١٢م» إلى آخر ما ذكرت من جرائد، وفي ص ١٥٤ من الجزء نفسه يذكر المجلات الإنجليزية التي صدرت في الهند.

أما الأستاذ ناجي نعمان فيذكر في ص ٥٦١ من كتابه «دليل الصحافة العربية» «عرفت الهند الصحافة العربية مع صدور جريدة «نصرة الأخبار» لنصرة علي خان عام ١٨٨٠م في دلهي، وقد تلتها «مفرح القلوب» عام ١٨٨١م في كلكتا. أما أول جريدة بالعربية صدرت في لكناو (لكهنو) فكانت «الرياض» لمحمد عبدالعلي المدراسي (١٩٠٠م) بينما ظهرت أول جريدة بالعربية في بومبي عام ١٩٢٠م على يد محمد مراج وعبد الله شريف، وكانت تحمل اسم «صوت الحق»، وعن لجنة المجلات ظهرت «البيان» لعبد الله العمادي في لكناو (١٩٠٢م) تلتها المجلة الإسلامية الهندية للخوجة جمال الدين في كلكتا (١٩١٣م)، وفي البنجاب أصدر المستشرق د. ليتر صحيفة «النفع العظيم» عام ١٨٨٠م».

ـ أما قولك: هذا رأي يحتاج إلى مراجعة ردًا على قولي: «فإن الهند عرفت الصحافة العربية قبل أكثر البلدان العربية» فإذا عرفت الهند الصحافة العربية عام ١٨٨٠م فأرجو أن تعود إلى كتاب «المنجد في الأعلام» (ط١٦ بيروت عام ١٩٨٨م ص٦٨٨) أو غيره من المراجع الكثيرة لترى كم عدد البلدان العربية التي عرفت الصحافة قبل ١٨٨٠م؟، وكم عدد الدول التي عرفتها بعد عام ١٨٨٠م.

ـ يقول الدكتور سمير: «خلط الكاتب ـ سامحه الله ـ بين الصحف والمجلات وبين الصحف والمجلات الأردية والأخرى العربية...».

أقول: لم أخلط بين العربية والأردية ـ سامحك الله ـ فأعرف الفرق بينهما ـ وإن كان هناك خلط فمن المراجع التي اعتمدت عليها كما أوضحت ذلك سابقًا، فقولك: إن جريدة الهلال كانت أردية مصورة وغيرك يقول: إنها عربية، أقول: ربما كانت تصدر بالعربية والأردية، وهذا



شأن أكثر المجلات الهندية الإسلامية، فالعربية عند علماء الهند لها مكانة خاصة كما تعلم، ولعلك قرأت ما كتبه الأستاذ عبدالمنعم النمر في كتابه «أبو الكلام أزاد المصلح الوطني في الهند» ج١ ص٩٣: «ومن تركيز دعوته على الإسلام كانت نظرته إلى اللغة العربية باعتبارها اللغة المليّة للمسلمين، ومن واجب المسلمين في كل مكان أن يعملوا على إحيائها باعتبارها لغة دينهم حتى يكونوا أكثر فهمًا وانصياعًا لأوامره»، وأضاف بعد صفحتين «وحينما كنت في الهند سنة ١٩٥٦ ـ ١٩٥٨م وأنا أزور أحد العلماء أطلعني على العدد الأول من مجلة «البلاغ» وكان بتاريخ الجمعة ٤ من المحرم ١٣٣٤هـ (١٢نوفمبر/ تشرين الثاني سنة ١٩١٥م) وكانت افتتاحية العدد لمولانا أبي الكلام أزاد باللغة العربية...»، وقد ذكرها

كلها في كتابه المذكور، واحتلت اثنتي عشرة صفحة.

ويقول صاحب «نزهة الخواطر» الشيخ الندوي، رحمه الله، في ج٨ ص١٦ عند ترجمته لأبي الكلام أزاد: «ولما حصلت له الملكة الراسخة في معرفة اللغة العربية أقبل على مطالعة الكتب وجدّ واجتهد وأنشأ مجلة شهرية في بومبي، ثم قدم لكهنؤ وتولى إنشاء مجلة «الندوة» لسان حال ندوة العلماء، فأقام بلكهنؤ زماناً، ثم سار إلى أمرتسر وتولى إنشاء صحيفة «الوكيل» الأسبوعية فأقام بها سنة، ثم صار إلى كلكتا، وأنشأ «الهلال» الصحيفة الأسبوعية سنة ١٣٣٠هـ، وحصل له القبول العظيم في بلاد الهند لمهارته في أساليب الكلام، وبراعته في الإنشاء والترسل، ثم أنشأ صحيفة سماها «البلاغ» ثم صحيفة «الإقدام»...» فما الذي يُفهم من كلام شيخينا الجليلين؟. علماً بأن الندوي ذكر أن أبا الكلام أزاد ولد ونشأ في كلكتا، وأنت قلت، نقلاً عن كتاب الشيخ النمر، إنه ولد في مكة المكرمة، وقضى أيام طفولته بالحجاز، وأظن أن قول الشيخ النمر أوثق، وهذا لا يقلل من شأن الشيخ الندوي أو غيره من العلماء الذين يجتهدون، فقد يصيبون أو يخطئون.

والذي أريد أن أقوله، بعد أن عرفنا مكانة اللغة العربية عند علماء الهند، إنهم لم يهملوها حتى في صحفهم الأردية التي لا يخلو أكثرها منها، وخصوصاً أنها صحف إسلامية تعنى بالقرآن والأحاديث والتفسير وغير ذلك، مما حدا ببعض المؤرخين إلى عدها عربية، كما عدوا صحيفة «الوقائع المصرية» التي أصدرها محمد علي باشا في مصر عام ١٨٢٨م عربية، علماً بأنها كانت باللغتين التركية والعربية.

- أما بالنسبة إلى السيد أحمد خان الدهلوي رئيس جامعة عليكرة، نعم فإني أوافقك الرأي، فإنه لم يكن وزيراً للمعارف أو التعليم، وقد حصل التباس بينه وبين أبي الكلام أزاد؛ إذ الاثنان يحملان الاسم نفسه في بعض المصادر «أحمد الدهلوي»، ومن هنا حصل الالتباس.

وأخيراً أودُّ لو كان الدكتور سمير أكثر هدوءاً، وأجمل عرضاً، بعيداً عن الانفعالية؛ لأن النقاش يتطلب البعد عن التشنج والغضب والاتهام.

هذا ما أحببت أن أقوله، فإن كنت مصيباً فمن الله، وإن كنت مخطئاً فمن نفسي، هو حسبنا ونعم الوكيل.

خليل الصمادي

الرياض



ملاحظات حول منهج «البحث العلمي عند الأطباء العرب»

يعتمد أكثر الباحثين على السرد التاريخي من أجل إبراز مآثر الأطباء القدامى في الميدان الطبي، وعرض مختلف الإنجازات الباهرة التي توصلوا إليها باحترام تسلسلها الزمني التاريخي؛ وبذلك يتم الابتعاد تدريجياً عن التحليل النقدي للمعارف العلمية الطبية، والاكتفاء بالعرض التاريخي، مما يجعل هذا النمط من الأبحاث يتجه وينتمي إلى البحث التاريخي أكثر مما ينتمي إلى البحث العلمي، وفي هذا الإطار يدور موضوع «البحث العلمي عند الأطباء العرب» للباحثة الأستاذة ريتا خباز المنشور بالعدد (٢٧٥). ونحن، مع اهتمامنا بالإنجازات الطبية التي حققها الأطباء القدامى، تهمنا كذلك معرفة الأسس والمناهج التي قامت عليها هذه الإنجازات، وأدت إليها، أو كما عبر عنها الباحث محمد يحياوي «تحديد الأسس والقواعد الأولية التي تحكمت في إنتاج المعرفة العلمية سواء أكانت هذه الأسس مستوى اجتماعياً أم كانت مستوى معيناً في طبيعة تفكير الأفراد الذين أنتجوا هذه المعارف، مثل الأساليب المنهجية التي يستخدمونها، أو القواعد الفكرية التي يحتكمون إليها»(١).

وبهذا يتخلص منهج البحوث والدراسات في تاريخ العلوم الطبية من النظرة الضيقة التي تحكمه ضمن الإطار الاستعراضي، والتي تعطي للمتلقي شعوراً زائفاً بالتفوق والنجاح، وتتغاضى عن عملية تشكيل العقل النقدي الفعال وغير المنفعل الذي هو قاعدة البناء المادي للمعرفة العلمية، ويثور سؤال: لماذا يعمد بعض الباحثين لاختيار النهج الاستعراضي في بحوثهم، والميل إلى النزعة (التمجيدية)، ورش البخور وإغداق الصفات والألقاب من دون حساب، والتركيز على النماذج الشهيرة في تاريخ الطب، والاقتصار عليها، وكأنهم يتعاملون مع طموحاتهم، ويتجاهلون عوائقهم؟

لقد أوضحت الباحثة المجتهدة أن الأطباء العرب «أسسوا قانون التجربة والنظرية، أي إن التجربة يجب أن تسبقها النظرية».

والواقع أن الأطباء العرب أبدعوا في مجال (الطب العملي)، وكانت لهم اكتشافات وإنجازات أثرت في تطور المسيرة الطبية عبر القرون حتى العصر الحديث، ولكن كان اعتمادهم على النظرية الفلسفية اليونانية التي نادى بها الفيلسوف اليوناني أمبادوقليس، والتي تطورت فيما بعد لتفسير أمراض جسم الإنسان في ضوء علاقته بالكون بحسب نظرية العناصر الأولى (النار، الهواء، الماء، التراب). وأن حصول العلل والأمراض ناجم عن عدم توازن الأخلاط في جسم الإنسان. ولن ننسى أن الطب نشأ في أحضان الفلسفة، فقد كان لمن يريد أن يصبح طبيباً أن يتقن الفلسفة وأصول المنطق، بحسب المفهوم اليوناني. ولجالينوس كتاب عنوانه «الطبيب الفاضل يجب أن يصبح فيلسوفاً». ولكن العرب حرروا الطب من الفلسفة، وأصبح البحث الطبي علماً مستقلاً، ولكنهم لم يتخلوا عن نظرية العناصر الأولى أساساً نظرياً، والواقع أن تحقيق مشروع نظري طبي عربي خارج عن هيمنة هذه النظرية كان يتطلب جهازاً معرفياً (منظومة معرفية) لم تكن تتوافر لأحد من الأطباء على اختلافهم، وكان ذلك يتطلب قطيعة مع المفاهيم الأبقراطية والجالينوسية اليونانية لم تكن الظروف التاريخية المادية وغيرها تسمح بها، وهذا ما لم يحققه الأطباء القدامى، بل على العكس حرصوا كل الحرص على تأكيد مشروعية علومهم الطبية بكونها تستجيب للشروط التي يشترطها الطب الأبقراطي اليوناني.

والجدير بالذكر أن الأطباء العرب أثاروا الاعتراضات والاستفهامات والخلافات مع المفاهيم الجالينوسية، ولكن هذه المعطيات كلها لم تترسخ لتشكل نهجاً مستقلاً أو منعطفاً حاداً يسمح بتجاوز سلطة جالينوس الطبية والخروج عن وصايته، والانفلات الوثيق من سيطرة مفاهيمه، ونعود لنؤكد أن التزام الأطباء القدامى ما ذكرناه لم يكن معيقاً أو مانعاً من الولوج في عالم من الدقة والتفصيل العملي الرائع، مما يعطي الانطباع بأن التزامهم هذه النظرية كان شكلياً في بعض الأحايين، وكأنهم يبحثون عن راية يقاتلون تحتها حتى لو لم تكن تلبي طموحاتهم العقلية، فقد كان منهج التأليف الطبي عندهم يعتمد على تعيين موضوع الصناعة الطبية، ويشير إلى أهم مسائلها واهتمامها، ويستعرض مراحل تطورها، ويذكر أبرز الكتب المصنفة في الموضوع المطلوب، ملتزمين الموضوعية والحيادية في الأعم والأغلب، فلا يكاد يخلو كتاب من كتب الطب الأمات من مقدمات منهجية تشرح المبادئ والغاية التي يرومها المؤلف.

يقول الباحث محمد عابد الجابري: «إن النقد يجب أن يشمل ليس ما ننتجه نحن فقط، بل أيضاً ما خلفه أجدادنا لنا، وبذلك نتحول من كائنات تراثية إلى كائنات لها تراث؛ أي إلى شخصيات يشكل التراث أحد مقوماتها»(٢). لقد آن الأوان أن نتفاعل مع تراثنا العلمي من دون طروحات جاهزة، أو مفاهيم مسبقة، أو أرضيات أيديولوجية مفروضة، والسبيل للبدء ببناء عقل علمي عربي يعتمد على الصدق مع الذات، والموضوعية المجردة، كما كان بعض أسلافنا العلماء يفعلون، فابن خلدون رفض علم التنجيم وما يطرحه من مقدرة على التنبؤ بحوادث الكون، وأورد عدة أمثلة لتلاعب النساخ بالأرقام والكلام، ووصف كتب التنجيم في عهده قائلاً: «وليس منها أصل يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب»(٣).

كما تحدث عن وراق ذكي يدعى الدنيالي في أيام الخليفة العباسي المقتدر، وكيف كان يتلاعب بالأوراق والكتب، ويوهم أصحاب الجاه وعظماء الدولة بأشياء ستحدث(٤)، كما يبين كيف أن المصادفة أحياناً تؤدي إلى تصديق الوهم، ويشرح خطر ذلك على العقائد والنفوس(٥)، كما ربط بين الفكر والإنسانية فعدّ تقدّم الفكر معياراً لتقدم إنسانيته، والذي يتوالى في التفكير ويتقدم، يكون مرتبطاً أكثر بالإنسانية قائلاً: «على قدر حصول الأسباب والمسببات في الفكر تكون مرتبة إنسانيته»(٦). ولا يسعنا في الختام إلا أن نوافقه على رأيه: «أن الناس بشر متماثلون، وإنما تفاضلوا، وتمايزوا بالخلق، واكتساب الفضائل، واجتناب الرذائل»(٧).

محمد فؤاد الذاكري
حلب - سورية

المراجع

١. مجلة «فيصل»، العدد ٣٦٢، ص٥٩.
٢. نحن والتراث. محمد عابد الجابري، ص٣٣١.
٣. مقدمة ابن خلدون، المكتبة العصرية، لبنان، ص ٣٦٢.
٤. المرجع السابق، ص٣١٦.
٥. المرجع السابق، ص٥٢٠.
٦. المرجع السابق، ص٤٣٨.
٧. المرجع السابق، ص٣٤٥.

مسابقة الفيصل

أسماء الفائزين في مسابقة العدد (٢٧٧)

رجب ١٤٢٠هـ - أكتوبر/نوفمبر ١٩٩٩م

الفائز الأول: **علي فايز الجسري - سورية**

الفائز الثاني: **شكري أحمد أحمد حسن - اليمن**

الفائز الثالث: **نوال علي المغيصيب - السعودية**

الفائز الرابع: **زين العابدين أكريم - المغرب.**

حل مسابقة العدد (٢٧٧)

- **نيل أرمسترونغ رائد فضاء أمريكي.**
- قمة إفيرست تقع في نيبال.
- **الفيرجو هو الاسم الياباني لسمكة غريبة الشكل.**
- منور صمادح شاعر تونسي.
- كانت غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة.

مسابقة الشهر (العدد ٢٨٠)

ضع علامة ☑ أمام الإجابة الصحيحة:

(١) تأسست مطبعة الجوائب على يد ☐ أحمد فارس الشدياق ☐ محمد كرد علي.

(٢) أنشئ أول كرسي للدراسات العربية في جامعة لايدن سنة ☐ ١٥٨٦م ☐ ١٧٨١م.

(٣) تشارلز ساندرز بيرس ☐ فيلسوف وفيزيائي أمريكي مؤسس الفلسفة الذرائعية أو البراغماتية.
☐ الرئيس الرابع عشر للولايات المتحدة الأمريكية استفحلت في عهده مشكلة الاسترقاق.

(٤) أليسمير ☐ جزيرة في أقصى الشمال من كندا ☐ نوع شهير من الصوف.

(٥) من قائل هذا البيت:

ضاقَتْ فلمّا استَحْكَمتْ حلَقَاتُها ... فُرِجَتْ وكُنْتُ أظنُّها لا تُفرَجُ

☐ إبراهيم بن العباس الصُولي ☐ الإمام الشافعي.

الاسم: ص.ب:

العنوان: الرمز البريدي:

المدينة: هاتف:

الدولة: ناسوخ:

شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها في فترة لا تتعدى نهاية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد .....)

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وقرعة أخيرة للفائز الأخير.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

الجوائز

الجائزة الأولى:
١٥٠٠ (ألف وخمسمئة ريال سعودي).

الجائزة الثانية:
٧٠٠ (سبعمئة ريال سعودي).

الجائزة الثالثة:
٥٠٠ (خمسمئة ريال سعودي).

الجائزة الأخيرة:
(اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).

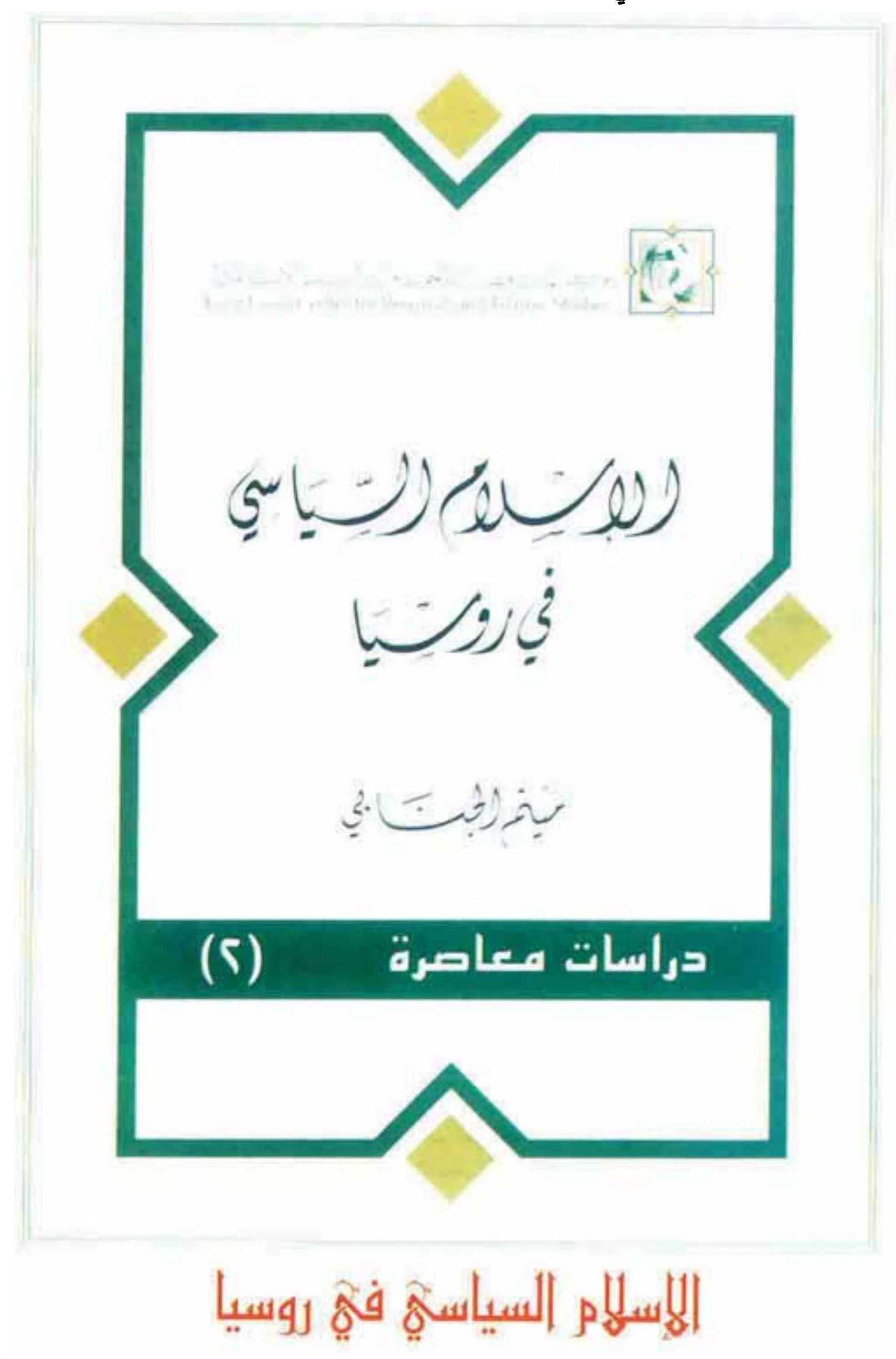
عنوان المجلة:

ص.ب (٣) - الرياض ١١٤١١ — المملكة العربية السعودية. هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ — ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

صدر حديثًا عن

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

العدد الثاني من سلسلة «دراسات معاصرة»



الإسلام السياسي في روسيا

الملف الثقافي

فوز الغذامي بجائزة سلطان العويس
والهويمل بجائزة شاعر مكة

مشروع يمني لحصر القطع الأثرية
والمخطوطات

مذبحة دنشواي المصرية في صور نادرة

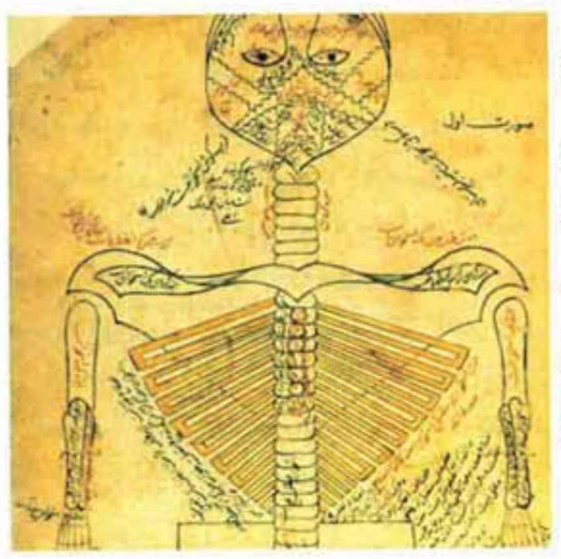
ترويجاً لمواد غذائية الزبائن يشاركون
في تأليف رواية عبر الإنترنت

جين أوستن في معرض المكتبة
القومية البريطانية

«كبسولة الزمن» ذاكرة القرن العشرين
بعد ١٠٠٠ عام

رحيل الروائي الأمريكي بول بولز
والصحفي اللبناني فاضل عقل والممثل
الفرنسي دانيال إيفرنيل

خاتمة المطاف:



أدب عيادة المريض عند الطبيب إسحق الرهاوي

فحص الأعمال المرشحة لجائزة الملك فيصل العالمية

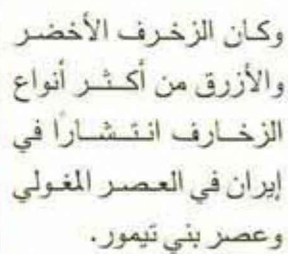
تم الفراغ من فحص الأعمال المرشحة لجائزة الملك فيصل العالمية، وذلك للتأكد من مطابقتها لشروط المنافسة، صرح بذلك الدكتور عبدالله بن صالح العثيمين، الأمين العام للجائزة، وأضاف أنه خلال الأيام القادمة سيتم استلام التقارير من الحكام، وفي ضوء ذلك تتم دعوة لجان الاختيار للنظر في الترشيحات.

وبالنسبة إلى جائزة خدمة الإسلام، أحد فروع الجائزة الخمسة، أشار معاليه إلى أن لجنة الاختيار تنظر فيما قدم المستحق للجائزة، وأعماله وسيرته الذاتية، وليس هنالك موضوع محدد للجائزة، أما بالنسبة إلى فروع الجائزة الأربعة الأخرى، ففي فرع «الدراسات الإسلامية» حُدد موضوع الدراسات التي تناولت انتشار الإسلام في إقليم أو أكثر خارج الوطن العربي، وأثر ذلك الانتشار حضارياً، وفي فرع «الأدب العربي» حدد موضوع الدراسات التي تناولت النقد العربي الأدبي القديم عند العرب، وفي «الطب» حدد موضوع أمراض الشيخوخة، وفي «العلوم» علم الحياة (البيولوجيا).

مقتنيات تراثية جديدة لمركز الملك فيصل

اقتنى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية مؤخراً مجموعة من القطع التراثية من بينها «دفة جلد مزخرفة لكتاب فارسي»، وهي من الشواهد على العناية البالغة التي أولاها المسلمون للمخطوطات.

كما اقتنى المركز شمعداناً من البرونز مصنوعاً في إيران في العصر السلجوقي في بداية القرن السابع الهجري، واقتنى المركز أيضاً إبريقاً من الخزف الأخضر من القرن ٦ ـ ٧هـ أي العصر العباسي الثاني، وكان الزخرف الأخضر والأزرق من أكثر أنواع الزخارف انتشاراً في إيران في العصر المغولي وعصر بني تيمور.



إبريق من الفخار المزجج

وكان من آخر مقتنيات المركز غلاف فارسي من الخشب المطعم بالصدف والفضة المنقوشة، وقد صنع هذا الغلاف الفارسي الجميل من الخشب، وزين باطنه وظهره برسوم معمارية، ونقوش نباتية مطلية بالدهان الملون.



صور نادرة من مركز الملك فيصل للأرشيف الوطني

قدم مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية مجموعة نادرة من الصور التاريخية، مساهمة منه في دعم مشروع الأرشيف الوطني للصور التاريخية الذي تقوم بإنشائه مكتبة الملك فهد الوطنية، بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية.

أفاد بذلك الأستاذ علي الصوينع أمين عام مكتبة الملك فهد الوطنية، وأضاف أن هذه المجموعة تشتمل على صور نادرة للملك فيصل ـ رحمه الله ـ عندما كان وزيراً للخارجية، فولياً للعهد، ثم ملكاً، كما تتضمن الصور لقطات من مناسبات مختلفة شارك فيها الملك فيصل، وجوانب من زياراته الخارجية، ونشاطاته الداخلية، وتعد هذه المجموعة من أفضل المجموعات المصورة للملك فيصل رحمه الله.

والمعروف أن الأرشيف الوطني للصور التاريخية أرشيف متخصص تقوم على تنفيذه «مؤسسة التراث»، وهي إحدى المؤسسات الوطنية المتخصصة في مجال التراث والمحافظة عليه، وسوف يتضمن العمل في الأرشيف جمع الصور



الملك فيصل يؤدي الصلاة في المسجد الأقصى
(من الصور النادرة المهداة مؤخراً من سمو الأمير خالد الفيصل لقاعة الملك فيصل بالمركز)

القديمة للمملكة العربية السعودية من مصادرها المختلفة المحلية والخارجية وحفظها، ومعالجتها وتحسين جودتها وفهرستها وتبويبها، مع ذكر معلومات تفصيلية عن الصور ومراجعها الأصلية، ومن ثم تخزينها في نظم حاسب آلي متطورة تمهيداً لعرضها والاستفادة منها.

وناشد أمين عام مكتبة الملك فهد الوطنية المؤسسات العامة والخاصة، والمواطنين الكرام والمصورين إلى الإسهام في هذا المشروع من خلال تقديم ما لديهم من صور تاريخية لتكون ضمن مجموعات هذا الأرشيف، ويفضل أن يرفق بكل صورة معلومات متكاملة عنها إذا توافرت هذه المعلومات وكان ذلك ممكناً.

وسوف تراعي المكتبة جميع الحقوق المتعلقة بالصور، والتعريف بأصحابها، وستبقى الصور تحت مسمى المصدر الذي قدمها، كما أن المكتبة تضمن ألا تتم إعادة استخدام الصور لأي غرض كان إلا بعد الحصول على إذن خطي من أصحابها.

صدور صحيفة أسبوعية نسائية جديدة

في خبر أوردته صحيفة «الحياة» من بيروت جاء فيه أن الناشر لدار «الحياة» صاحب السمو الملكي الأمير خالد بن سلطان بن عبدالعزيز قرر إصدار مطبوعة أسبوعية خاصة بالمرأة والأسرة العربية.

وستحمل المطبوعة الجديدة اسم «لها»، وجاء اختيار الاسم نتيجة مشاركة أكثر من ستة آلاف قارئ في المسابقة الخاصة بذلك التي نشرت في «الحياة» في وقت سابق.

وكذلك أصدر الناشر قراراً بتعيين الأستاذ مطر الأحمدي رئيساً للتحرير، والأحمدي يحمل درجة الماجستير في الإعلام من الولايات المتحدة، ويتمتع بخبرة صحافية كبيرة. وتدرج في مناصب صحافية عدة في جريدة «الجزيرة» السعودية، قبل أن ينتقل إلى العمل في المجموعة السعودية للأبحاث والتسويق، حيث عمل نائباً لرئيس التحرير في مجلة «المجلة» بين ١٩٨٩ و ١٩٩٢م، ثم رئيساً لتحرير مجلة «سيدتي»، إضافة إلى مجلتي «هي» الشهرية و«الجميلة» الأسبوعية، وكاتلوج أزياء «سيدتي» نصف السنوي. وفي تشرين الأول/أكتوبر انتقل إلى العمل في مجموعة دار الحياة.

الإنترنت في خدمة الإسلام

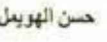
يعد الإنترنت أهم اكتشافات هذا القرن الذي ودعنا قبل أيام قلائل، وهو يعدّ من أخطر أسلحة القرن؛ إذ إنه يقتحم البيوت فضلاً عن القارات والبلدان.

وفي محاولة للاستفادة من هذه التقنية قامت جمعية «البلاغ» الثقافية في قطر بإنشاء مشروع عالمي باسم إسلام اون لاين ISLAM ON LINE، يتولى الإشراف عليه نخبة من رجال الفكر والرأي والمهتمين بأمر الإسلام والدعوة، وذلك من أجل خدمة الإسلام عبر الإنترنت.

ويرمي هذا المشروع، الذي يرأسه الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي، إلى مخاطبة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، وهو دعوة للناس كافة ولا يتعصب لفئة أو مذهب، معتمداً على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

الهويمل يفوز بجائزة شاعر مكة




حسن الهويمل

أعلنت هيئة جائزة الشاعر محمد حسن فقي برئاسة معالي الشيخ أحمد زكي يماني رئيس مؤسسة يماني الثقافية الخيرية أسماء الفائزين في فرعي جائزة شاعر مكة الكبير في دورتها الخامسة في مجالي الإبداع في الشعر، ونقد الشعر.

ونال جائزة الإبداع الشعري مناصفة ديوان «حوار مع الأيام» للشاعر الدكتور سعد دعبيس، وديوان «الولد الطيب.. تاه» للشاعر جلال عابدين، وجاء في حيثيات الحكم أن ديوان «حوار مع الأيام» يعكس «تمكن الشاعر من أدوات التعبير الشعري العربي المبين سواء أكان ذلك على نهج قديم أم حديث»، أما ديوان «الولد الطيب.. تاه» فقد جاء فوزه لأنه يعرض قضايا عصره بنظرة متعمقة، وروح إنسانية «في لغة سهلة، متدفقة» وقد تم ذلك «في إطار من الشعر الحر الذي حرص فيه الشاعر على سلامة الإيقاع، وجمال الموسيقى».

أما جائزة فرع الإبداع في نقد الشعر فجاءت مناصفة أيضًا بين كتاب «المرايا المحدّبة» للناقد الدكتور عبدالعزيز حمودة، وكتاب «النزعة الإسلامية في الشعر السعودي المعاصر» للناقد الدكتور حسن بن فهد الهويمل، وفاز كتاب «المرايا المحدّبة»؛ لأنه تناول في دراسة علمية جادة المدارس النقدية الحديثة، شارحًا لأصولها وما اعتراها من تطور، وقدم رؤية نقدية ناضجة مدعمة بالتحليل والمقارنة.

أما كتاب «النزعة الإسلامية في الشعر السعودي المعاصر» للناقد الدكتور حسن الهويمل، فقد فاز؛ لأنه - وفق حيثيات حكم اللجنة - «جاء حصيلة جهد كبير بين جمع وبحث وتوثيق وتنسيق، تناول فيه الكاتب الشعر السعودي المعاصر من مداخل متنوعة، وبأدوات منهجية متكاملة، كما رسم بعمله هذا معالم موقف نقدي يلتزم بمرجعيات النقد الإسلامي التزاما لا يقصي ما سواه ولا يستبعد المنازع التي تخالفه في منطلقاته الأولية، كما قدم الكتاب - إجمالاً - إنجازًا جريئًا على طريق استكمال الصورة الشعرية العربية».

سعد دعبيس

لوحات فلكلورية ترسمها فرقة الفنون السعودية في لبنان

رسمت فرقة الفنون الشعبية السعودية لوحات فلكلورية رقصًا وغناءً وموسيقى وهي تحتفي ببيروت عاصمة ثقافية للعالم العربي لعام ١٩٩٩م، وتأتي مشاركة المملكة هذه المرة بصورة غير مسبوقة؛ إذ شاركت بإطلالات ثقافية لم يسبق لها أن اجتازت حدود المملكة، وأوضح عبدالله الجارالله نائب رئيس الفرقة أن «الفرقة شاركت في نشاطات معظم الدول العربية، لكنها تقدم في بيروت للمرة الأولى عرضًا كاملاً يمثل الفنون الشعبية في مختلف أنحاء المملكة».

أقامت الفرقة عروضها على المسرح البيروتي القديم، وقدمت عددًا من الرقصات الجماعية الهادئة الخطا مصحوبة بالإيقاعات الخليجية والمزامير، وكانت «زفة العريس» هي أول العروض التي قدمتها

الفرقة، ثم «الرقصة الوطنية» وهي من الرقصات التي تؤدى في الأعياد الوطنية. وبما أن هذا العام هو عام الاحتفالات بالمئوية الأولى للمملكة العربية السعودية على يد الملك عبدالعزيز ـ طيب الله ثراه ـ كان الراقصون فرساناً يحملون السيوف، وبينهم رجل يحمل علم السعودية، ثم قدمت الفرقة رقصة «الخبيتي» وهي رقصة جماعية يتماوج فيها الراقصون على الإيقاع بخطا هادئة خفيفة الوطء ينساب من بينهم راقصان إلى الوسط حاملان سيفين لينتهيا متلاقيين بسيفيهما المرفوعين على نسق الشعار السعودي.

وكان لكل عرض أزياؤه الخاصة، وإن جاءت الأزياء التي أدى بها الراقصون عرض «السمسمية» من أجملها، والمعروف أن السمسمية آلة وترية كانت في الماضي تصنع من الخشب تشد عليها أوتار، ثم أصبحت تصنع الآن من معدن، وكان البحارة يستخدمون هذه الآلة خصوصاً في استراحاتهم؛ لذا جاء رقص المؤدين مستوحى من أجواء البحر.

صحافة الخليج في رسالة دكتوراه

«معالجة الصحافة الخليجية لقضايا الأمة الإسلامية» هو عنوان رسالة الباحث عبدالرحمن بن عبدالعزيز الماجد لنيل درجة الدكتوراه، التي نوقشت بمكتبة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة في الفترة الماضية.

أشرف على الرسالة الدكتور عبدالفتاح إبراهيم أستاذ الإعلام بالكلية. وتولى مناقشتها الدكتور عبدالرحمن بن صالح الشبيلي عضو مجلس الشورى، عضو المجلس الأعلى للإعلام ورئيس مجلس إدارة مؤسسة الجزيرة للصحافة والنشر ممتحناً خارجياً، والدكتور محمد عبدالحليم العنوي الأستاذ أيضاً بالكلية ممتحناً داخلياً.

الغذامي يفوز بجائزة سلطان العويس الثقافية



عبدالله الغذامي

أعلن في دبي مؤخراً عن أسماء الفائزين بجائزة سلطان العويس الثقافية في دورتها السادسة، فقد أعلن عبدالحميد أحمد الأمين العام لمؤسسة سلطان بن علي العويس أن عدد المرشحين الإجمالي لهذه الدورة بلغ ٣٦٨ مرشحاً في حقول الجائزة الأربعة كافة ومن جميع الدول العربية، وأعلن أسماء الفائزين وهم: الشاعر المصري محمد عفيفي مطر، والروائي العراقي فؤاد التكرلي، والناقد السعودي الدكتور عبدالله الغذامي، والباحثان العراقي الدكتور صالح أحمد العلي واللبناني الدكتور ناصيف نصار.

وجاء فوز الشاعر محمد عفيفي مطر، «تقديراً لجهد إبداعي امتد قرابة أربعة عقود، تمثّل في تجربة شعرية أصيلة متنامية تستند إلى التراث الشعري العربي قديمه وحديثه والشعر العالمي بمجمله والموروث الشعبي والمعرفة الفلسفية».

كما فاز الروائي العراقي فؤاد التكرلي تقديراً لعطائه الروائي الذي وطد مكانته الإبداعية في هذا الفن من مجموعته الأولى «العيون الخضر» التي صدرت عام ١٩٥٠م وحتى روايته «الرجع البعيد» التي صدرت عام ١٩٨٠م والتي كانت إضافة كبيرة في الرواية العربية وصولاً إلى روايته الأخيرة «المسرات والأوجاع» التي صدرت عام ١٩٩٨م.

ونال الناقد السعودي الدكتور عبدالله الغذامي جائزة الدراسات الأدبية والنقدية، لأن أعماله، كما يقول الأمين العام للمؤسسة عبدالحميد أحمد: «تقيم توازناً طيباً بين الإفادة من نظريات النقد الحديثة والمعاصرة

والنظر المتعمق في نصوص الإبداع العربي قديمها وحديثها».

وقد نالت كتابات الدكتور الغذامي اهتمام الأوساط الأدبية والثقافية في العالم العربي، حيث كان كتابه «المرأة واللغة» أكثر الكتب مبيعاً في معرض القاهرة الدولي في عام ١٩٩٧م، وأثارت آراؤه المضمنة في كتبه ومقالاته كثيراً من الجدل، إلا أنه لا خلاف على إغنائه الحركة النقدية بطروحاته الجريئة، وقد أصبحت مؤلفاته تدرّس في بعض الجامعات العربية مثل جامعة محمد الخامس بالمغرب، وجامعة اليرموك في الأردن، وجامعة الخليج بالإمارات العربية المتحدة.


فؤاد التكرلي

وعن شعوره حين علم بفوزه بهذه الجائزة قال في حوار لجريدة الرياض: «كان شعوري شعوراً بشرياً وطبيعياً في هذه المناسبة، فكل إنسان سيكون سعيداً بهذه المناسبة وهذا الخبر. فقد كان الترشيح في وقت مبكر ربما قبل عام، فقد كان لابد من موافقة المرشح وتوقيعه على الموافقة على الترشيح. وكنت بالفعل سعيداً بهذا الخبر، وفي الوقت ذاته أحمل شعوراً صادقاً وحقيقياً لزملاء كثيرين أتمنى أن يفوزوا بالجائزة لأنني أرى أن الذين يستحقونها كثيرون في العالم العربي، وأتمنى لآخرين أن يفوزوا بها لاحقاً».

ومنحت جائزة الدراسات الإنسانية والمستقبلية مناصفة بين كل من صالح أحمد العلي وناصيف نصار لإسهام الأول في وضع أسس وطيدة لمدرسة عربية جديدة في قراءة التاريخ الإسلامي تقوم على النقد الموضوعي ودراسة الوثائق الأصلية، والثاني لدوره في وضع أسس وطيدة لمدرسة عربية في الفلسفة منبثقة من مشروع نقدي تحليلي يدعو إلى تكوين مجتمع عربي جديد بعيد عن العنصرية والتعصب ورفض الآخر.


محمد عفيفي مطر

والمعروف أن جوائز سلطان بن علي العويس الثقافية تبلغ قيمتها الإجمالية ٤٠٠ ألف دولار أمريكي تمنح بواقع ١٠٠ ألف دولار لكل فائز، وهناك جائزة أخرى مقدارها ١٠٠ ألف دولار أيضاً تمنح للإنجاز الثقافي والعلمي، وكانت في هذه الدورة من نصيب الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي، وكان قد أُعلن عنها في وقت سابق.

د.عبدالله الغذامي في سطور

- ولد عام ١٣٦٥هـ في مدينة عنيزة.
- حصل على ليسانس اللغة العربية من جامعة الملك سعود (الرياض حالياً)، ونال الدكتوراه في الأدب والنقد من جامعة إكستر البريطانية.
- عمل أستاذاً مساعداً للأدب العربي الحديث، ورئيساً لقسم الإعلام، ورئيساً لقسم اللغة العربية، وأستاذاً للنقد بكلية الآداب، جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، ثم انتقل للعمل بكلية الآداب، جامعة الملك سعود بالرياض منذ عام ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
- كان نائباً لرئيس النادي الأدبي بجدة، وكانت له جهود كبيرة في تنشيط الدور الثقافي والفكري للنادي.
- شارك في كثير من المؤتمرات والندوات الأدبية والنقدية والشعرية في داخل المملكة وخارجها.
- حصل على جائزة مكتب التربية العربي لدول الخليج في العلوم الإنسانية لعام ١٤٠٤ - ١٤٠٥هـ (١٩٨٤هـ/١٩٨٧م) عن كتابه «الخطيئة والتكفير».
- من مؤلفاته: «الصوت القديم الجديد: دراسات في الجذور العربية لموسيقى الشعر الحديث» (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، و«تشريح النص: مقاربات تشريحية لنصوص شعرية معاصرة»، و«بحث عن الشعر الحر»، و«الموقف من الحداثة ومسائل أخرى»، و«ثقافة الأسئلة: مقالات في النقد والنظرية»، و«ثقافة الوهم»، و«الكتابة ضد الكتابة»، و«القصيدة والنص المضاد»، و«المرأة واللغة» وغيرها.
- شارك في الكتابة النقدية في معظم الصحف والمجلات المحلية والعربية.
- متفرغ مدة عام لإنهاء بحث له عن النقد الثقافي.

اكتشافات أثرية في «آتريبس»

استطاعت البعثة المصرية البولندية التي تعمل في «تل أتريب» في مدينة بنها في محافظة القليوبية بشمال القاهرة الكشف عن أجزاء من أطلال مدينة «آتريبس» الأثرية، وتمثل هذا الكشف في مبان من الطوب الأحمر واللبن لمساكن وحمامات.

كما استطاعت البعثة أيضاً اكتشاف عدد من التماثيل والأواني الفخارية المتنوعة، وقطع من العملة المصنوعة من مادة البرونز من عصر بطليموس الرابع، وبعضها من عصر بطليموس الثامن، وغير ذلك من التحف.

من جهة أخرى وافق المستشار ماهر عبدالواحد النائب العام على حفظ التحقيق في البلاغ المقدم من عدد من أساتذة السياحة والآثار ضد وزير الثقافة المصري فاروق حسني بدعوى الإهمال الذي لحق بالآثار الموجودة في متحف الفن الإسلامي في أثناء نقلها إلى أماكن أخرى أو حفظها في المتحف، وذلك بعد أن أثبتت التحقيقات التي أجراها المكتب الفني للنائب العام عدم وجود أي إهمال بخصوص هذه الآثار.

لجنة الثقافة بمجلس الشورى المصري تعترض على «القمة الذهبية»

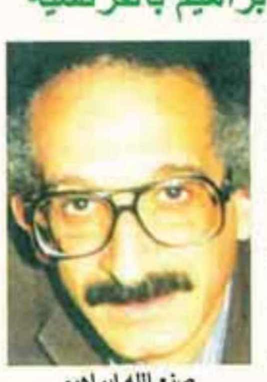


سكينة فؤاد

انتقد أعضاء لجنة الثقافة والإعلام والسياحة بمجلس الشورى المصري «القمة الذهبية» الخاصة باحتفال مصر بالألفية الثالثة فوق الأهرامات ولاسيما هرم خوفو. وتتمثل القمة الذهبية محل النقد إضافة قاعدة صخرية بارتفاع أربعة أمتار فوق قمة هرم خوفو، ويقول أعضاء اللجنة: إن هذا عمل خاطئ، وعبث بالآثار المصرية، وخلل واضح بأهم أثر مصري وعالمي، ولا يجوز بأي شكل من الأشكال إضافة قواعد صخرية، أو قمة ذهبية فوق الهرم.

وأكدت سكينة فؤاد عضو اللجنة أهمية تقديم الفن المصري الأصيل إلى العالم، وعرض حضارته، والثقافة المصرية بهذه المناسبة العالمية دون التركيز على الفن الأجنبي.

روايات صنع الله إبراهيم بالفرنسية



صنع الله إبراهيم

صدرت عن «دار أكت سود - سندباد» في باريس الترجمة الفرنسية لرواية الكاتب المصري صنع الله إبراهيم «شرف» وقد قام بوضع الترجمة ريشار جاكومون، وهي الرواية الخامسة لهذا الأديب التي تنقل إلى الفرنسية، وقد رسم الكاتب في هذه الرواية لوحة مخيفة عن وحشية الرأسمالية.

آثار فينيقية بشمال المغرب

قام فريق أبحاث مغربي إسباني برئاسة كل من محمد حبيبي محافظ المتحف الأثري بطنجة، والسيدة كارمين أرينيكي كاسكو الباحثة بجامعة فلنسيا بإسبانيا، بإجراء بحث عن الآثار الفينيقية بالمغرب، وذلك في إطار برنامج الأبحاث الأثرية التي تنظمها وزارة الشؤون الثقافية «المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث»، وتمكنت البعثة من العثور على بقايا أثرية بموقع «ليكسوس» شمال المغرب.

وكانت الأبحاث الأثرية قد انطلقت في هذا الموقع ابتداء من عام ١٩٩٥م، واستطاعت أن تحدد بداية الاستيطان من المرحلة الإسلامية إلى المرحلة الفينيقية،

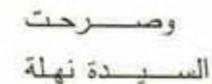
كما تمكنت أيضاً من إبراز معالم حي سكني واسع يعود إلى المرحلة المورية يرجع تاريخه إلى القرن الأول قبل الميلاد.

وقد دلت اللقى الخزفية التي عثر عليها بالموقع على استيطان فينيقي مبكر بليكسوس يرجع تاريخه إلى القرن التاسع والثامن.

الإعداد لمتحف الموسيقار محمد عبدالوهاب

تجـــري الاستـعـدادات لافتتاح متحف في معهد الموسيقى العـربيـة باسم الموسيقار محمد عبدالوهاب يحمل اسـمـه، ويضم مقتنياته.

محمد عبد الوهاب مع نهلة



وصـــرحت السـيـدة نهلة القدسي أرملة الموسيقار الراحل أن المتحف سيضم أندر المقتنيات، التي تشمل غرفة مكتبه التي كان يسميها الصومعة، وتحتوي على فاترينة زجاجية بها عدد من الأوسمة والنياشين التي حصل عليها خلال مشواره الفني الطويل، إضافة إلى بيانو خشبي صغير كان يعزف عليه مقطوعاته الموسيقية حين يخلو إلى نفسه؛ بالإضافة إلى مجموعة كاملة من الصور والخطابات والأوراق المكتوبة بخط يده، وعصا المايسترو التي كانت تصاحبه في أثناء البروفات، وعوده الذي كان لا يفارقه طيلة حياته، ثم كرسيه الهزاز الذي كان يطيب إليه الجلوس عليه حتى لحظة وفاته، إذ توفي وهو جالس عليه.

وعن الألحان التي تركها الموسيقار عبدالوهاب تقول السيدة نهلة: «هي نوت موسيقية لا أجيد قراءتها، وبانتظار لجنة فنية أفضّل أن تكون بقيادة مصطفى ناجي لدراستها واستشارته في إمكان خروجها إلى النور بشكل يليق بمكانة عبدالوهاب بلا أي حذف أو إضافة».

العثور على أول مسلة آشورية

عثر فلاح عراقي كان يقوم بحرث أرضه الزراعية التي تقع بجوار منطقة أثرية محمية في محافظة نينوى، على أول مسلة آشورية من حجر الحلان يرجع تاريخها إلى العهد الآشوري القديم.

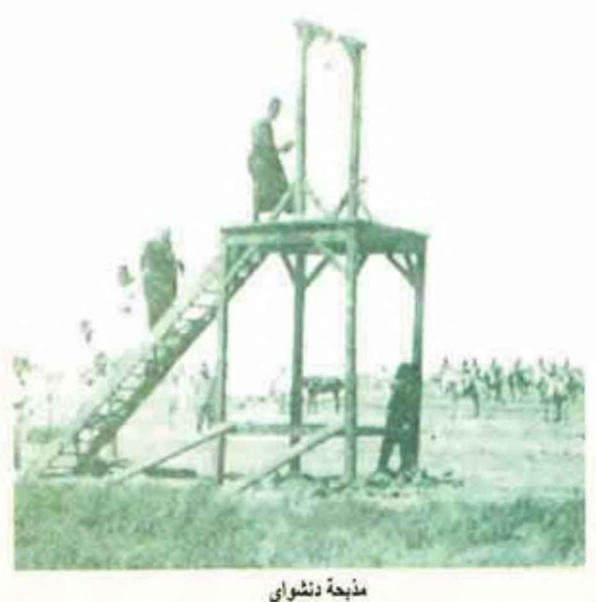
وحضرت بعثة أثرية على أثر إبلاغ الفلاح إلى المكان، وقامت بانتشال المسلة الفريدة التي يبلغ ارتفاعها ١٢٠ سنتيمتراً، وعرضها ٦٠ سنتيمتراً، ونقش على محيطها صورة للملك «سنحاريب»، وكتب عليها ٢٦ سطراً باللغة المسمارية تتحدث عن هذا الملك العراقي وإنجازاته، والقوانين التي سنّها في ذلك العهد.

وتقول مصادر في دوائر الآثار: إن هذه المسلة ستعرض في المتحف العراقي الذي سيفتح أبوابه مطلع العام القادم بعد أن توقف مدة زادت على تسع سنوات.

صور نادرة لمذبحة دنشواي المصرية

نشرت صحيفة الشرق الأوسط في عددها رقم (٧٦٧٣) بتاريخ ١٩٩٩/١٢/١م، صوراً وثائقية نادرة لمذبحة دنشواي المشهورة التي ارتكبت بواسطة المستعمرين الإنجليز عام ١٩٠٦م.

واكتشف هذه الصور الدكتور محمد نبيل موصوف أستاذ التخدير في كلية الطب بجامعة القاهرة، وكان قد حصل عليها من خزانة جده حسن محبوب الذي كان يعمل طبيباً حراً في كفر الزيات، حيث مكنته شهرته ومكانته من التحرك بسهولة، وتصوير هذه الأحداث الفظيعة لحظة وقوعها، وحصلت عليها الصحيفة من حمدي عابدين.



مذبحة دنشواي

وقعت أحداث هذه المذبحة المروعة، الذي راح ضحيتها ستة فلاحين مصريين، في صيف عام ١٩٠٦م في أثناء احتفال الفلاحين بموسم الحصاد، ويبلغ عدد هذه الصور ست صور مساحة كل منها ٤٠×٢٠ سنتيمترا، وترسم هذه الصور صورة حية وناطقة، تسجل بدقة شديدة وقائع هذه المأساة وتفاصيلها التي ارتكبت ضد هؤلاء الأبرياء من دون ذنب جنوه سوى دفاعهم عن أرضهم وكرامتهم.

«النهار» على الإنترنت

أعلنت صحيفة النهار اليومية الصادرة من بيروت إطلاق صفحاتها مجاناً على شبكة الإنترنت مع إمكان البحث باللغة العربية، وتتضمن الخدمة الأخبار السياسية والمحلية والعربية والدولية والمقالات، بالإضافة إلى الأخبار الاقتصادية والرياضية وغيرها.

ويذكر أن شركة صخر لبرامج الحاسب هي التي قامت بتنفيذ الأعمال البرمجية لهذا الموقع. وعنوان صحيفة النهار على الإنترنت هو WWW . annahar. Com.1b.

مؤسسة باسم الريحاني في واشنطن



أمين الريحاني

احتفل مؤخراً في دار السفارة اللبنانية في واشنطن بقيام «مؤسسة أمين الريحاني»، وأعلن في الاحتفال الذي حضره عدد من كبار الشخصيات الأمريكية واللبنانية والعربية، عن المجالس الثلاثة التي تشكل الهيكلية الإدارية والاجتماعية والأكاديمية للمؤسسة، والتي جاءت في ثلاث هيئات هي: المجلس الاستشاري العالمي، برئاسة الأمير طلال بن عبدالعزيز، والهيئة الفخرية، والمجلس الأكاديمي.

وتحدث في الحفل عدد من الشخصيات مشيدين بدور الريحاني بوصفه عميداً ومؤسساً للأدب المهجري في أمريكا الشمالية، كما تحدث أيضاً الأمير طلال بن عبدالعزيز رئيس المجلس الاستشاري العالمي للمؤسسة عن المبادئ التي آمن بها الريحاني ودافع عنها، وتطرق للعلاقة التي كانت تربط بين الريحاني والملك عبدالعزيز - طيب الله ثراه - وتحدث عن الرسائل المتبادلة بين الرجلين اللذين شغلهما مستقبل العرب ونهضتهم القومية والاجتماعية.

وأقيم بهذه المناسبة معرض فني مصور عن حياة الريحاني، كما نشر كتيب عن المؤسسة الجديدة وأهدافها ومجالسها مع سيرة مختصرة عن الريحاني، ومختارات من أقوال الصحافة الأمريكية في إنتاجه الأدبي، كما نشر أيضاً كتابان آخران للدكتور سهل بشروني بعنوان «تحية إلى أمين الريحاني»، وآخر للسيدة مي الريحاني بعنوان «رجل صاحب رؤية».

مشروع لحصر القطع الأثرية في اليمن


من الآثار اليمنية

سجل مشروع حصر القطع الأثرية والمخطوطات وتسجيلها وتوثيقها خلال المرحلة الأولى بسوق الفضة بصنعاء القديمة ٤٦٤ قطعة ومخطوطًا منها ٣٥١ قطعة أثرية ذات مدلول تراثي.. إضافة إلى كم هائل من الفخاريات. وصرح محمد أمين عبدالجبار المدير العام للفروع والرقابة والتفتيش بالهيئة العامة للآثار والمخطوطات والمتاحف لوكالة الأنباء اليمنية «سبأ» أن المرحلة الأولى من المشروع اشتملت على حث المواطنين على المبادرة بتسجيل ما لديهم من قطع أثرية ووجوب الحفاظ عليها وأهمية حمايتها، إضافة إلى القيام بحصر شامل لتجارة سوق الفضة بصنعاء القديمة، ونشر التوعية الأثرية وسط تجار السوق.

وكان فريق العمل في المشروع قد قام بتسجيل القطع الأثرية وحصرها وتوثيقها للراغبين من خلال تعبئة استمارة تسجيل تشتمل على المعلومات كافة، كوصف وتوثيق وترقيم وتصوير وتحديد مكان تواجد القطعة الأثرية واسم مالكها، وغير ذلك من المعلومات المهمة.

مجلدات قديمة لصحيفتي «الثورة والعراق» بصك مفتوح

رفض (المؤرشف) العراقي عبود محمد حسن الفالوجي بيع (أرشيفه) الخاص بصحيفتي «الثورة والعراق» اللتين يحتفظ بمجلدات لهما تعود إلى تاريخ صدورهما.

وكانت السفارة الليبية في بغداد قد عرضت على الفالوجي صكًا مفتوحًا ليحدد المبلغ الذي يقترحه لقاء تسليمه هذه المجلدات، إلا أنه رفض هذا العرض بشدة مؤكدًا أن هذه المجلدات هي ملك للعراقيين، وليس ملكه.

وأوضح الفالوجي أن السفارة الليبية علمت بوجود هذه المجلدات من خلال ما نشر عنها في بعض الصحف والمجلات، ودعوته للباحثين والطلبة للاستفادة من هذا الأرشيف الموجود في منزله، وكان موظفو السفارة الليبية قد قدموا هذا العرض عندما راجعوه لتجليد بعض الصحف والمجلات الخاصة بالسفارة.

بحث عن الذات

تحت عنوان «بحثًا عن الذات عند منعطف قرن مثخن بالأحلام والخيبات»، شارك عدد من الشعراء والنقاد العرب، في ملف مجلة الوسط في عددها رقم (٤٠٩) الصادر بتاريخ ٢٩ نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٩٩م، في الإجابة عن سؤال «هل مات الشعر أم غادر الشعراء؟».


محمود درويش

وكان الشاعر محمود درويش قد طرح هذا السؤال في نص شعري قبل عقدين من الزمان حينما كانت الفورة الثقافية في أوجها،. وأعادت المجلة طرح السؤال مرة أخرى كما يقول بيار أبي صعب: «عند منعطف حاسم يكاد يفصل بين عصرين وعالمين»، فهل تشظى المشهد الشعري أم انحسرت القصيدة في انتظار زمن أفضل؟ وشارك في الإجابة عن هذا السؤال القديم

الجديد عدد كبير من الشعراء والنقاد العرب منهم: محمد الماغوط، وحسن نجمي، وسميح القاسم، وسعدي يوسف، ومحمد عفيفي مطر، وأحمد عبدالمعطي حجازي، وإحسان عباس، وعباس بيضون، وإدوار الخراط، ومحمد القيسي، ومرام المصري، وممدوح عدوان، وبسام حجار، وفخري صالح، وحسن عبدالله، ومريد البرغوثي، وإبراهيم نصرالله، ومحمد إبراهيم أبو سنة، وفادي أبو خليل، وفايز خضور، وعقل العويط، وعناية جابر، وعز الدين المناصرة، وحلمي سالم.

اختيار الفائزين بجوائز «حرية الصحافة العالمية»

اختارت «لجنة حماية الصحافيين» ثلاثة صحافيين من ثلاث دول مختلفة للفوز بجائزة «حرية الصحافة العالمية» لهذا العام، وهم: بانون هاجو، رئيس تحرير صحيفة «كوها ديتوري» المستقلة في كوسوفو، وناشر صحيفة «ذي فرايدي تايمز» الباكستانية جوغنو محسن، ورئيس تحريرها نجم سيتي، ثم ماريا كريستينا كاباليرو، الصحافية في مجلة «سيمانا» الكولومبية.

وحيّا رئيس اللجنة الفائزين بقوله: «إن هذه الجوائز ليست فقط لتكريم هؤلاء الصحافيين الشجعان الذين واجهوا السجن والاعتداءات الجسدية حتى الموت، وإنما لأنهم، ببساطة، قاموا بواجبهم..».

وفاة الصحافي اللبناني فاضل سعيد عقل

توفي بلبنان في التاسع من نوفمبر / تشرين الثاني الماضي بعد صراع مرير مع المرض فاضل سعيد عقل أحد رواد الصحافة اللبنانية عن عمر ناهز ٨٤ عاماً.

ولد عقل في الدامور عام ١٩١٥م، وشنق أحمد باشا الجزار والده وهو في عامه الأول، واحترف الصحافة عام ١٩٣٦م، وأصدر عدداً من المطبوعات منها «الشعلة»، كما ساهم في أخرى منها، «البيرق» و«الهدى»، و«النيويوركية»، وامتدت مساهماته لتشمل الإذاعة والتلفاز.

سجن عدة مرات دفاعاً عن رأيه، وساهم في تأسيس نقابة محرري الصحافة اللبنانية، وجمعية أهل القلم، وتولى منصب نائب نقيب الصحافة، وحاز عدداً من الأوسمة.

وقد نعاه في بيان مشترك نقيبا الصحافة والمحررين محمد البعلبكي وملحم كرم مشيدين «بمعرفته ودعواته إلى السلام والاستقرار والحوار، والتفاهم بين اللبنانيين».

مانديلا للمبتدئين



غلاف الكتاب

هذا عنوان كتاب يحكي حياة المناضل الإفريقي نلسون مانديلا من تأليف توني بنتشك، قصد المؤلف إلى أن يكون الكتاب على غرار قصص الناشئين المسلسلة حيث تؤدي الصورة دوراً كبيراً.

صاغ المؤلف أحداث الكتاب في شكل حواري يحكي خلاله حياة رجل إفريقية السوداء الحديثة الذي ناضل من أجل حرية بلاده حتى نالها.

«العالميون» تحتفل بمرور ١٧٠ عاما على صدورها

احتفل المسؤولون في مجلة «العالميون» الشهرية، أقدم المجلات الفرنسية، بمرور ١٧٠ عاماً على صدورها.

وصدر بهذه المناسبة عدد خاص شارك في كتابته ٥١ صحفياً فرنسياً وأجنبياً، وقد خصص هذا العدد لموضوع «المتعصبون الجدد في الآراء» تعرضوا فيه

للتعصب السياسي، وحتى التعصب في الحياة اليومية، والمعروف عن هذه المجلة أنها تربط قارة أوربا بالقارة الأمريكية من الناحية الأدبية والسياسية.

الروائي الألماني ستادلر يفوز بجائزة بوشنر

حصل الروائي الألماني أرنولد ستادلر على جائزة جورج بوشنر لعام ١٩٩٩م، وهي من أهم الجوائز الأدبية الألمانية، وتبلغ قيمتها ٣٠ ألف يورو.

ويبلغ ستادلر من العمر ٤٥ عاماً، وهو مؤلف روايات «كنت يوماً»، و«أرض النار»، و«كلبي والخنزير»، و«حياتي».

العثور على إحدى لوحات الرسام الفرنسي جوجان

عثر موخراً على إحدى لوحات الرسام الفرنسي الراحل بول جوجان، ويقدر سعر هذه اللوحة التي يرجع تاريخها إلى عام ١٨٩٦م، بنحو ١٠٠ ألف فرنك فرنسي.

وتصورهذه اللوحة التي عثر عليها في أحد الصناديق بالقرب من مدينة «بايو» الفرنسية، سيدة من هايتي ذات عيون ناعسة، وبجانبها فتاة صغيرة تأكل فاكهة المانجو.

والمعروف أن الفنان الفرنسي بول جوجان ولد في عام ١٨٤٨م، وتوفي عام ١٩٠٣م وهو ينتمي إلى المدرسة التعبيرية في الفن، وله بعض اللوحات الرمزية.

لوحات مونيه في المزاد

كلود مونيه

بيعت مؤخراً في دار كريستيز النيويوركية لوحة من سلسلة «نيمفياس» للرسام كلود مونيه بأكثر من ٢٢ مليون دولار، وكانت هذه اللوحة ذات الزرقة الشديدة قد قام برسمها معلم الانطباعية مونيه في جيفرني بالقرب من باريس عام ١٩٠٦م.

وفي الدار نفسها بيعت لوحة «جسر ترينكوتاي» للرسام فينسان فان جوخ التي رسمها عام ١٨٨٨م بأكثر من ١٥ مليون دولار.

وتعود هذه اللوحة لمجموعة يملكها الملياردير أكرم عجّة المتوفى عام ١٩٩١م، وكان قد قدر ثمنها بنحو ٢٠ مليون دولار.


مارك شاجال

سرقة وقتل في تمثال

للمرة الثانية يختتم معرض الفن الدولي Art Colone بسرقة فنية كبيرة ومحيرة، وكان المسروق هذه المرة تمثالاً شهيراً للفنان العالمي مارك شاجال، يبلغ طوله ٢٢٫٥سم، وارتفاعه ١٨٫٥سم صنعه الفنان شاجال بنسخة واحدة عام ١٩٥٢م، وقدر ثمنه بـ ٢٠٠ ألف دولار.

وتمت السرقة بصورة غريبة ومثيرة، حيث استطاع اللصوص انتزاع التمثال عن منصته وتركوا مكانه بطاقة كتبوا عليها «سرق من معرض كولون الدولي للفن عام ١٩٩٩م»، وكان المعرض قد تعرض في العام الماضي لسرقة لوحة للفنان الألماني أميل نولوه قدرت قيمتها بربع مليون مارك ألماني.

ويأمل رجال الأمن في العثورعلى التمثال مؤكدين عدم مقدرة اللصوص على أخذه خارج المعرض بسبب صعوبة تمريره على الحراس الذين كانوا يفتشون جميع المغادرين، كما يأملون أيضاً تعرف اللصوص من خلال كاميرات الفيديو التي كانت تراقب مداخل قاعات العرض ومخارجها.

وكان المعرض الذي اختتم بسرقة تمثال قد افتتح بجريمة قتل داخل تمثال، وهي رواية جديدة وزعت في

يوم افتتاح المعرض، وتتحدث عن لغز جثة امرأة اكتشفتها كلاب الشرطة داخل تمثال عرض في المعرض.

«رونا» يفوز في مسابقة لفن الباليه

شهدت العاصمة مدغشقر مؤخراً لقاءات أجفف الثالثة لفن الباليه، وحصل الباليه الإفريقي «رونا» لمصممه نتسيكولولو سكيوانا من جنوب إفريقية على الجائزة الأولى لفن الباليه.

كما حصل باليه «بدون علامات» لمصممة الرقصات بياتريسي كومبيه من ساحل العاج على الجائزة الثانية.

وكانت أول مسابقة للباليه الإفريقي قد أقيمت عام ١٩٩٥م، ثم صارت تقام بعد ذلك كل عامين، وتقوم بتمويلها فرقة إفريقية للإبداعات بالاشتراك مع الاتحاد الأوربي وفرنسا.

مسرحيات شكسبير في حمام أثري


وليام شكسبير

اختارت فرقة بوغ ستاندارد المسرحية البريطانية التي تقدم أعمال الكاتب الإنجليزي وليام شكسبير، مكاناً غريباً لتقديم عروضها للرواد، إذ اختارت لذلك حماماً أثرياً من العصر الفيكتوري يقع في بلدة مالفيرن غرب إنجلترا، وأنفقت عليه، على مدى ثلاث سنوات، نحو ٤٠٠٠ جنيه استرليني لتحويله إلى مسرح صغير.

وقد سوّغ المتحدث باسم الفرقة هذا التصرف بقوله: إن شكسبير قال: إن «الدنيا مسرح كبير»، واعتقد أن هذا الوضع ينسحب على الحمامات أيضاً.

ومن المفارقات أن هذا المسرح العجيب لن تكون به حمامات.

فرقة موسيقية تتسول بالعزف

اضطرت فرقة أوركسترا روسيا الفلهارموني إلى عزف موسيقى برامز مقابل أموال خارج مطعم بريطاني للوجبات السريعة بعد أن نفدت أموالها. وقال المايسترو بوجسلو دايدو لصحيفة «تايمز»: «نعلم أن أموالنا شحيحة منذ بداية الجولة، لكن لم يتخيل أحد أبداً أن تصل الأمور إلى هذا الحال»، وأضاف: «كان أمامنا خيار إمّا العودة إلى روسيا في السيارات التي أتينا فيها، وإمّا جمع المال بالعزف في الشوارع».

وأضافت الصحيفة في مقالة افتتاحية: إن الفرقة الأوركسترالية التي أسست عام ١٨٧٩م نجحت في جمع ٢٠ جنيهاً أسترلينياً «٢٢ دولاراً» خارج مطعم في بلدة سوانزي الساحلية، وكانت مبيعات التذاكر ضئيلة خلال جولة الفرقة في بريطانيا، ويعيش ٨٦ عازفاً على الخبز والجبن، بينما ينام كل عشرة عازفين في غرفة واحدة في الفندق.

«أمازون» تقاضي «بارنز»

رفعت أمازون WWW. Amazon. Com التي تعد من أكبر المواقع التي اشتهرت ببيع الكتب الإلكترونية على الانترنت قضية على منافستها مكتبة «بارنز أند نوبل» WWW. Barnez and noble. Com، بحجة أنها تستخدم الخدمة التي اشتهرت بها أمازون «نقرة واحدة» One CLICK وهي خدمة تسهل عملية الشراء عبر الإنترنت، وطالبت أمازون من نوبل التوقف فوراً عن استخدام هذه التقنية.

ولكن متحدثاً باسم شركة نوبل دافع أن تقنية أمازون هي طريقة توفر على المستخدم وقته، فلا يقوم بإدخال معلوماته في كل مرة يريد فيها الشراء، حيث تتمثل تقنية أمازون في اختزان هذه المعلومات في قاعدة للبيانات، وأضاف أن كل مخزن إلكتروني يوفر مثل هذه الخدمة لزبائنه بشكل أو بآخر.

الإنترنت تقلق بلير

قال توني بلير رئيس وزراء بريطانيا في حديث على شبكة المعلومات الدولية «الإنترنت»: إنه يشعر بالقلق كلما فكر فيما يجده أولاده الثلاثة على الإنترنت، ومع ذلك ذكر توني بلير أن المشكلة في نهاية المطاف ليست مشكلة الآباء فقط، بل هي أيضاً مشكلة الحكومة، موضحاً أن حكومته تفعل ما في وسعها في هذا الشأن «بيد أن الأمر يتعلق بالآباء أيضاً».

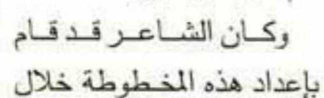
توني بلير

ظهور مخطوطة للوركا واختفاء كتابه «أغنيات»



لوركا

اهتمت الأوساط الثقافية في إسبانيا بظهور مخطوطة للشاعر الإسباني فدريكو جارثيا لوركا بعنوان «شاعر في نيويورك»، بعد ضياع دام أكثر من ستين عاماً.



وكان الشاعر قد قام بإعداد هذه المخطوطة خلال الفترة من عام ١٩٢٩م حتى عام ١٩٣٠م عندما كان يدرس في الولايات المتحدة، وعهد بها في صيف عام ١٩٣٦م إلى صديقه الكاتب الإسباني خوسيه بيرغامين (١٨٩٥ ـ ١٩٨٣م) رئيس تحرير مجلة «كروث اي رايا».

وتحتوي المخطوطة على ٣٢ قصيدة، وهي في قسمين: القسم الأول مطبوع بالآلة الكاتبة، والثاني بخط لوركا مع تصحيحات بقلم الرصاص أو الحبر الأسود من قبل الشاعر نفسه أحياناً ومن قبل آخرين في بعض الأحيان، ويرى بعضهم أن ظهور هذه المخطوطة الأصلية لهذا الديوان سيفتح آفاقاً جديدة في علم «اللوركيات» لأهمية هذا الكتاب في تاريخ الشعر الإسباني المعاصر، ويرى الناقد بينجامين برادو أن ديوان «شاعر في نيويورك» هو أفضل كتاب شعري في اللغة الإسبانية خلال قرن من الزمان.

وفي الوقت الذي استبشر محبو الأديب لوركا بالعثور على هذا المخطوط النادر، تمكن لصوص مجهولون من سرقة أقدم نسخة مطبوعة من كتابه المعروف باسم «أغنيات» من معرض أقامه الطلاب في مدريد احتفالاً بذكرى أميليو برادوس (١٨٩٩ ـ ١٩٦٢م)، أحد أدباء جيل الـ ٢٧ في إسبانيا.

وكان لوركا قد كتبه بين أعوام ١٩٢١م و ١٩٢٤م وطبعه عام١٩٢٧م، وقدرت قيمته بـ ٤٠٠ ألف بيزته أي نحو ثلاثة آلاف دولار.

والمعروف أن فدريكو جارثيا لوركا شاعر ومؤلف درامي إسباني ولد في عام ١٨٩٩م، وأعدم عام ١٩٣٦م إبان الحرب الأهلية الإسبانية على أيدي أنصار الجنرال فرانكو.

الكونتيسة دي سيجور وتجسيدها للشخصيات

كان هذا هو عنوان إحدى المطبوعات التي نشرت مؤخراً والتي تتحدث عن تفاصيل حياة الكاتبة الفرنسية الشهيرة لاكونتيس دي سيجور بمناسبة مرور مئتي عام على مولدها.

ولدت صوفي روستوبشين، وهذا هو اسمها الحقيقي ولاكونتيس هو اسم الشهرة، عام ١٧٩٩م في سانت بترسبورج وتوفيت في باريس عام ١٨٧٤م.

قدمت الكاتبة الراحلة عدداً من الأعمال الخاصة بالشباب بينها «الفتيات الصغيرات النموذج» عام ١٨٥٨م، و«أحزان صوفي» عام ١٨٦٤م، و«الجنرال دوراكين» عام ١٨٦٦م.

وفاة الروائي الأمريكي بول بولز بالمغرب

بول بولز

توفي بمدينة طنجة المغربية في١٨ نوفمبر/تشرين الثاني الروائي والقاص الأمريكي المغترب في المغرب «بول بولز» عن عمر شارف التسعين عاماً.

وكان الروائي الأمريكي المولود في أواخر عام ١٩١٠م في لونغ ريلاند بضواحي نيويورك قد زار طنجة في صيف عام ١٩٣١م بغرض السياحة والاستجمام، ولكن تلك الزيارة تطورت إلى استقرار دائم امتد حتى وفاته، إلا من بعض الرحلات هنا وهناك للعلاج، أو لإجراء اللقاءات التلفازية، أو لإبرام الاتفاقات مع دور النشر التي كانت تتلهف دوماً لإصدار أي عمل لبولز.

ألّف بولز عدداً من الروايات والقصص القصيرة منها: «السماء الواقية» عام ١٩٤٩م، و«دعه يسقط» عام ١٩٥٥م، و«بيت العنكبوت» عام ١٩٦٢م، كما أنه سجل عدداً من الروايات الشفهية لبعض الكتاب المغاربة وترجمها مثل أحمد اليعقوبي قصة «الرجل الذي حلم بالسمك يأكل السمك»، وللعربي العياش «الطريق إلى تاسميسيت»، و«حياة مليئة بالثقوب»، ولمحمد المرابط «حب ببضع شعيرات».

وتوالت مساهماته فقام بتسجيل الموسيقى الفلكلورية المغربية بطلب من مكتبة الكونجرس، وقد ظهرت هذه الموسيقى مسجلة في اسطوانات عام ١٩٧٢م.

جين أوستن في معرض المكتبة القومية البريطانية


جين أوستن

تعتزم إدارة المكتبة القومية البريطانية عرض مكتب الأديبة البريطانية الراحلة جين أوستن ضمن المعرض الكبير الذي تزمع المكتبة إقامته تحت عنوان «فصول وأشعار ألف عام من الفنون والأدب»، ضمن الاحتفالات بالألفية الثالثة في مارس / آذار المقبل.

وكانت إحدى قريبات الأديبة الراحلة جين أوستن قد أهدت هذا المكتب إلى المكتبة القومية، وهو المكتب الذي اعتادت الأديبة الجلوس عليه، واستذكار دروسها، وظل بحوزتها على مدى أربعين عاماً إبان إقامتها في الولايات المتحدة.

ولدت جين أوستن عام ١٧٧٥م في أسرة كبيرة العدد، وذاقت مرارة اليتم في عمر مبكر؛ إذ فقدت والدها وهي في سن صغيرة مما اضطرها إلى احتراف الكتابة في سن مبكرة لتعول أسرتها، وتربي أشقاءها الصغار.

وقد حظيت أعمالها الروائية الأولى بنجاح كبير، ومن أبرز رواياتها التي أهلتها لتحتل مكانة أدبية متميزة في دنيا الأدب والرواية الحديثة روايتا «حب وكبرياء» عام ١٨١٣م، و«حب وصداقة» عام ١٨١١م.

رحيل دانيال إيفرنيل


صامونيل بيكيت

فقدت فرنسا مؤخراً الممثل الكوميدي المسرحي دانيال إيفرنيل، عن عمر يناهز ٧٩ عاماً، وهو عضو في فرقة «جان فيلار» المسرحية الشعبية.

ولد دانيال عام ١٩٢٠م، وبدأ أول أدواره المسرحية في عام ١٩٤٣م في مسرحية رحلة تيزيه للكاتب المسرحي جورج نوفو، انضم بعدها إلى فرقة الكوميدي فرانسيز عام ١٩٤٦م، وأدّى عدداً من الأدوار المسرحية لأشهر الكتّاب من أمثال جان أنوي، وبيكيت، ويونسكو، والبيركامي.

رواية عبر الإنترنت لتسويق المواد الغذائية


صفحة إحدى شبكات الإنترنت كما تبدو على شاشة الكمبيوتر

عندما بدأت شبكة الإنترنت تدخل مجال الإبداع الفني، ظهر تياران مختلفان بخصوص تأثيرها في الإبداع الفردي، فقال أحدهما: إنها ستقضي عليه، وتقطع بذلك التواصل بين الروائيين وقرائهم عبر دور النشر، ويرى التيار الآخر غير ذلك.

وبحكم حداثة التجربة فلن نستطيع اليوم أن نصل إلى حكم قاطع إزاء تأثير الإنترنت الحقيقي في عملية الإبداع، وأثر ذلك في المبدع، ومع ذلك فإن عدداً من التجارب حصلت في هذا المجال.

من هذه التجارب، تجربة فرنسية طريفة قامت بها شركة متخصصة في تسويق المواد الغذائية عبر الإنترنت تدعى فرانس لوازير، وقد تعودت هذه الشركة تنظيم مسابقات في القصة القصيرة لزبائنها الذين يشترون منتجاتها عبر الإنترنت، وقرر القائمون على أمر المسابقة تطويرها؛ وذلك بتنظيم مسابقة في العمل الروائي الطويل شريطة أن يكون العمل جماعياً حيث يتولى أحد الملمين بفن الكتابة صياغة الفصل الأول، ثم يتولى الزبائن وغير الزبائن كتابة الفصول الأخرى.

كان المتسابقون قد اطلعوا على الفصل الأول عبر الشبكة، ثم منحوا مهلة لصياغة الفصل الثاني، وإرساله عبر البريد الإلكتروني إلى اللجنة التي ستختار أفضل نص، إذ تتم عملية الاختيار بعد مناقشات ومداولات عبر الإنترنت، وكلما أضيف فصل اشتدت المنافسة بين المشاركين، وقد حددت فصول الرواية بسبعة فصول.

والطريف في الأمر أن هذه الرواية الإنترنتية التي تعد الأولى من نوعها في فرنسا قد صدرت ورقياً، وبيع منها نحو خمسين ألف نسخة، وكان عنوانها «ثلاثون يوماً للقتل».

كبسولة للعرض عام ٣٠٠٠

صمم المهندس الإسباني سانتاجيو كالاترافا كبسولة من الفولاذ على شكل زهرة ستحتوي على حاجيات من اختيار سكان مدينة فاونتين الأميركية الصغيرة في كولورادو «وسط غرب»، ومدينة برازيلية، ومدينة مانت لاجولي الفرنسية.

وكانت صحيفة نيويورك تايمز، التي أوردت النبأ، قد أطلقت عليها «كبسولة الزمن» وقالت إنه سيتم وضعها في متحف التاريخ الطبيعي في نيويورك على أن يتم فتحها بعد ألف سنة لتعريف الأجيال المقبلة بالحاجيات التي كانت مستخدمة في عصرنا الحالي.

وجاء اختيار أصحاب هذه المدن مختلفاً، إذ اختار الأمريكيون لتمثيلهم خاتم زواج، وريموت كونترول، وقلم رصاص وألعاباً عدة بينها شاشة نتندو.

واختار الفرنسيون رغيف الخبز الفرنسي «باغيت»، ونسخة من كتاب «الأمير الصغير» لانطوان دوسانت اكزوبيري، ونسخة من محضر مخالفة بحق سيارة توقفت في مكان ممنوع، وأسطوانات لاديث بياف، وجاك بريل، بينما اختار البرازيليون أسطوانة لموسيقى السامبا، وكتاباً يحتوي على وصفات من المطبخ البرازيلي.



باروت، محمد جمال/ حركة القوميين العرب: النشأة ـ التطور ـ المصائر.- دمشق: المركز العربي للدراسات الإستراتيجية، ١٩٩٧م.

لا يعد هذا الكتاب دراسة تاريخية لحركة القوميين العرب، وإن تضمن مقاربة تاريخية؛ لأن الهدف منه الحوار مع المستقبل قبل أن يكون مساءلة للماضي، كما يقول علي ناصر محمد في المقدمة الأولى لهذا الكتاب، ويضيف أن الكتاب اعتمد على مادة وثائقية واسعة، ومقابلات شخصية متعددة، راصداً حركة القوميين العرب في الأقطار العربية المختلفة، ومتلمساً أسباب صعودها في زمن، وأسباب انطفائها في زمن لاحق، ثم أوضح الأسباب التي دعت إلى إصدار هذا الكتاب.

ورأى المؤلف ـ في المقدمة الثانية ـ أن حركة القوميين العرب تمثل أضخم ظاهرة «منجزة» و«مكتملة» في التاريخ السياسي العربي الحديث في النصف الثاني من القرن العشرين، ثم أوضح الطريقة التي اتبعها في إخراج هذه الدراسة، وكيفية تغلبه على العقبات التي واجهته والمتمثلة في شح الوثائق، ومعرفة القيادات الحركية للحركة التي استقى منها معلوماته.



السامرائي، إبراهيم/ في الصناعة المعجمية.- عمّان: دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ٧٠٨ص.

يرى المؤلف أن المتصدي للتصنيف المعجمي لابد أن يكون مؤهلاً لهذا العمل، فتحقيق المعجم «يفرض على صاحبه أن يكون له صحبة طويلة بالمعجمات يعود فيها إلى ما استوعبه أيام الطلب من علوم العربية نحواً وصرفاً ولغة وعلوم بلاغة وأدباً وتاريخاً وسائر المعارف الحضارية».

الكتاب يمثل نقداً دقيقاً واستقراءً لعدد من المعاجم والموسوعات التي صدرت في أوقات متفاوتة، شملت هذه المصنفات: «مجمل اللغة» لأبي الحسين أحمد بن فارس، و«الغريب المصنف» لأبي عبيد القاسم بن سلاّم، و«الموسوعة العربية في الألفاظ الضدية والشذرات اللغوية» لمحمد بن محمد السماوي اليماني، و«التوقيف على مهمات التعاريف» لمحمد عبدالرؤوف المناوي، وكتاب «أمثال الحديث»، و«الشامل» معجم في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها، و«معجم الإعراب والإملاء»، و«قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية»، و«المعجم الأدبي» لجبّور عبدالنور، و«معجم التراكيب والعبارات الاصطلاحية العربية القديم منها والمولّد»، و«قاموس المصطلحات والتعابير الشعبية»: معجم لهجي تأصيلي فولكلوري، و«معجم المصطلحات العلمية العربية: للكندي والفارابي، والخوارزمي وابن سينا والغزالي»، و«موسوعة النحو والصرف والإعراب»، و«معجم الأخطاء الشائعة»، و«المعجم العربي الأساسي للناطقين بالعربية ومتعلميها»، و«معجم أسماء العرب: موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب».

أورد الكاتب العناصر الضرورية التي تفتقر إليها هذه المصنفات، وأوجزها في افتقارها إلى نمط من الاستقراء يوحي بقسط يسير من القناعة، واعتماد مؤلفيها على معجمات اللغة، ثم إنهم يشتركون في الإشارة إلى مواد يكررها كل منهم، فجاء أكثر مادة هذه الكتب مكروراً معاداً.

القحطاني، سلطان بن سعد/ الرواية في المملكة العربية السعودية، نشأتها وتطورها.- الرياض: شركة الصفحات الذهبية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ٢٩٥ص.

ترمي الدراسة إلى استخلاص شخصية حقيقية للرواية السعودية التي وجدت تجاهلاً من الباحثين والدارسين السعوديين وغير السعوديين؛ لأن هذه البلاد بلاد شعر موروث لم تصل إلى درجة الإبداع الروائي حتى أصبحت هذه المقولة من المسلمات، وتعدّ هذه الدراسة أيضاً تاريخاً ونقداً للرواية السعودية في مرحلة النشأة، ثم مرحلة التطور، وما صاحب ذلك من العقبات خلال أكثر من ستين عاماً (١٩٣٠ ـ ١٩٨٩م).

تقع الدراسة في مقدمة وستة فصول وخاتمة، تناول فصلها الأول دور الصحافة في ظهور الرواية في المملكة العربية السعودية، وتعرض الفصل الثاني للعوامل التي ساعدت على ظهور الرواية «التعليم والصحافة والطباعة...إلخ». وغطى الفصل الثالث أعمال الرواد السعوديين في مجال الرواية التعليمية، وجاء الفصل الرابع عن مدخل الرواية الفنية، وتناول الفصل الخامس ظهورها وروادها، وغطى الفصل الأخير الرواية في مرحلة الثمانينيات.

وفي الختام أورد الكاتب قائمة بالملاحق شملت ملاحق بالمراجع العربية والأجنبية والترجمة والدوريات العربية، والإنجليزية، والمجلات والمقابلات الشخصية، والرسائل الجامعية غير المنشورة.

كامبار، تشاندرا سيخار/ سيري ساميبيجي، ترجمة: مصطفى يوسف منصور. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أغسطس ١٩٩٩م، ١٢٧ص.



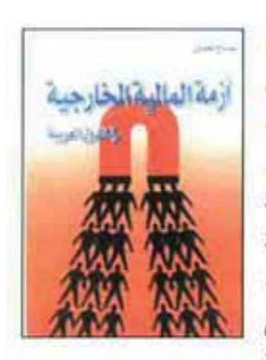
صدر الكتاب ضمن سلسلة «إبداعات عالمية» التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، وهذا هو الكتاب رقم ٣١٩.

يصف المترجم هذه المسرحية سيري ساميبيجي بأنها مثال تتجلى فيه سمات المسرح الهندي المعاصر، ويضيف أنها تراجيديا انشطار الذات، والفصل بين المادي والروحي والجسد والعقل، نسجها المؤلف من حكاية شعبية مستوحاة من التراث الشعبي الهندي الذي اشتهر بمثل هذه الحكايات، وبغيرها من الأساطير والخرافات.

عالج المؤلف المادة التراثية في ضوء العصر «ليقدم خطاباً مسرحياً متعدد الدلالات والمستويات التي ترتبط بالإنسان الهندي بوجه خاص، والإنسانية بوجه عام. إنه خطاب فلسفي نفسي واجتماعي سياسي من خلال لغة شعرية إيحائية ملأى بالرموز والإشارات والاستعارات».

يرجع المترجم تاريخ المسرح الهندي إلى ما قبل الميلاد بخمسمئة عام، ويعزو عدم انتشار الأعمال المسرحية الهندية المعاصرة، على كثرتها، إلى صياغتها باللغات المحلية التي تكثر في الهند، مثل: اللغة الهندية والماراتية والكانادية والجوجارتية والبنغالية.

أمن الخليج في القرن الحادي والعشرين/ مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية - أبو ظبي، ١٩٩٨م، ٤٢٩ص.



يناقش الكتاب القضايا الملحة التي تواجه منطقة الخليج العربي، والمتمثلة في التهديدات العسكرية، والعقبات التي تعيق التنمية الاقتصادية، والتحديات التي تهدد الاستقرار السياسي، وقد تناوب في تناول هذه القضايا خبراء مختصون من منطقة الخليج ودول أخرى.

يناقش الكتاب أيضاً سياسة إيران الخارجية تجاه جاراتها الخليجيات، ويتناول تهديدات العراق العسكرية، والخيارات المتاحة أمام السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، والعقبات التي تواجه هذه السياسة، كما يتعرض لمسألة عدم قدرة أوربا على انتهاج سياسة موحدة تحمي بها مصالحها في منطقة الخليج العربي.

كذلك تعرض الكتاب للسياسة الروسية في منطقة الخليج وآسيا الوسطى، والأخطار المحتمل تفجرها، كما أوضح الأسباب التي تحول دون حل النزاعات الحدودية في منطقة الخليج والمناطق التي تحيط بها.

واختتم الكتاب بمناقشة مشكلة اعتماد دول الخليج العربي على العمالة الأجنبية، والضغوط الديموغرافية التي صاحبت الازدهار الاقتصادي، وتعرض للتحديات التي تواجه السياسة العامة التي تنتهجها هذه الدول في حل هذه المشكلات.

يقع الكتاب في مقدمة واثني عشر فصلاً مقسمة على أربعة أجزاء:

ناقش الجزء الأول «أمن الخليج والتهديدات الإقليمية»، والثاني «أمن الخليج ومصالح القوى الكبرى»، والثالث «أمن الخليج والشؤون الإقليمية»، والرابع والأخير «العوامل الداخلية التي تتحكم في أمن الخليج».

وفي آخر الكتاب سير ذاتية لكل المؤلفين المشاركين في تأليف الكتاب، ثم الهوامش، وأخيراً ثبت بالمراجع.

دعم الكتاب مقالاتهم بالخرائط والجداول والأشكال.

نعوش، صباح/ أزمة المالية الخارجية في الدول العربية. دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، ١٩٩٨م.

يتعرض الكتاب للأزمة المالية الراهنة من الزاوية الاقتصادية المتمثلة في هبوط معدلات النمو، وارتفاع البطالة، وتدهور مستوى المعيشة، ثم تحدث عن المقاطعة الدولية التي يتعرض لها العراق، وليبيا، والسودان، ويرى أنها لا تتناسب مع الأسباب التي أدت إلى اتخاذها، وأنها لن ترفع مع زوال أسبابها، كما ناقش انعكاس ذلك على الوضع الاقتصادي لهذه البلدان، وانعكاس ذلك على شعوبها.

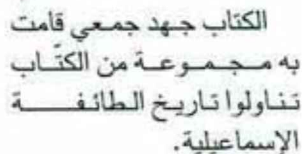
تحدث الكتاب أيضاً عن الديون الخارجية للدول العربية، وأوضح أنها وصلت رقماً يعادل نصف الناتج المحلي الإجمالي العربي، واستثنى من ذلك دول مجلس التعاون الخليجي التي ساعدتها ظروف جغرافية، هي وفرة النفط.

يرى الكاتب أن الديون الخارجية أصبحت من الأسباب الأساسية للتخلف الاقتصادي، وتردي الأوضاع الاجتماعية، واستفحال البطالة، بل إنها جعلت بعض الدول تقدم تنازلات سياسية وتسهيلات عسكرية للدول الدائنة بغية إلغاء جزء من الدين، وهو أمر ينعكس على حرية اتخاذ القرار في ميادين كثيرة داخلية وخارجية.

عزا الكاتب كل هذه المشكلات إلى ضعف التعاون العربي البيني، وعجز المنظمات الاقتصادية العربية المتخصصة عن تحريك الأنشطة المالية والاقتصادية، وضعف الاستثمارات العربية البينية لكثرة المشكلات السياسية والنقدية والبنوية، وحتى المساعدات الممنوحة للأقطار العربية والبلدان النامية لم تعد ترتكز على الحاجة الفعلية لهذه الدول، بل على أمور سياسية ضيقة.

ونتيجة لهذا التخبط بدأت الاستعدادات لنظام إقليمي جديد تقترحه الولايات المتحدة، وتطغى عليه مصالح إسرائيل.

تناول الكاتب كل ذلك في ثلاثة فصول هي: المقاطعة، والديون الخارجية، والتعاون.



دفتري، فرهاد/ الإسماعيليون في العصر الوسيط: تاريخهم وفكرهم.- دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، ١٩٩٩م.

الكتاب جهد جمعي قامت به مجموعة من الكتاب تناولوا تاريخ الطائفة الإسماعيلية.

يغطي الكتاب موضوعات لها علاقة بفترة ما قبل الفاطميين، ثم الفترة الفاطمية والنزارية من تاريخ الإسماعيليين، ويتعرض للعلاقة بين قرامطة البحرين والفاطميين، والعقيدة الكوزمولوجية الأقدم للإسماعيليين، كذلك يتحدث عن التراث العلمي وتطور الفقه في ظل الفاطميين، وأصول الحركة الإسماعيلية النزارية، ومنظور سلجوقي إلى النزاريين الأوائل، كما يلقي نظرة جديدة على الانتماءات الدينية لنصير الدين الطوسي، وتراث الجنان عند الإسماعيليين الهنود النوجا.

عالم الكتب

(مج ٢١، ع١، رجب - شعبان ١٤٢٠هـ/ أكتوبر - نوفمبر ١٩٩٩م). مجلة محكمة متخصصة في الكتاب وقضاياه تصدر عن دار ثقيف للنشر والتأليف. أسست عام ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

احتوى العدد على كثير من الموضوعات ذات المضمون التحليلي النقدي في إطار تخصص المجلة، ففي باب دراسات تناولت الدكتورة خيرية إبراهيم السقاف موضوع «دلالات المكان في النص الروائي عند الروائية في المملكة العربية السعودية»، وناقش الدكتور عبدالمقصود محمد عبدالمقصود منهج أبي البركات الأنباري في إعراب القرآن في كتابه «البيان في غريب إعراب القرآن»، وتناول الدكتور عبدالله علي ثقفان «شعر الجهاد في بلاد الأندلس: محاولة لاستقراء بعض المصادر والمراجع».

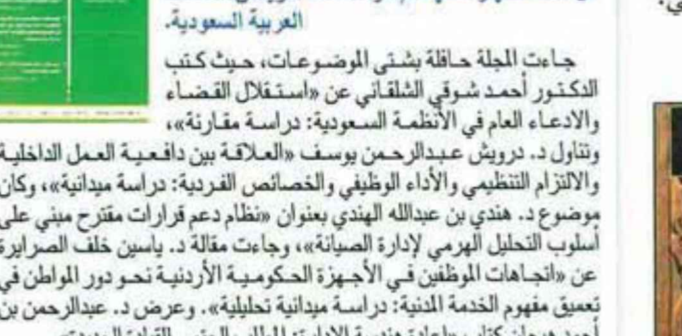
وفي مجال المراجعات قدم الدكتور عبدالمجيد الإسداوي مراجعة لكتاب « شرح ومعاني جزء عم» لمصنفه محمد محمد عتريس، وقدم الدكتور عبدالرحمن بن عبدالله الشقير عرضاً لكتاب «فصول ببليوغرافية في تاريخ الحروب الصليبية» لمؤلفه محمد مؤنس عوض، وراجع الدكتور محمد خير البقاعي كتاب الزهرة لمحمد بن داود الأصبهاني.

وختمت المجلة بوصف ببليوجرافي لعدد من الكتب التي صدرت حديثاً.



الإدارة العامة

(مج ٣٩، ع٣، رجب ١٤٢٠هـ/ أكتوبر ١٩٩٩م) دورية علمية متخصصة ومحكمة يصدرها كل ثلاثة أشهر معهد الإدارة العامة الرياض. المملكة العربية السعودية.



جاءت المجلة حافلة بشتى الموضوعات، حيث كتب الدكتور أحمد شوقي الشلقاني عن «استقلال القضاء والادعاء العام في الأنظمة السعودية: دراسة مقارنة»، وتناول د. درويش عبدالرحمن يوسف «العلاقة بين دافعية العمل الداخلية والالتزام التنظيمي والأداء الوظيفي والخصائص الفردية: دراسة ميدانية»، وكان موضوع د. هندي بن عبدالله الهندي بعنوان «نظام دعم قرارات مقترح مبني على أسلوب التحليل الهرمي لإدارة الصيانة»، وجاءت مقالة د. ياسين خلف الصرايرة عن «اتجاهات الموظفين في الأجهزة الحكومية الأردنية نحو دور المواطن في تعميق مفهوم الخدمة المدنية: دراسة ميدانية تحليلية». وعرض د. عبدالرحمن بن أحمد هيجان كتاب «إعادة هندسة الإدارة: المطلب الحتمي للقيادة الجديدة».



آفاق تربوية

(العدد الخامس عشر. يونيو ١٩٩٩م) مجلة نصف سنوية محكمة. تصدر عن التوجيه التربوي بدولة قطر. وتعنى بالتربية والتعليم، والتعليم العالي.

اشتمل العدد الأخير على كثير من الموضوعات التربوية، فجاء ملف العدد عن موضوع «التعليم والتعلم: آفاق جديدة»، متضمناً المقالات التالية: مراكز مصادر التعلم وتفريد التعليم، وتطور تعليم المرأة في دولة قطر، والعلاقة بين المستوى التعليمي للوالدين وسلوك أولادهم وتحصيلهم الدراسي، ومعلم المرحلة الابتدائية: الدور والإعداد.

ومن المقالات الأخرى: الإعاقة الأخلاقية: خطر يهدد تربية النشء، والتحدث: مهارة لغوية، والأرقام والألوان، والمشرف، والتقويم: المجالات والاتجاهات والنتائج.

وجاء في باب «كتاب في مقال» عرض لكتاب «الأبعاد التربوية للصلاة»، وجاء باب «من تجاربي» عن التعليم الذاتي، وتناول باب «من قراءاتي» لغة الحيوان.

أدب عيادة المريض عند الطبيب إسحق الرهاوي

فاضل السباعي

الحق، لقد كان جميلاً أن يُصنَّف في وقت مبكّر من عمر حضارتنا العربية الإسلامية كتابٌ يبحث في «أدب الطبيب»، تُبيِّن فيه واجباتُ الطبيب المهنية الأساسيـة، وكل ما ينبغي أن يتحلّى به من الصـفات والخصال، أو يتّبعه من التقاليد العلمية والعملية في أثناء مزاولته صناعة الطب.

وكان لطيفًا من مؤلف هذا الكتاب المتميـز، إسحق بن علي الرّهاوي(١)، أن يتـوقّف في شـرحـه آداب الطبـيب، علـى أدب لم يكد يُعـرف قـبله، لا ولا استوقف ـ في علمي ـ أحدًا بعـده، هو ما يُمكنـنا أن نطلق عليه: «أدب عـيادة المريض»! فأدلى في بابين اثنين من أبواب الكتاب العشرين(٢) بجملة نصائح ووصـايا وتعليمـات تدخل في الأدب الذي ينبـغي أن يتـحلّى به كلُّ من يودّ أن يعـود مريضـا عـزيزًا، وأن يتجمّل به كـذلك العليلُ نفسـه لدى اسـتـقبـاله عوّاده(*).

أمراض لا يعاد فيها العليل(٣)

وأول مـا خطر للطبـيب الرّهاوي، في هـذا الشـأن، أن يـأتي على ذكـر أمراضٍ رأى أن يُكتفى فيها بالسؤال عن المريض دون المبادرة إلى عيادته، وذلك حـرصـا على راحـتـه وراحـة عوّاده، منها:

ـ أمـراضٌ تُقْلق العـليل، وتجـعل صعبًا عليـه أن يخاطب النـاس، كمن تَجيش نفسه، أو من أخَذ في يومه دواءً يسري في الأمعاء.

ـ وأمراضٌ غيرُها لا يسـتطيع فيها الاسـتـمـاعَ إلى حـديث، كـمـرض الشقيقة(٤).

ـ وأمراضٌ أخـرى حـادّة، تتطلّب السرعـة في اتّخـاذ التـدابير، وفيـهـا «يتـقـدم الطبـيـب إلى أهل المريض ألا يدعـوا عائدًا، ولا أحـدًا يدخل إليـه إلاّ من يخدمه لئلا يُشْغَل زمانُ التدبير بما لا ينفع المريض».

ـ وأخيرًا، تلك الأمـراضُ التي قـد تجـعل العليل يتفـوّه أو يتصرف بما لم يكن يريد قوله أو فـعله، كالذي يعرض لأصحاب السوداء والمالنْخوليا(٥).

أدب العائد(٦)

فإذا انتفَتْ هذه الأمراضُ المانعة، وتحقَّقتْ بواعثُ العيادة، وتوجّه الصديق أو القريب إلى حيث العليل، كان على العائد ـ حسب قول الرّهاوي ـ أن يتحلّى بجملة من الآداب:

ـ **أولها**: ألا يدخل العائدُ إلى العليل «إلا بثوب نقيّ ورائحة طيّبـة، لتقوى بذلك نفسُ المريض، وتُحرِّكه، وتَشُوّقه إلى التشبُّه به».

ومن مـقـتـضى ذلك: لا ينبـغي لأهل بعض الصنائع أن يعـودوا المرضى، «لئـلا يضـروهم بروائـحهـم، ويفـسـدوا عليـهم الهـواء»، كـبـائعي الكبـريت والقَطران، والدبّاغين، والقصابين، إلا إذا بدّلوا ثيابهم وتطيّبوا.

ـ **ثانيها**: ألا يُطيل العائدُ المكوثَ عند العليل.

والقول في مراتب العُوّاد، بما يُنَزّلونه في نفس المريض من الراحـة، أنْ لا بأس في أن يطول لَبْث أصـدقهم إلى المريض، وأقربهم إلـى نفسـه، «وأمـا غـيرهم، فالتدبير فيهم أحدُ أمرين: إمّا ألا يدخلوا إليه أصلاً، وإمّا ألا يراهم طويلاً!».

ولا يرى المؤلـف بأسـا في أن يُعلن الطبـيب المعـالج على مسمع من العُوّاد الذين يستثقلهم المريض، بعـد قليل لَبْث: «ينبـغي للمريض أن يهدأ!»، ليقوم من عنده.

ـ **ثالث هذه الآداب**: ألا يُحدّث الـعائد العليلَ بما يَغُمّه من الأخبار، ولا يروي له خـبـرًا رديئـا عن مـريض، ولا يأتي بحضرته على ذكر ميت!

ـ **رابعـهـا**: أنه لا ينبـغي للعـائد أن يستخبر عن مرض العليل «استخبار متـقصٍّ»، «فإن ذلك لا ينفع المريض من العائد، إلاّ أن يكون طبيبًا».

ـ **خـامسـهـا**: أنه إذا اتُّفق له أن التقى بالطبـيب المعـالج، «فـلا ينبـغي له أن يعارضه بحضرة المريض، إن لم يكن من أهل العلم، فيُوقع له الشكّ فيما وصفه الطبيب»!

ـ **سادسُ آداب العائد**: أنه «لا ينبغي



له أن يشير على المريض بدواء، ولا بغذاء، قد كان نفعه أو سمع بأنه نافع؛ فإن ذلك ربما حمل المريض، بجهله أو لشدة ما به، أن يستعمله فيضر به، ويفسد على الطبيب عمله، وربما كان ذلك سببا لهلاك المريض»!

ويندد الرهاوي بـ «عادات العواد والعوام من الناس التي قد جرت بغير احتشام، وهي مبادرة كل واحد منهم بوصف دواء، [أو] تدبير يفسد على الطبيب تدبيره، وكثيرا ما يضر بالمريض، وربما كان ذلك يسبب هلاكه! وإذا كان الأمر على ما وصفناه، فقد ينبغي للأصحاء أن يتعظوا بما قلناه، ويكون منهم ببال، ويتقدموا به إلى أهلهم وخدمهم، لتكون الوصية بذلك عتيدة لديهم، ومعلومة عندهم لوقت المرض!»(٧).

أدب العليل مع عواده(٨)

وإذا كان مؤلف هذه المخطوطة قد أفاض في تبيان آداب العائد، فإنه، لم يدع العليل كذلك، دون أن يخصه ببعض الأدب، الذي جاء في الحقيقة سماحا له بامتناع، وترخيصا بكتمان!

ـ فهو قد سمح له بألا يجيب عن كل سؤال يوجه إليه من العواد!

وحجته في ذلك «أن من سأل عن مسألة هي محال، فإنه لا جواب له غير إفساد السؤال»، والسائل الذي يعلم أنه قد سأل عما لا حقيقة له سقط جوابه!

وكذلك فإن «ما ورد من المسائل في غير موضعه، لم يلزم المسؤول الجواب عنه»!

ـ والرهاوي رخص للعليل أيضا، «إن أحس من نفسه باضطراب، وخشي سوء تمييزه، أن يوصي ذويه وخدمه بكتمان حالاته، إلا عن طبيبه».

ونحب أن نختم مقالتنا في أدب عيادة المريض بهذه الحكاية الطريفة التي وقعت للمؤلف الطبيب، وهو في زيارته لمريض كان يداويه؛ فقد بادر رجل من «المشايخ وذوي النبل عند نفوسهم»، كان في الحضرة مع آخرين، إلى مساءلة العليل، في «استخبار منقص!».

يقول الطبيب الرهاوي:

«...فيبدأ الشيخ يسائل المريض عن حالاته، وحال دوائه وغذائه، في أمس يومه الذي كنا فيه؟

ثم حضرت قارورته، فتكلم!(٩)

وأنا، في جميع ذلك ساكت، ليحس بسوء أدبه! فما انتبه لذلك، بل وصف دواء!!

فلما فرغ من صفته، قمت منصرفا!

فقال لي المريض: تقوم، وما وصفت لي شيئا، ولا سمعت منك يومي هذا كلمة!

قلت: صدقت، وكذا يجب!

قال ولم؟!

قلت: أولا؛ فلأن هذا الشيخ قد ناب عني، وما بقي لي شيء أقوله! والثانية؛ لأنك قد قنعت بذلك، وأصغيت إليه، فلا وجه لكلامي!

فأما الشيخ ـ يتابع الرهاوي حكايته ـ فإنه خجل، وما عاد إلى مثل ذلك، وكذلك المريض اعتذر، فتأدبا جميعا بذلك، وجميع من كان بالحضرة، ومن سمع أيضا. وإنما أحضرت ذلك هاهنا لينتبه به، ويتأدب من لم يكن يعلم ذلك»(١٠).

الهوامش والمراجع

١. مخطوطة الكتاب الوحيدة الباقية لنا اليوم محفوظة في إحدى المكتبات بتركيا، لما تحقق بعد! والرهاوي، إسحق بن علي، طبيب متميز ـ كما يقول مؤرخ الأطباء ابن أبي أصيبعة (المتوفى سنة ٦٦٨هـ) ـ «له أعمال جيدة في صناعة الطب»، أولها «كتاب أدب الطبيب» هذا، وكتب أخرى عني فيها بتصنيف مقالات للطبيب الإغريقي جالينوس (من القرن الثاني الميلادي)، وغيرها. انظر: «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، (بيروت: دار مكتبة الحياة) ص: ٣٤٢.
ومن المؤسف أن التاريخ قد أهمل هذا الطبيب العالم، سوى ما ذكره عنه ابن أبي أصيبعة الدمشقي في هذه الترجمة الوجيزة، التي يوحي تسلسل ورودها بين تراجم «أطباء العراق وأطباء الجزيرة وديار بكر»، بأن الرهاوي من أهل القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادي).

٢. الباب الخامس: «في آداب عواد المريض». ص ١٢٤-١٢٧؛ والباب الحادي عشر: «فيما ينبغي أن يعمله المريض مع عواده». ص ١٥١-١٥٤.

٣. «أدب الطبيب»، الباب٥ :١٢٤و ١٢٥.

٤. الشقيقة، كما عرفها الطبيب الأندلسي عبدالملك بن زهر (ت: ٥٥٧هـ): «وجع في قسم من الرأس، والعليل قد يحس بأنه غائر في الرأس». «كتاب التيسير في المداواة والتدبير»: ١٢٤.

٥. السوداء ـ كما تصور القدماء ـ من أمراض الدماغ، ومثلها المالنخوليا Melancolia التي هي ـ حسب قول ابن سينا ـ «تغير في الظنون والفكر عن المجرى الطبيعي إلى الفساد وإلى الخوف...». «القانون في الطب»، ج٢:٦٥.

٦. «أدب الطبيب»، ب ٥: ١٢٥ و١٣٦.

٧. «أدب الطبيب»، ب ١١:١٥٣.

٨. «أدب الطبيب»، ب ١١: ١٥٢ و١٥٣.

٩. استعانوا، في الطب القديم، شأنهم اليوم، بفحص البول للتعرف إلى المرض، وهو يؤخذ في قارورة من زجاج صاف ـ كما يقول ابن سينا ـ ويصان، قبل النظر إليه، عن أن يغيره البرد أو الشمس أو الريح. «القانون»، ١: ١٣٥.
وقد اطرد اهتمام الأطباء العرب بذلك، تأسيا بالأطباء الإغريق، ولعل أول من كتب فيه هو حنين بن إسحق ـ ٢٦٠هـ (من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي)، فإن من مصنفاته الطبية كتابا في البول مستخرجا من كتب لأبقراط وجالينوس، حسب رواية ابن أبي أصيبعة:٢٧٣.
وفي الحكاية، هنا، ما يدل على أن الرجل عاين القارورة، أيضا، وأعطى رأيا!!

١٠. «أدب الطبيب» ب ٥:١٢٦.
قلت: ونحن أيضا، سمعنا بذلك فازددنا تأدبا!
وأضيف في الختام، أني وقفت، بعد كتابتي هذه المقالة أيضا، على كتابنا «أدب الطبيب» محققا تحقيقا علميا جيدا من الدكتور مريزن سعيد مريزن عسيري، وصادرا في مطبوعات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
(٥) وقفت، بعد كتابتي المقالة، في «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لمصطفى بن عبدالله كاتب جلبي المشهور بالحاج أو بحاجي خليفة (المتوفى عام ١٠٦٧هـ) على اسم كتاب قديم كان موجودا سنة ٥٣٥هـ بعنوان: «أدب المريض والعائد» لأبي شجاع، عمر بن محمد البسطامي، المتوفى سنة ٥٧٠ هـ.

أحدث إصدارات

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

